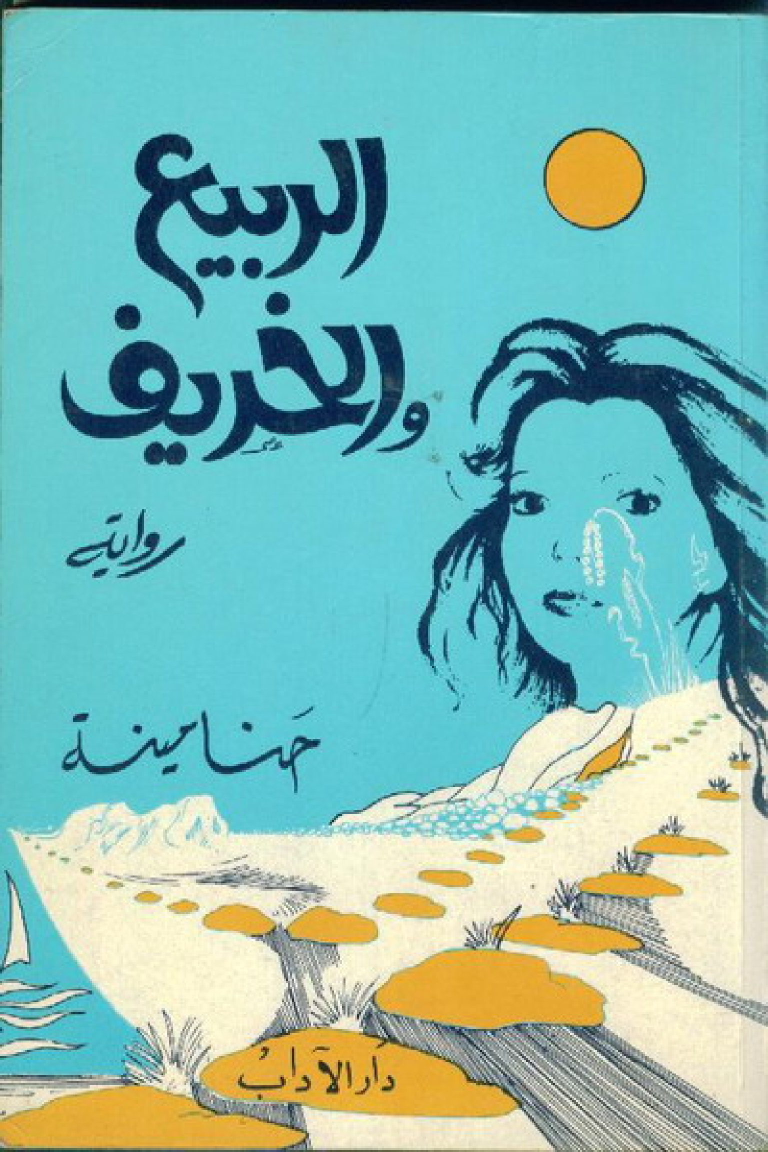

الربيع والخريف
رواية
حنا مينة
دار الآداب

الطبعة الأولى

حزيران (يونيه) ١٩٨٤

•

ويا وطناً بالحبّ نكسو أديمه
فيحرمنا من رضاهُ ويمنعُ

•

إلياس أبو شبكة

- ١ -

جلس في مقهى «ام كي» «M. K.» في شارع لينين ببودابست. كان وحيداً، غريباً، يراقب الناس والأشياء من حوله مراقبة فيها فضول، يمازجه عدم اكتراث، كأنما قرر أن يكون لا مبالياً، ما دام يجهل البيئة واللغة وطرائق التصرف، في بلدٍ ورث عن امبراطورية قديمة، كل نزعة الشعور المفرط بالذات، بالانتماء القومي، بالمهارة فيما يباشر من عمل، وفيما يصنع من موادّ، أغذية، خمور، ويبني من جسور ذات مواصفات عالية، حتى أطلق المجريون على أنفسهم، أو أطلق الآخرون عليهم، هذا اللقب الذي يحبّون ترداده وسماعه: «بناة الجسور».

وقد جاء جسرهم المعلّق، على الدانوب الأزرق، تحفة فنية معمارية، وإن كان في بدايته، من طرف «بست»، قد انحرفت استقامته قليلاً، لأن ثمة كنيسة أثرية قديمة، آثر المصممون، والبناة، وهيئة التخطيط كلّها، ألاّ تُمسّ أبداً، باعتبارها من مفاخر المدينة، وأطلقوا على الجسر اسم اليزابيث.

هذه المعلومات الأولية، التي عرفها عن المجر، وبخاصة عن بوادبست، ثم عاين بعضها منذ وصوله، كان قد حدّثه عنها صديق مجري يدعى «هيدجي»، يعمل أستاذاً في جامعة بكين، وقد ذهب

إعارة إلى الصين، لتعليم اللغة المجرية، وهناك التقى «كرم الجاهدي» الذي كان يعلّم اللغة العربية أيضاً، فأحبَّ أحدهما الآخر، إذ كانا جارين، تجمعهما بناية واحدة، في مجمع سكنيّ يبعد نصف ساعة عن المدينة، خُصِّص لإقامة «الخبراء الأجانب» الذين جاءوا يساعدون الصين، في أوائل الستينات، وبعد التحرير مباشرة، في بنائها الاشتراكي، وإعداد الكوادر اللازمة لها في كل المجالات.

كانت هذه المدينة الصينية الصغيرة، التي اطلقوا عليها اسم «دروجبا» (الصداقة) أشبه ببرج بابل القديم، لا من حيث تعدّد اللغات التي يتكلّمها سكّانها فقط، بل من حيث اختلاف جنسيّاتهم أيضاً، حتى ليمكن لأحدهم أن يتعرّف الى أخلاق وأمزجة وآراء بلدان كثيرة في العالم، من خلال معاشرة السكان الوافدين منها، مادام الجميع يلتقي في المطاعم والحدائق، والملاعب الرياضية، وحفلات المنوّعات الفنية، وتخصيصاً في «اوبرا بكين» الشهيرة، إضافة إلى الحفلات الخاصّة التي كانت تُقام في هذه البناية او تلك، كتتمّة لحفلة السبت الراقصة في النادي الواسع.

كان هيدجي طويلاً، رماديّ الشعر، أزرق العينين، مورّد الوجه، له احناءة خفيفة في كتفيه، ونظرات تحسبها تصدر عن زجاج لمّاع، ويدان لا تكفّان عن التحرك وهو يتكلم الفرنسية ببطء: كأنه يستعين بالإشارات، على نقل ما في رأسه من افكار، بحيث تتكامل مع نظرات عينيه الزجاجية، الزرقاء، وتضفي لوناً من فرح طفوليّ على مظهره كلّه، مخفّفة الى حد بعيد، من مفاخره القومية المجرية التي تبدأ ولا تنتهي، كأنما يريد أن يقنع الدنيا بأن المجر هي جنّة الله على الأرض، وأنه يمثّلها في الصين، وأن هذا

التمثيل يرتفع عنده الى مرتبة الواجب القومي الذي لا تساهل فيه، مهما كانت الظروف.

وكانت له زوجة تدعى «اتيكو»، وابنة تدعى بمثل اسمها ايضاً، بحسب التقليد المجري، ومن أجل التمييز يدعونها «أنّا الصغيرة»، وصبيّ يافع اسمه غابور، وقد جاءت هذه العائلة الصغيرة الى الصين، وفي خيالها تهاويل عن بلد العجائب، في الشرق الأقصى البعيد، بلد آلهة بوذا، والسور العظيم، والمسيرة الكبرى التي لا مثيل لها في التاريخ، والمعابد والصوامع والقبور الأثرية لأسرة مينغ.

لكن هيدجي، مع اهتمامه الشديد برؤية الصين كلها، والتعرّف الى حضارتها الباذخة، والوقوف على أساليبها في البناء الجديد، كانت له هواية، مبعثها ما قرأه في المجلات المتخصصة بالآثار والعاديات، قبل أن يأتي الى بكين. وكان مصمماً، على نحو عنيد: أن يكتشف، ويمتلك في الصين، أجمل وأقدم ما يقع عليه من تحف، رغم أن ماليته لا تساعده في ذلك، فمرتبه محدود، ولا يمكن أن يقوم تلاؤم بين «مرضه التُحَفيّ» ودخله المتواضع، بأي شكل. لذلك كان يحب الاقتصاد، الى درجة تتجاوز المعقول، وإذا اعترضت زوجه السيدة «اتيكو» على مسلكه هذا، كان يقول لها بجدية بالغة:

– تذكّري، يا عزيزتي، أنني أنا الخبير هنا، وأنا الذي أعمل، وأنك تعيشين من دخلي، وكل هذا فعلته لإطلاعك على هذه البلاد العجيبة، البعيدة، التي ما كنت تحلمين في الوصول اليها يوماً.

وتجيبه السيدة اتيكو:

– أفهم هذا.. أفهمه جيّداً.. لقد قلته مئات المرات، حتى

ملّته، لكن ذلك كله لا يمنع أن تخفّف من غلوائك التحفية اللعينة هذه، وتيسّر لنا أن نعيش كالآخرين، ما دامت هذه فرصتنا، كما قلت قبل سفرنا، للتمتّع بعامين من «شهر العسل» حسب تعبيرك.

– أولاً لنتفق ما هو شهر العسل هذا؟ ما هي مقوّماته، ونتائجه السعيدة، ومصادرها ودوافعها؟

– دعني من كلمة «أولاً» هذه التي تبدأ بها كل حديث.. في العلاقات الزوجية، لا يتكلمون كما في المحاكم... أو في المفاوضات السياسية.. لا يقولون أولاً وثانياً في كل لحظة..

– وما يقولون إذن؟

– ما أظنّك تجهل.. تتغنّى، كل لحظة، بالحضارة المجرية، بالثقافة الأوروبية، ولا تعرف كيف تدير حديثاً طيّباً مع زوجتك.. قل كلمات لائقة، حتى بالنسبة اليك كأستاذ جامعي..

– أولاً.. آسف.. لندع أولاً هذه التي لا تحبّينها...

– لا أطيقها أيضاً...

– ولا تطيقينها أيضاً..

– وتسبّب لي توتّراً نفسياً..

– وتسبّب لك توتّراً نفسياً..

– قل ما تريد الآن.. قله بشكل تنسى معه أنك أنت الخبير هنا، وأنك أنت الذي تشتغل، وصاحب الدخل الوحيد في الأسرة، وكل هذه المقدّمات التي تبعث على الغثيان..

هنا يحتد السيد هيدجي. احتداده نابع من أنه لم يشرب بعد، فثمن زجاجة من البيرة، أو إذا أسرف، زجاجة من النبيذ، يُحدث اختلالاً، مهما يكن بسيطاً، فهو اختلال في موازنته المحسوبة بدقة،

المبرمجة للشهر كله، لذلك يصيح:

– الى الشيطان بكل ما تقولين.. إنني جنتلمان بما يكفي، وهذا ما لا أحتاج إلى تذكيرك به.. الحضارة، يا عزيزتي، تاريخ طويل، وبالنسبة للمجر تاريخ طويل وعريق، وبصفتي مجرياً أصيلاً، فأنا نتاج هذه الحضارة.. لكن هذا موضوع آخر، ما يهمني، الآن، هو جانبه الاقتصادي، فالحضارة، وإن شئت السياسة كلّها، لا تُفهم دون أساس اقتصادي.. عفواً.. لا تقاطيعني.. أعرف كل اعتراضاتك.. سمعتها، حفظتها.. لكن هذا لا يمنع، ولا يلغي الحقيقة الموضوعية، التي لا دخل للعواطف فيها، وهي أنني أنا الخبير هنا، وأنا الذي أنفق عليك وعلى الأسرة.. وأنت تعرفين، وتؤمنين أيضاً، أن القيمة، بعد كل شيء، هي للعمل.. هذا هو المعيار.

– إذا كان هذا هو المعيار. يا عزيزي، فيعني أنني، الآن، لا شيء.. وإذا أخذنا بقاعدة من لا يعمل لا يأكل، فمعنى هذا أنك تتصدّق علي حتى بوجبات الطعام.. ألا ترى هذا شيئاً مخجلاً حقاً..؟

– لا خجل في العلم يا اتيكو.. أنا أبسط حقائق علمية..

– والعواطف الإنسانية؟ عواطف الزوج تجاه الزوجة؟..

– آه فهمت.. هذا بيت القصيد.. إنك تتطلبين عواطف زوجية..

– علاقة زوجية قائمة على المحبة..

– بتعبير آخر، قائمة على الحب..

– هذا هو.. الحب.. مواقف الرجل تصرّفاته، شهامته، كياسته في كل الظروف..

– أنا، إسمحي لي أن أقول هذا، كيّس في كل الظروف.. لكنك تريدين ما هو أكثر.. تريدين ما تريده كل امرأة، بعد الزواج..

– وما هو هذا الشيء الذي تريده المرأة بعد الزواج؟

– العشق! أن يبقى الزوج عشيقاً الى آخر العمر.. المرأة تريد زوجها عشيقاً، فإذا ما انصرف عنها قليلاً، افتقدت عشقه لها، ورمته بافتراءات كاذبة..

– أرفض العبارة الأخيرة.. لاحظ أنها لا تتناسب مع حديث يدور بين زوجين لا خصمين...

– أصرُّ على ما قلته.. المرأة تريد زوجها عشيقاً.. المرأة تتطلب في الرجل عشيقاً أبدياً..

– وما الضرر في ذلك؟ اليس هذا صحيحاً، وضرورياً.. ويصدر عن محبة، واحترام للذات؟

– ارجوك.. اسمحي لي.. المسألة، هنا، لا تتعلق باحترام الذات بل بالأنانية..

– وماذا في ذلك.. الحب، إذا لم يكن أنانياً.. والحب، إذا لم يكن غيوراً.. ماذا يبقى؟

كان كرم، الذي تدور هذه المحاورات بين السيدين هيدجي أمامه باللغة الفرنسية، وأحياناً، عند الشتم او الإقذاع، بعبارات مجرية، يستشعر غربة كاملة عن نمط التفكير هذا.. في الشرق لا تقوم معادلة اقتصادية صارمة فيما يتعلق بعمل الزوجين. طبعاً الظروف في الغرب تختلف، والمرأة، منذ تعلّمت وعملت، لم تبق عالة على الزوج في أوروبا، لكن الحب، بين الزوجين، يظل أسمى

من تحديد من يُقدِّم وجبة الطعام.. مع ذلك فإن كلام السيد هيدجي على رغبة المرأة في أن يظلّ زوجها عشيقها لا يجانب الحقيقة... المرأة، هذا الكائن الرائع، رقيق الشعور، بالغ الحساسية، تريد من الزوج اكثر مما هو بيت ولباس وطعام.. تنشد الحب، العشق، حياة ما قبل الزواج، يوم كانت كلمات الغزل، تشكّل قاموس الكلام، في أيّ لقاء بين مخلوقين مقدمين على بناء حياة مشتركة.. لكن هيدجي، بسبب مرضه للتحفّي يسدّ أذنيه عن مسلّمات كهذه، ويرفض الاعتراف حتى بحق اتيكو في أن تذكرها له، أن تطالب بها.. فإذا ما حاصرته، واحتدّت المناقشة، راح يصرخ:

– الى الشيطان، عودي الى بودابست.. دعيني وحدي، إنني، بعد كل شيء، اقوم بواجب تربوي، ولي مهمّة ثقافية هي الاطلاع على حضارة الشرق الأقصى، على أسرار الديانات، على حكمة الحكماء، وكل الوان الثقافات القديمة والجديدة. ذلك أنني أضع كتاباً هو أمل حياتي..

تقول السيدة هيدجي، عندئذ، وهي تحافظ على رباطة جأش بالغة:

– أفهم طموحك الثقافي هذا يا عزيزي.. لكن ما يعكّر صفوك ليس أنني أطلب أن تظلّ عشيقي، حسب تعبيرك، بل إنني أطلب أن نتناول وجبتنا كاملة.. إنني، بعد كل شيء، أتذوّق الطعام الصيني.. قل أتلذّذ به..

– ذلك أنك أدمنت..

– وكيف ذلك..؟

– الطعام الصيني، مثله مثل المخدّر، يحمل من يتناوله على

الإدمان.. وضد هذه الآفة ينبغي أن نكافح.. لا إدمان؟ هذا هو شعاري.. نحن لا نستطيع، في بودابست، ان نمارس هواية الطعام الصيني، هذا الترف الزائد.. الى الشيطان بكل المطاعم الصينية.. إنها منتشرة في أوروبا كلها.. وماذا تقدم، مقابل أسعارها الخيالية؟ أصنافاً من طعام برع الصينيون في إعدادها.. إنها، باختصار، تخدّر الزبائن وتبتزّهم.. ولن أخضع، أنا، لهذا الابتزاز.. لن أطلب، في أيّما وجبة سوى نصف طبق..

– وبثمن النصف الآخر، تبتاع تحفة.. إنه حساب جيل.

– جيل أو قبيح، لا فرق.. المهم أن تضعي في حسابك أنني هنا في مهمة ثقافية..

ولأجل هذه المهمة الثقافية، فرض السيد هيدجي على عائلته أن تقتصد.. ربما كانت حكاية نصف الطبق هذه مثلاً على منحاه في الاقتصاد، ولم تطبق في أيما يوم، لكنه كان يذكرها، كدعوة لكبت الشهوات. وقد اضطرت العائلة، امام عناده، أن تخضع خضوعاً لا مناص منه، وأن تجاري حساباته الدقيقة، بحيث لا تمسّ موازنة التحف، ولو بقي، هو بالذات، محروماً من كأس النبيذ الذي يشتهيه.

وكان كرم، الذي جاء بكين قبل السيدين هيدجي، ومكث خس سنوات متواصلة فيها، يستثير شهيّة الزوجين، في اتجاهين متضادين: يسرف في الكلام على الطعام الصيني، على مهارة الطباخين الصينيين، الذين بلغ من أمر العائلات الاقطاعية، في صين ما قبل التحرير، أنها كانت تصطنعهم وتورثهم أباً عن جد.. فقد كان للعائلة طبّاخُها الخاص، أطباقها الخاصة، وكانت كل عائلة تحافظ على أسرار مطبخها، وتفاخر، في الولائم، بما تقدم من

أصناف، تختصّ بها وحدها.. كذلك يسرف في الكلام على التحف الصينية، هذه التي يأتي خبراء وتجار العاديات لشرائها، باعتبارها ثروة فنية، لا توجد إلا في الشرق الاقصى، والأصلي منها، بالغ الندرة، ويشكل تراثاً حضارياً لا يقدر بثمن..

وأمام هذا الإغراء المزدوج، للطعام والتحف، كان يضعف الزوجان الصديقان أكثر فأكثر. يصيبهما ولع جنوني، يصطدم أبداً بفقدان الأمكانية، فيحلّ الإحباط، ويصبح الحب، والجنس، وكل روابط الروح، في خلفية الأشياء تماماً، وعندئذ، في ممارسة شرقية لهواية السخاء، يتقدم كرم باقتراح بسيط:

– ماذا، يا صديقي، لو قبلتما دعوتي؟

تنظر، السيدة هيدجي، من مجلسها بوقار. هي لا تتحدث عن العراقة المجرية بل تعيشها، تفضّل، تمسّكاً بالتأنق الذاتي، الذي لا تتخلى عنه حتى في أخذ مقعدها، أو عند تقبل كأس او سيكارة، أن تهزّ كتفيها.. إنها قادرة، حيال تصرُّفات زوجها، أن تخرجه من عواطفها، لكنها ليست على استعداد، مقابل أية دعوة، أن تدخل أيّا شخص الى هذه العواطف أيضاً. وقد فهم كرم هذا المنحى الخلقي فيها، وأثبت لها، من خلال تصرفه، أنه لا يرغب في شيء، وأن دعوته منزّهة عن شوائب كهذه.... وهذا ما جعلها تميل اليه، تودّه، تصادقه، ترغبه أيضاً، لكن دون أن يتطور ذلك الى علاقة.... وربما، في الاستثارة، عندما تتشهّى الأنثى، كانت تريده، لكنه، هو، كان لا يريدها.. إنه مريض على طريقته، مريض بحنينه إلى الوطن، وحنينه الى المجهول، الى نداء بعيد غامض، مبهم، يأتيه في نهاراته، ولياليه، وأحلامه، ويقظته، ويدعوه الى الرجوع، الى معانقة الشوق في ذات هي شطر من ذاته فقدَها يوماً لا يدري

أين، في أيّ زمن أو أيّ تاريخ. وكان يعلم، بدافع من يقين لا يقل غموضاً وإبهاماً، أنه سيلتقي هذه الذات، هذا الشطر الضائع، وأن القدر يعدّه لمفاجأة كبيرة، وأن الرياح التي حملته باتجاه اقصى الشرق، ستحمله، يوماً، باتجاه أدناه، وهناك، في مدينة في بلدة، في قرية، في خرائب معبد، في قاع واد، في غابة، سهل، ضفة نهر، شاطىء بحر، سيلقى شطره الضائع.

من أجل ذلك كانت دعوته تحمل حجمها فقط، هدفها المباشر فقط، دون غرض، ودون مقابل، سوى أن ينعم بصحبة هذين الصديقين، وأن يشهد نقاشاتها، ثم يشهد، في ممارسة تعهيد نفسه للآخرين، كيف يتصرّفان به، وماذا يقولان له، وأية انعطافات فكرية، خيالية، تجريدية، عند زوج يرفض أن يكون عشيقاً، أن يبقى عشيقاً، وأن يمارس هذا الواجب الذي خلا من أي اندفاع ذاتي، ما دامت الاندفاعات الذاتية في العشق تتناقص، وتتآكل، تدريجياً، بعد الزواج.

ومقابل تحفُّظ الزوجة، ترفُّعها، تردُّدها، يبدو الزوج، هيدجي، طفلاً طيّباً، يريد أن يلبّي الدعوة، وهو لا يداور، ولا يتردّد، في قبولها رأساً، وبكلمة شكر قلبية، بينما عيناه الزجاجيتان، الزرقاوان، تلتمعان بخبث بريء، خبث من يعرف ما يريد، ويندفع للحصول عليه اندفاعة طفل الى دمية، لذلك كان يجيب صراحة:

-. بالنسبة لي، يا عزيزي كرم، لا مانع لديّ من قبول الدعوة.. وأحسب أن أنيكو لا ترفض أن تصنع لها بهجة صغيرة.. برغم أني، في تقرير أمر خاصّ كهذا، أترك لها حريّة التصرف... إنها، بعد كل شيء، تستمتع بالحديث عن أعاجيب هذه البلاد.. ويسعدها أن

تكون معنا.. وأن تتناول قدحاً صغيراً. من هذا الشراب الذي يسمونه «ماوتاي»..

- لكن السيد كرم، تقول أنيكو، يكلّف نفسه، حيالنا، أكثر مما ينبغي.. (وتنظر إليه نظرة خاصة ثم تضيف): وفي المقابل، كيف أقول؟

- يا عزيزتي، أرجوك.. لا تقولي شيئاً.. إنني أكون سعيداً مع كرم، وهذه هي المسألة.. أنا لا تعنيني كثيراً، الجوانب الماديّة من الدعوة.. هناك ما هو أهم.. هناك..

وتضحك انيكو:

- الجانب الثقافي.. أليس كذلك..؟

- ليس تماماً.. خبرة كرم عن الحياة في الصين.. كلامه على الآثار، على الأساطير..

وتضحك أنيكو ثانية:

- وعلى التحف.. قلها يا عزيزي.. كن صريحاً..

ويقول كرم:

- أنا نفسي يطيب لي الكلام عليها.. إذا كان هذا لا يضايقك.. اين نذهب؟ إلى المطعم.. ام الى البار؟

ويجد هيدجي فرصته:

- الى البار أولاً.. ولكن، يا صديقي، هذا ما يسمونه باراً «هنا...؟ عندنا مثلاً»..

يقولها بالفرنسية chez nous par exemple ويظل، طوال الجلسة، يردد عبارته: «عندنا مثلاً» لا يقول عندنا في المجر.. يدع لجليسه أن يفهم ما يعني.. ففي الدنيا مكان واحد، هو المجر، وهذا المكان،

بالنسبة لهيدجي، هو «عندنا» وبعد ذلك نقطة النهاية.

وها هو كرم اخيراً، في الجر..

إنه سعيد في مجلسه بمقهى «ام كي» في الشارع الرئيسي من بودابست.. وقد قال في نفسه «أستطيع بعد اليوم أن أكتشف، وأتثبت، من عبارة «عندنا مثلاً»، هذه التي عنت لي، قبل المجيء، اشياء كثيرة، من قطعة البيفتيك الى زجاجة النبيذ، الى المرأة، مروراً بكل ما خلق الله من أشياء، كان هيدجي يضفي عليها طابعاً آسراً من الرؤية الخاصة، لمجرد أن تكون مجرية.».

ولقد اعترف، وهو يتذوق قهوة الاكسبريسو، أنها لذيذة تماماً، وأنها تنطبق على «عندنا مثلاً» بشكل كامل. وحين أشعل سيكارة جديدة، من علبة «الكنت» الموضوعة على المائدة أمامه، رغب بفنجان ثانٍ، على خلاف الزبائن، الذين يكتفون بطلب واحد، هو المقرر من المقهى مقابل الجلوس فيه. ذلك أن كرم يتجاوز المألوف دائماً.. يتجاوزه دون تعمّد. يفعل ذلك عفوياً، دونما ميل إلى التشوّف، أو نزعة إلى الإدهاش، أو حتى ممارسة أي نوع من التميّز، او التظاهر بذلك، يفعله لأنه ما يروق له، وما يجب ان يكون، او ما يلبّي اطمئناناً في أحاسيسه القلقة، الساغبة، الباحثة ابداً عن ظل يرف عليها، او لفتة ترتاح لها، او تصرف، فيه قدر من المتعة، حتى في الحماقة التي يتبدّى فيها.

كان ذلك بعد ظهر الأحد. في الساعة الخامسة تماماً، الساعة الأحلى من مساءات الصيف، وكان المقهى مزدحماً، وجلّ الزبائن من الشباب، وشيء ما حلو، متّسق، مُضاء بفرحة لقاء جديد، بعد سهرة ماتعة، يلوح على الوجوه، والجالسون الى موائد ملونة، رشيقة، مستديرة، يشكلون مثلثات وزوايا، وهم يتحدّثون بغير

انقطاع، وبغير تحفّظ، بأصوات رخيمة، مزقزقة، تعطي لغتهم الغريبة، المفترقة عن لغات الشرق والغرب، نكهة خاصة، هي تماماً نكهة «عندنا مثلاً» التي لخّصها «هيدجي» تلخيصاً رائعاً.

وكانت الشمس، في شارع لينين الذي يمتدّ نحو الغرب، تنسحب ببطء، كلفافة حريرية ضخمة. شفّافة، ذهبية، فُرشت كلها، ثم جرى سحبها على مهل، فهي تتقلّص وتتقلّص، تغادر، مجذوبة بقرص من المغناطيس ينحدر ويسحبها وراءه، كما عروس سائرة وثوبها وراءها في بلاطات القصور الاوروبية، وليس ثمة فارق سوى اللون الذهبي الذي تتساقط بقاياه. بقعة، على الموائد، المقاعد، الواجهة الخارجية، وتزهر قليلاً، ثم تنطفئ، مخلّفة الفراغ للأضواء الكهربائية، التي تشتعل، بدورها، تدريجياً.

كان هذا المقهى صخّاباً في الليلة الفائتة. ففي طابقه العلوي، الواسع، وعلى أنغام موسيقية هادرة، وفي جو من الازدحام الشديد، تقام، كل ليلة سبت، حفلة راقصة. ولأن بودابست، في ليالي السبت هذه، تتحول الى قاعات رقص لا عدد لها، فإن الحجز، او حضور الحفلات، يجري باكراً، ضماناً للأماكن. وكان كرم يعرف هذا من صديقه هيدجي. فقد حدّثه، في مقارنة تمّت عن احتقار شديد، بين ما يقام في «مدينة الصداقة» في بكين من حفلات سبت، وما يقام في بودابست من حفلات حقيقية، غنية، زاهية في مثل هذه الليلة. قد قال له بإشارة ازدراء من يده:

– إلى الجحيم، يا صديقي، بحفلة كهذه.. عندنا مثلاً..

أضاف:

– انتبه! ينبغي لك أن تكون قد تواعدت مع صديقة على السهر منذ أيام على الأقل.. الفتاة، منذ يوم الاثنين، تنتظر موعداً مع

صديق لليلة السبت. تعلّق على ذلك أهمية خاصة. تفهم مقدار حب الآخر، الآخرين، لها، من يوم الموعد، فإذا جاء السبت ولم تكن قد ارتبطت بموعد، تعتبر نفسها خائبة، وقد ترفض الموعد، إذا جاء في يوم السبت ذاته، لانه يعني ان الصديق الذي يواعدها لم يجد سواها، او كان فاشلاً مثلها، وان عليها، في قبول دعوة كهذه، ان تلتحق مثله بالعربة الأخيرة في القطار، وهذا مايسوؤها جداً.

ولقد جاء كرم، ليلة أمس، في نحو العاشرة، الى المرقص...

كان وحيداً، ولم يكن راغباً في السهر. وليس من صديقة ترافقه. حتى عربة القطار الأخيرة فاتته.. وبطبيعة مزاجه المتقلّب، وعدم قدرته على المكوث طويلاً في مكان واحد، خرج من البيت دونما وجهة معيّنة. كان الليل جميلاً. كانت ليلة صيف من ليالي بودابست، ومن بيته، في شارع «بنتزور اوتسا» القريب من ساحة الأبطال، سار متمهلاً، تحت الأشجار الوارفة، ينعم ببرودة الليل، وأضواء المدينة، ومتابعة المتنزهين، وهو يغضّ الطرف عن العشاق، في الزوايا، عند جذوع الاشجار، على مفارق الطرق، او فوق المقاعد التي تتوسّط شارع الجمهورية، وأمام الابطال التاريخيين للمجر، حيث يتعانق ازواج من الفتيان، ويقبل حبيب حبيبته، او يريح رأسها على صدره وأنامله تداعب وتتخلل، الشعر.

وقال في نفسه: «هنيئاً» وقال في نفسه: «حقاً إنها «باريس الصغيرة»..

ولم يستشعر ايما حرقة او حسرة، او حرمان. إنه، بعد كل شيء، في رحلة لما تنته.. رحلة بدأها من بلده البعيد، شرقي المتوسط، حين خرج، كما آدم من الجنة، مطروداً بغير ذنب. وطوال هذه الرحلة، كان يرد، بغير شعور، على كل احساس

بالتآلف، بإحساس مضادّ، نابع من النفور أن يستكين أو يألف، او يرضى بفكرة العيش طويلاً خارج وطنه. كان الانتماء إلى الوطن دماً في دمه، وكان هذا الانتماء حنيناً الى البيت، والحي، والبحر، والشاطئ، ووجه الأم.. وكان، فوق ذلك، حنيناً الى مجهول، الى صدر، الى هالة بدرية، الى ابتسامة ماسية، الى مخلوق غير محدّد، غير مجسّد، لكنه موجود، ونادر، وبهيّ وماجد.

لذلك مرّ بالمقهى في طريقه ليس إلاّ. وكان أمام باب المرقص صفّ من الشباب والشابات، في ثياب السهرة، وكان ينتظر دوره في الدخول. فجأة نبق سؤال في ذاته: «لماذا لا أدخل أنا أيضاً»؟ وكعادته في الإقدام، مضى الى تنفيذ فكرته رأساً، أخرج نقوداً، وحاول ابتياع بطاقة، لكن قاطع التذاكر لم يكن يعرف الفرنسية، وعبثاً حاول شرح غرضه بالإشارة، لكن حارس الباب المجري، وهو رجل ثخين ببزّة رسمية، تدخّل وقام بالترجمة، ولأنه أجنبيّ، وسائح، فقد سمح له بأن يتخطّى الصفّ، وهكذا وجد نفسه يصعد الدرجات الأولى الى المرقص، ووجد، لا يدري كيف، فتاة تتأبط ذراعه.. زاعمة أنها صديقته.. لكنها، ما ان صارت داخل القاعة، حتى لوّحت له بيدها مودّعة وهي تضحك بصوت عال، فيه شقاوة، وعندئذ أدرك أن دوره انتهى، وأنه لم يكن إلا وسيلة اصطنعتها الفتاة للدخول الى فتاها الذي ينتظرها على طاولة حجزها مبكراً في المرقص.

- ٢ -

لم يستشعر كرم أيما انزعاج من لعبة الفتاة معه. كاد، أمام ضحكتها العابثة، أن يطلق ضحكة عالية هو الآخر، لقد خدع.. وماذا في ذلك؟ المرء، أحياناً، يحب أن يُخدع، أن يكون ضحية لمقلب صغير بريء كهذا، ما دام بعيداً عن الضرر، عن الأذى، وفيه طموح مشروع الى الحياة، والى التمتّع بالرقص والغناء في ليلة آخر الأسبوع، حيث الجميع، يَدْعون همومهم، متاعبهم، جانباً، وينشدون المسرّة والترويح عن النفس.

إحساس خفيف، خفيف جداً، بالأسى انتابه، لأن لعبة الفتاة التي لم تدم إلا دقائق، ولم تستغرق الا مسافة صعود الدرج، قد بعثت فيه أملاً بأنه ما يزال في العمر الذي يتناسب مع المفاجآت السعيدة. لقد دهش، وهو يقطع بطاقة الدخول، أن ذراعاً تشتبك بذراعه. وحين التفت ووجد فتاة صبية، ضاحكة العينين، تتعلّق به، اتسعت دهشته، وعامت على بحر من السرور الداخلي، فعرض أن يبتاع لها تذكرة، لكن الفتاة أرته تذكرتها المقطوعة سلفاً، وشدّت به باتجاه الدرج، قافزة قفزاً، قبل أن ينتبه الحارس، ويحتجّ الذين قطعوا تذاكر مثلها، ووقفوا في صفّ طويل ينتظرون دورهم في الصعود الى قاعة الرقص.

قال في نفسه: «حسناً! هذه علامة جيّدة في دفترك يا صديقي هيدجي. «عندنا مثلاً» لم تأت على واقعة كهذه.. انت في سنك، ومكانتك الجامعية، لم تعد من رواد المراقص أو الملاهي الليلية، وربما لم تقف، منذ زمن بعيد، منذ أيام الشباب، في صفّ على باب مرقص. السيدة اتيكو حدثتني عنك طويلا. روت قصصاً كثيرة عنك، روتها وهي تضحك، قالت إنك تتصرف بشيء من انعدام المسؤولية، أحياناً، لكن تصرفك يتخذ طابع الطرافة، وقد ألفته، منذ السنة الاولى للزواج، لذلك لم تعد تستاء منه، وإذا كان حبّك للنبيذ في بودابستك الجميلة هذه، قد تحوّل الى حب مجنون للتحف في بكين، حتى أنساك الهوى الأول، فإنها عانت من نوباتك النبيذية غير قليل من المتاعب والهموم. قالت إنك كنت، في بعض الليالي، وخاصة ليلة السبت، تخرج في طلب أي شيء، ولو كان كيلو غراماً من البطاطا، لوجبة الأحد، فتوصيك ألا تتأخر، ولا تتغيّب، وأنها بانتظارك، لإعداد الوجبة منذ المساء، وتؤكد أنت أنك عائد لتوّك، وأن شيئاً لن يغريك أو يلهيك عن هذا الواجب البيتي، وأنك ستعود سريعاً، لتتناول كأساً من النبيذ معها، هي زوجتك الصغيرة، اللطيفة، التي أحببتها وانتما في الجامعة. وتصدق هي أنك عائد وتؤمن أن أيما أمر لن يجعلك تُهملها، أو ينسيك أنك خرجت في طلب حاجة من حاجات البيت، لكنك، منذ أن تصبح في السوق، وترى الى حانة النبيذ، او يناديك أحد أصدقائك من داخلها، حتى تدخل، وفي نيتك، كما تؤكد لها، أن تأخذ كأساً.. كوباً فخارياً كما أكواب البيرة، وهذا لا شيء، في حساب قدرتك على الشرب، ولن يؤثر فيك أيما تأثير.. غير أنك بعد الكوب الاول، تجد نفسك منسجماً في الحديث مع الشاربين، أو مع الأصدقاء،

وتنظر في ساعتك، قائلاً لمن معك: «علي أن أذهب.. إنني، بعد كل شيء، رجل متزوج، وأنيكو تنتظرني» ولكن مقاومتك تضعف امام إغراء النبيذ، وطلاوة الحديث، فتجد نفسك مدفوعاً الى طلب كوب آخر، وهكذا، يمضي الوقت، تزداد مقاومتك ضعفاً، ويزداد طلبك للنبيذ، وتعود في اليوم التالي، دون بطاطا ودون فلوس.. وتشرع، كعادتك في مثل هذه الأحوال، بإرسال الحانة والنبيذ والشاربين الى الشيطان، مقسماً أنك لن تفعلها مرة أخرى، مهما كانت الأسباب.. لكنك، يا صديقي هيدجي، كنت تفعلها، وتقف ساعات على رجليك في حانات النبيذ، هذه التي حدّثتني عنها طويلاً، قائلاً: وأنت تمصمص شفتيك، «عندنا مثلاً» آه! اللعنة لو ذقت النبيذ المجري يا كرم، لو ذقت نبيذ «توكاي» الفاخر.. لا بد أن تأتي الى المجر، وأن أصحبك إلى حانة نبيذ، وأن أدعك تتذوّق هذا «الإكسير الإلهي».. لكنك لم تذكر المراقص إلا قليلاً، ولم تقل إن الناس، عندكم في بودابست، يقفون في صفّ طويل، بانتظار الدور للدخول.. لقد رأيت انا، في بكين، وموسكو، وفيينا، وجنيف، وعواصم أخرى، الناس يقفون في صفوف لأجل الخبز، لأجل اللحم، السمك، المعلبات، واشياء اخرى، اما ان يقفوا، في صف، لدخول المراقص، فهذا ما لم أره سوى في بودابست.. بودابستك الدانوبية الفاتنة يا صديقي».

كان، كرم، يجلس الى «البار»..

اعتزم أن يتناول كأساً من الكونياك ويخرج.. وكان البارمان يتكلم الفرنسية، وقد نصحه أن يجرب الكونياك المجري. قال له: «الآخرون، السيّاح، الزوّار، وحتى المجريون أنفسهم، في بعض الحالات، يتذوّقون الكونياك الفرنسي.. بونابرت، او مارتيل، او

غاموس.. لكنني، أنا، أنصحك أن تجرب الكونياك المجري.. اليك قدحاً، ما دمت تطلب نصيحتي».

وافق كرم بغير تردُّد. لم يكن ثمة ما يدعو إلى التفاخر بطلب الكونياك الأجنبي، فرنسياً كان او غيره. هذا يفعله بعضهم تكرمة لمن معهم. الصديق، إذا كانت معه صديقة عزيزة، يقدم لها مشروباً أجنبياً.. شامبانيا او كونياك او ويسكي. وقد يفعل المجري ذلك، لمجرد حب الأشياء الأجنبية المستوردة.. الخبراء الأجانب، في بكين، ومن جميع البلدان، كانوا يتباهون ما أن تكون لديهم سلعة غير صينية. كانوا، برغم الصعوبة والتعقيد، يستوردون بعض الحاجات من هونغ كونغ.. خاصة السكائر.. أما هو فقد أحبّ السكائر الصينية، والطعام الصيني، والألبسة الصينية، ولم يجد ميلاً الى مجاراة الآخرين في الولع بما هو مستورد، من فرنسا او اميركا.. وقد سافر مرة الى شانغهاي، واشترى هناك حذاءً جميلاً، من صنع الصين نفسها، لكنه، حين عاد الى بكين، ورأت الحذاء سيدة كندية، حكمت فوراً انه من «هونغ كونغ» فأحب أن يمتحنها، مؤكداً أنه من هناك، ومن صنع انكليزي، وعندئذ شهقت السيدة الكندية قائلة: «يا لروعته!» وحتى عندما وصل الى المجر، ولبس حذاءً مجرياً، رفض جاره أن يصدق إلا أنه حذاء إيطالي.. وهكذا تذكّر مثلاً قديماً في بلده سورية، مفاده «كل ما هو فرنجي برنجي».

لم يغادر المرقص بعد القدح الأول، كان صديقاً دائماً للبارمانات.. وقبل ذلك، في وطنه، كان صديقاً للخمّارين، كان يطلق عليهم لقباً جميلاً: «صانعو المسرّات». وأعظم صانع مسرّة بالنسبة اليه، هو الخمّار الذي يفهم من الإشارة. يتعهّده كما يجب

ان يقول. إذا جاء وحده، واذا جاء مع آخرين، فليس له ان يطلب.. الخمّار الذكي، الرائع، ابن المهنة، هو الذي، من نظرة، يفهم كل شيء، ويستجيب، تلقائياً، لما يرغبه، وما يناسب المقام. وعلى هذا السلوك واظب في إقامته الاضطرارية في أوروبا والصين. كان يصادق البارمان، في أي بار او فندق. برغبة حقيقية. يستشيره، يطلب رأيه، يحادثه، ينادمه إذا كان لديه وقت لذلك.. وكذلك كان يفعل مع «الميتر» في أي مطعم او فندق، ويعتبر هؤلاء أصدقاءه، وأدلاّءه، لما فيه نفعه، ومتعته، في الشراب والطعام. ولكم أحب همنغواي، بعد ذلك، لأنه كان يحب البارمانات أيضاً، ويطلق على أحدهم اسماً فخماً جليلاً: «المايسترو الأعظم»، ولعله، في تذوّقه لأصناف الشراب، ومزجاته المتعددة، وألوان الطعام، والتوابل، كان مديناً لهمنغواي، وسائراً على خطاه، إلا فيما يتعلق بالاستدانة، من أيّما بارمان، أو تأجيل الدفع، او التهاون في الإكرامية، فقد كان حريصاً على الملاءمة بين ما يحمل من مال، وما يتناول من شراب أو طعام.

ولقد أثنى، منذ القدح الأول، على الكونياك المجري، وقال للبارمان فيرانتس:

- نصيحتك، يا صديقي، في مكانها.. زدني من هذا الشراب..

قال فيرانتس:

- يسرّني أن أسمع ذلك.. نادراً ما يقع لي أن أنصح بمشروب مجري.. ادارة المحل تفضّل أن تقدّم المشروبات الاجنبية للسيّاح.. هذا يرضيهم أكثر.. وثمنه أغلى، بما لا يقاس..

قال كرم:

- على كل، أنا لست سائحاً اجنبياً.. ثم لست طاووساً بذيل عريض ملوّن كما ترى..

قال فيرانتس:

- الى الجحيم بكل الطواويس.. هؤلاء الرقعاء يجلسون هناك، في الصالة، ويرقصون حتى الصباح، على زجاجة نبيذ واحدة..

- هؤلاء شباب.. وقد جاءوا للرقص لا للشرب.. إنني أفهمهم..

- وأنت..؟ هل ستقنعني بأنك لن ترقص..؟

- أنا سأشرب فقط.. ألا تراني وحيداً.. وبالمناسبة.. ماذا افعل ببطاقة الدخول هذه، التي دفعت ثمنها مئة فورنت..؟

- تشرب بثمنها حين تجلس الى مائدة في الصالة.. هذه ليست رسم دخول الى المرقص.. انها ثمن شراب، حتى لا يسهر الناس على زجاجة بيرة.. إنها الحدّ الادنى..

- والحدّ الأقصى؟

- أن تشرب، أنت وأية فتاة، حتى السكر ثم تذهبا إلى الفراش..

أضاف فيرانتس ضاحكاً:

- وما أحسبك ستسألني ماذا تفعلان في الفراش، أليس كذلك يا صديقي؟

- أنا لن أسألك سؤالاً لعيناً كهذا.. وإن كنت أجهل، حتى الآن، كيف أتعامل مع فتاة مجرية في الفراش.

- المرأة المجرية كغيرها.. فقط احذر أن تكون غجرياً معها..

- وماذا يفعل الغجر يا فيرانتس؟

- يرفعون ساقيْ المرأة بأكثر مما يجب..

- أنا سأرفعها بأقل مما يجب..

- انت يا سيد كرم، ستتصرف مع المرأة المجرية كما تتصرّف، الآن، مع الكونياك المجري.. تتذوّقها على مهل.. وبكثير من اللطف.. ولن تقنعني بغبائك.. قل لي، لماذا جئت وحدك الى المرقص..؟

- لان أحداً لم يأت معي.. ما زلت غريباً عن الجو.. انا هنا منذ اسبوع فقط..

- الم تتعرف الى أيّا فتاة..؟

- بلى! تعرّفت الى فتاة، وأنا أدخل المرقص.

وروى له الحكاية.. فضحك فيرانتس في غير تحفّظ، وانصرف الى تلبية طلبات الزبائن، حتى إذا فرغ وعاد إليه، قال له مازحاً:

- أنا لست شرطياً على كل حال.. ولو كنت كذلك لما استطعت إرغام تلك العاهرة الصغيرة على الاعتذار إليك..

- أنا الذي سأعتذر إليها.. لقد راقبتها.. إنها تجلس هناك.. سأرسل الى طاولتها زجاجة من النبيذ.. تعبيراً عن اعجابي بذكائها.. ساعدني يا صديقي.. ممن أطلب ذلك؟

- من الكرسون.. ولكن انتظر.. افعل ذلك بعد انتهاء فترة الرقص..

- خلال ذلك، لنشرب معاً كأسين من الكونياك يا فيرانتس، ما رأيك؟

- فكرة طيبة..

- وإليك تذكرة الدخول هذه.. تصرّف بها..

- اسمح لي أن أشكرك إذن، على الكونياك، وقيمة تذكرة الدخول هذه..

- لا تشكرني.. يكفي أن تكون صديقي..

- يسرّني أن أراك هنا دائماً.. ولكن ليس وحيداً.. ولا مع فتاة ترافقك في صعود الدرج فقط.. مع صديقة.. صديقة حقيقية.. ترقص معها إلى الصباح..

- أرجو ذلك.. وإن كنت، أحياناً، أحب أن أكون وحيداً.. أن أراقب لعبة الآخرين دون أن أشترك فيها..

- في هذه الحال لن تتعرّف على المجر بشكل جيد.. هل ستطول إقامتك؟

- ولكنني مقيم هنا.. أنا أعمل في بودابست..

- وماذا تعمل؟

- أستاذ في الجامعة، قسم اللغة العربية..

- هذا جيّد.. جيّد جداً يا سيد كرم..

- قل يا صديقي..

- يا صديقي..

- والآن نخب صحتك.. كيف يقولون ذلك بالمجرية؟

- اكش اكدري..

- اكش اكدري يا فيرانتس!

- شن شن.. يا صديقي كرم.. والآن، أي نوع من النبيذ تريد..؟.. هيّا.. لقد توقف الرقص، سأذهب بنفسي وأشرح الموقف.. وسأرى تلك الصغيرة.. وأعطيك رأيي..

انتقى كرم، بناء على نصيحة فيرانتس، أفخر نوع من النبيذ، وذهب البارمان بالزجاجة الى الطاولة التي حدّدها كرم.. ورجع وهو يضحك قائلاً:

- إنهم يشكرونك.. لقد حدّثت الفتاة أصدقاءها بما وقع لها.. وكانت القصة طريفة ضحكوا لها.. لكنهم آسفون لعدم دعوتك الى مائدتهم.. ظنّوك مرتبطاً بموعدٍ ما..

- لو دعوني لأعتذرت.. أنا لن أستغلّ مصادفة كهذه..

- وما هو وجه الاستغلال في الجلوس إليهم؟ هيّا.. أنت لا تعرف المجريين بعد.. إنهم عشراء وطيّبون جداً..

بعد قليل جاءت الفتاة وصديقها الى البار.. كانت تبتسم وقد احمرّت وجنتاها من النبيذ والرقص.. قام فيرانتس بمهمة التعريف. أصرّ كرم على دعوة الشابين الى كأسين من الويسكي، لاحظ أن الفتاة تتجنب النظر إليه مباشرة، لعلها تخشى أن ينفجر ضحك تكتمه، تجنّبها هو أيضاً، خشية أن يجاريها في الضحك. كان مزهراً الآن يفرح مفاجيء. لم يكن لديه ما يقوله.. فوق أنه لا يستطيع ان يقوله بالمجرية والفتاة لا تتكلم سواها، اما الفتى فيتكلم الانكليزية التي يجهلها كرم إضافة الى ان البارمان فيرانتس استأثر بالحديث، وراح الشابان يصغيان اليه، وكانا يبتسمان، ثم ضحك الثلاثة معاً، وقال فيرانتس:

- أخبرتها أي غجريّ أنت!

- أرجو ألا تكون قد أتيت على ذكر الفراش..

- اكتفيت، هذه المرة، بالكلام على غجريتك في الشراب..

- كيف؟

- قلت إنك خفت من الكونياك المجري.

- وماذا أيضاً؟

- وأنك تخاف المرأة المجرية.. لذلك انت وحيد هنا..

- في هذه أنت على حق..

- لذلك اقترحت على الفتاة أن تشجّعك قليلاً..

- آمل ألاّ تكون قد فهمت الموقف خطأً..

- الى الشيطان بالفهم الخطأ يا صديقي.. أنت في بار أم معبد..؟

- أنا في مرقص..

- أفضل شيء إذن أن ترقص، هيّا، الفتاة تدعوك..

قالها وتكلم مع الفتاة بالمجرية.. ابتسمت.. قالت:

- أرحّب.. ؟

ونزلت عن كرسي البار. كانت هذه الحركة منها بمثابة دعوة، وكان صديقها لاسلو، الذي هو خطيبها أيضاً، يبتسم بطيبة، مشجّعاً خطيبته على أن تجعل كرم سعيداً، فيما كان هذا يتقدّم الفتاة، ثم تأخر مرتبكاً، وجعلها تسير أمامه كما ينبغي، واضطر، في حلبة الرقص، أن يجاريها في حركاتها الخفيفة على ألحان موسيقى صاخبة، لم يألفها في الصين، استشعر معها حرجاً غير قليل، لأنه هو، ابن الأربعين، كان يرقص منفعلا، ويدفع يديه إلى أمام ووراء، ويحرّك ركبتيه، ويهزّ كتفيه، محاولاً اصطناع المرح، البهجة، الاندغام بالجو، راغباً في كل لحظة، أن ينتهي هذه الجنون الموسيقي، وأن تعزف الجوقة مقطوعة هادئة، تريحه من هذا الاخفاق الجسدي، وتتيح له أن يحتوي جسد الفتاة بهدوء ونعومة، وانسياب كما ألف.. لكن الموسيقى ظلت سريعة، عنيفة، وظل كرم يتطوّح كأنه في حلقة ذكر، والفتاة ترى اليه وتبتسم، مدركة انه ما زال غريباً على الجو والموسيقى، وانه يلقى عنتاً في مجاراتها..

- انتهت الجولة، عادا الى البار، كان فيرانتس والفتى يتحدثان ويتضاحكان، وقالا له:

- أحسنت.. كانت رقصة ممتعة، أليس كذلك؟

- أرجو أن تكون قدما روزيكا سليمتين..

وقالت الفتاة مازحة:

- ليس تماماً..

وقال فيرانتس:

- دبكت جيداً يا صديقي..

أضاف:

- لا بأس بما فعلت، كبداية.. ظني انك لم ترقص سوى التانغو..؟

- وحتى هذه، كانت تانغو لعينة على الطريقة الصينية.. لكنها كانت تناسبني اكثر، أنا العجوز كما ترى.

قال فيرانتس:

- أنت عجوز عاهر على كل حال.. اسمح لي ان اقول هذا يا صديقي..

- لا انزعج من هذا الوصف.. إنه أفضل لديّ، فيما لو كنت صالحاً لذلك..

- سنسأل صديقتك في المستقبل.. السيدة هي التي تعطي علامة الرجل..

- ستكون علامتي صفراً اذن..

قال فيرانتس ضاحكاً:

- ومع الرحمة أيضاً.

قال كرم:

- لا تكن غجرياً سفيهاً يا فيرانتس.. أنا لا أريد الرحمة..

قال لاسلو:

- ما رأي السيد كرم ان يأتي ويجلس معنا بقية السهرة؟

وقالت روزيكا:

- أصدقاؤنا طيّبون، وسيكون مسروراً بيننا...

ترجم فيرانتس، وقال:

- أنا أقبل الدعوة نيابة عنه.. أريده ان يدخل الحياة المجرية بسرعة.. (وقال بالفرنسية) هيا يا صديقي.. لن احتجزك على «باري» هذا اكثر مما فعلت.. اذهب وكن مرحاً.. لا تخشَ على قدمي الّتي تراقصك كثيراً.. انت لا تقدم امتحانا في الرقص على كل حال..

- شكراً على لطفك يا فيرانتس.. سألحق بها بعد قليل..

انصرف الشابان. دفع كرم حسابه.. دفع أيضاً ثمن زجاجة أخرى من النبيذ، حملها الكرسون الى المائدة، وجاء هو بعده، مرتبكاً قليلاً، متسائلاً عن الطريقة التي سيتفاهم بها مع أصحابه، لكن شاباً بينهم كان يتكلم الفرنسية بركاكة، استطاع ان ينقل كلماته، ويكون واسطة تفاهم في حديث عادي، يدور حول أصله، وعمله، ورأيه المبدئي بالمجر..

قال كرم بنبرة صدق:

- بودابست رائعة.. حدّثني عنها صديق مجري التقيته في الصين..

سألت عدة اصوات دفعة واحدة:

- في الصين؟

- نعم.. ولماذا الاستغراب.. قضيت في بكين خمس سنوات..

- وماذا كنت تعمل؟

- مدرساً للغة العربية..

سألت فتاة:

- هل صحيح أن المرأة الصينية تضع قدميها في الحديد منذ الصغر؟

- كان هذا في الماضي.. الآن، بعد التحرير، انتفت هذه العادة.. تحررّت الصين، وتحرّرت اقدام الصينيات أصبحت كبيرة، مثل أقدام النساء في كل مكان..

- ونهود النساء الصينيات.. هل صحيح أن الفتاة تضع عصابة على ثدييها كي لاينمُوَا..؟

- هذا صحيح أيضاً.. لكن ليس الآن.. كان ذلك في الماضي.. وعلى كل هذا ذوق جمالي خاص..

- كيف؟

سألت الفتاة:

- التذوّق الجمالي يختلف من بلد لآخر، او من منطقة الى أخرى في هذا العالم..

صاح لاسلو خطيب الفتاة:

- ولكن هذا عجيب.. امرأة ودون صدر؟

قال كرم:

- أنا أيضاً أقول إنه عجيب.. إنني لا افهم كيف يتذوقون الاشياء.. ولكنهم يتذوقونها.. في الدنيا اكثر من حسّ جمالي..

وطغت الموسيقى الصاخبة، كرة اخرى، على الحديث، ومن جديد ألفى كرم نفسه امام حرج مراقصة إحدى الفتيات، فنهض الى الحلبة، وتطلع الى فرانتس فرآه يبتسم، ويشجعه بحركة ودّية من يده، وهكذا بدأ جولة من «الروك أندرول» وغاب في زحام الأجساد محاولاً نسيان وقاره الأربعيني متذكراً قولة البارمان «كن

مرحاً وطيباً» وعبارة هيدجي «عندنا مثلاً» وقال في نفسه: «كل شيء في المجر يبدو مغايراً لما عرفته في بكين.. هنا المجتمع مفتوح، والتعصب المذهبي لا أثر له، وتستطيع منذ أسبوعك الأول، أن تتخذ أصدقاء من المجريين، وأن تدخل بيوتهم، أنت الذي عشت خمس سنوات في الصين فلم يكن لك، خارج علاقات الدراسة، أيما صديق صيني، ولم تدخل بيتاً صينياً قط.. أرقص يا كرم، ادبك كما قال لك فيرانتس، ولكن لا تكن غجرياً.. ابن العاهرة كشّفك منَ اللقاء الأول، قال عنك انك عجوز داعر.. ربما كان يمزح، ولكنه لم يبتعد عن الحقيقة.. أنا داعر بما يكفي، أحب المرأة والشراب، والرقص.. لكنني لا أستطيع أن أكون خارج جلدي.. لا أقوى على احتمال هذه الغربة التي طالت، ومهما عرفت من نساء، يبقى هناك، في داخلي فراغ.. يبقى حنين او هذا ما كابدته في الصين، وما أدري إذا كانت المجر ستخطفني من نفسي، ستنسيني انني غريب، وأني في منفى ألجأتني اليه الظروف، وأن الوطن يناديني، وربما كان حنيني اليه يتجاوز الأرض والبحر والغابة، يتجاوز البيت والحيّ والمدينة، ويتّصل بالإنسان.. الأهل، والأصدقاء والرفاق، وشيء ما مبهم، أحسه ولا أكتشفه، لا أحزره، ولا أعرف التعبير عنه.

في نحو الواحدة بعد منتصف الليل انتهت سهرته، رقص بما فيه الكفاية. شرب أكثر مما اعتاد لكنه ظل محتفظاً بوعيه وعند وداع الفتاة وخطيبها أعطاها عنوانه، وشكرها على الدعوة، والسهرة، والمصادفة الغريبة، وقالت الفتاة:

- ستزورك وستحدثنا عن الصين.. لا شك أن لديك قصصاً كثيرة عن تلك البلاد..

– ولديّ تحف صينية أيضاً، وموسيقى شرقية، ومجموعة كبيرة من اللوحات..

فقالت الفتاة بدهشة وبراءة:

– ما امتع كل هذا.. سنزورك في اقرب فرصة، الى اللقاء!

عاد الى بيته القريب ماشياً، كان الجو لطيفاً جداً، وكان الهواء منعشاً، وقد طاب له، بعد وصوله، أن يكتب فصلاً جديداً في روايته، فظل ساهراً الى الفجر.. وعندئذ استلقى على فراشه ونام الى عصر اليوم التالي.. ثم نهض فتناول طعام الغداء وقصد مقهى «ام كي» مستثمراً الراحة والصحو بعد تعب الرقص، وإجهاد الكتابة، والنوم العميق العميق الدافئ..

وها هو يستعيد وقائع ليلة الأمس، وقبلها وقائع حياته في الصين وأحاديث هيدجي، وحواره مع البارمان فيرانتس، منصرفاً عن كل ما حوله، راغباً في التعرف بأحد، حتى بعض العرب الذين يترددون على المقهى ويتعاطى بعضهم التهريب، وتبديل العملة في السوق السوداء مكتفياً بمتعة مراقبة الأشياء في ذاته، ومن حوله، في نوع من الاسترخاء والكسل الملوكي.

كانت تجلس إلى مائدة مجاورة فتاتان، كانتا تنتظران أحداً ما. ولم تطق إحداهما البقاء فقامت وخرجت. بقيت الأخرى، إما بإنتظار عودة صديقتها، او بانتظار صديق ما، وقد بدا عليها القلق، فهي تكثر من النظر في ساعتها، وتكثر من التدخين.. راح يراقبها بفضول. كانت جميلة فارهة القامة. ذات شعر خرنوبي، وعينين عسليتين، مستديرة الوجه، غيداء وفي وجنتيها غمازتان تكسبانها طابعاً متميزا، خاصة عندما تبتسم.. لم يول الأمر، في

البدء، أيّ اهتمام، مخالسة النظر الى وجهها وطاولتها كانت تتخذ صفة الاهتمام من انسان غريب. بحالة غريبة من القلق تتبدى على فتاة الى جواره، كأنما هو رسام وقع على نموذج لوجه فريد.. لكن الفتاة، تناولت علبة تبغها بعصبية، ومدّت إصبعها داخلها كأنها على يقين ان ثمة، في قاع العلبة، سيكارة وحيدة باقية.. لكنها، مع الأسف وجدتها فارغة، وعندئذ قبضت على العلبة في كفها ودعكتها، وفي اللحظة نفسها، مدّ اليها كرم علبة «الكنت» قائلاً بالفرنسية:

– تفضلي.. ارجوك!

— ٣ —

بوغتت الفتاة بحركة كرم وبلغته الفرنسية، وبعد تردّد لم يدم ثواني، مدت يدها وتناولت سيكارة، شاكرة بالفرنسية بدورها. أشعل كرم السيكارة، وأشعل لنفسه واحدة، ونظر اليها مباشرة. غضّت طرفها تحت وقع نظراته. كان مزيج من شعور خاص يتملّكها، فهي تعرف الآن ان هذا الرجل الأجنبي كان يراقبها، وهي مسرورة لأنه فعل ذلك، وكارهة لأنه ضبطها في اللحظة المناسبة، لحظة بحثها عن السيكارة الأخيرة في علبتها.

تركها كرم تداري مشاعرها المستجدّة. لم يكن متعجلاً، او متلهفاً، ولم تبدر عنه تلك الحركة عن تعمّد كامل، وليس هدفه منها اقتناص امرأة، مهما تكن رائعة الجمال، على نحو يبتذل فيه نفسه، فهو كثير الاعتداد من هذه الناحية، ويعتبر طرح النفس على الآخر، لمجرد تعارف او تحية، نوعاً من الرخص في السلوك، ينأى عنه، ولا يرتاح اليه حين يتبدى في أيّما إنسان أيضاً. لقد فعل ما فعل، لانه وجده مناسباً. ولان الفتاة لفتته بقوة، فهي صغيرة، وغريبة عن جوّ المقهى والفتيات المتردّدات عليه، وهي مثقفة او طالبة، بدليل ما تحمل من كتب، ورغم القلق الذي ينم عن نفاد صبر، فإن فيها لامبالاة واضحة بالذين حولها، او الذين مروا بها، وحدقوا

فيها، وقد رفضت، كما خيل اليه، عرض شاب اراد الجلوس الى طاولتها، وفتحت كتابها مشيحة بوجهها عنه.

الفتاة أيضاً، التي أخذت بحركة كرم وتقبّلتها، لم تكن على استعداد، مقابل بادرة فيها كياسة، أن تسمح لصاحبها أن يستغلّ بادرته على نحو سوقي، لو أتبع حركته بأيّ عرض لرفضت فوراً، ولو قدم لها سيكارة اخرى لامتنعت، ولو اصطنع أيّ وضع فيه تظاهر لازدرته. أما ان ينصرف الى تدخين سيكارته، دون ان يتعجل الالتفات اليها، ودون ان يستغل مناسبة السيكارة لمباشرة حديث معها، فهذا يعني أنه يحترم فعلته ويتصرف بحجمها. قالت في نفسها «هل هو فرنسي؟ ليس بالضرورة أن يكون فرنسياً إذا تكلم اللغة الفرنسية، وحتى لو كان فرنسيا فلي لي معه شأن». إنه سائح كغيره. وهو وحيد ويرغب في أن تكون له صديقة. يرغب اكثر أن تكون صديقته على إلمام بالفرنسية. ثم هو يكبرها بشكل واضح. حنطي اللون، في شعره بعض البياض، في نظراته شرود، معتدل القامة مثلها، على نحول بالنسبة لعمره، لا ينتظر أحداً، ولا يتلهّف الى اكتشاف الأشياء بسرعة، شأن السائح الذي يريد أن يعرف اكثر ما يمكن في أقل وقت ممكن.

مرة اخرى باغتها. ضبطها تختلس النظر إليه. ابتسم. ارتبكت. ابتسمت، اطرقت، جاءها صوته:

– هل لدى آنستي مانع لو جلست الى طاولتها؟

أجابت ببرود:

– تستطيع ذلك لو اردت..

نهض واقترب منها، انحنى وعرّف بنفسه:

- كرم الجهادي..

- بيروشكا..

جلس قبالتها، وقدم لها سيكارة تناولتها وقالت:

- آسفة.. نفدت سكائري، ولم استطع الخروج لابتياع علبة منها..

- هذا يصادف.. نحن المدخّنين نفهم هذه المصادفات، ولا نعلق أهمية عليها.

أضاف:

- تسمح آنستي ان اطلب لها علبة من الكرسون.. ما نوع سكائرك؟

- لا يبيعون سكائر في المقهى...

- اذن نقتسم ما عندي، حتى نفلس من السكائر معاً..

- لكنني لن أجعلك تفلس لأجلي..

- هذا أفضل أنواع الإفلاس.. نرتاح قليلاً..

- في هذه أنت مصيب.. تأمل! طالبة جامعية ومدمنة على التدخين!

- كنت في سنك أنا أيضاً حين أدمنت.. برغم أنني لم أكن طالباً جامعياً أبداً.

تأملته ملياً، فكرت: «ماذا يكون اذن؟ مظهره لا يدل على شيء معيّن اجتماعياً. لا هو بعامل ولا فلاح. مثقف.. حديثه يدل على أنه مثقف.. لكن أي نوع من الثقافة؟ إنه لم يكن جامعياً قط.. ماذا يعمل إذن؟ ما هي مهنته؟ ما هو الوسط الذي ينتمي إليه؟ أيكون تاجراً؟ رجلاً ثرياً؟ وماذا يعمل في المجر؟ سائح؟ زائر؟ له مهمة؟» وقالت في نفسها: «مهما يكن.. فأنا بعد كل شيء، لن ألتقي به ثانية.. مصادفة. مجرد مصادفة. ربما كانت معرفتي

بالفرنسية هي التي رغّبته بي.. يستطيع أن يقيم حواراً معي.. يعرف أشياء عن المجر مني.. او ربما.. لكنه ليس من أولئك.. ام إنه يتظاهر بالبراءة؟ من يدري.. سأكون معه كما أنا.. الأمر لديّ سيان.. حين تعود صديقتي نفترق.. وبانتظارها اثرثر معه قليلاً.. أدعه يأخذ فكرة جيدة عن المجر».

سألها:

- ما رأي آنستي أن نشرب شيئاً؟

- شربت قهوة..

- وأنا شربت عصيراً.. كنت ظمآن.. اما الآن فيمكن أن نتناول شيئاً آخر.. قدحاً من الويسكي مثلاً.

- هذا لطفاً منك.. ولكنني أفضّل النبيذ..

- ما نوع النبيذ الذي تفضيلنه؟ إنني أجهل أنواع الأنبذة عندكم.. لذلك أترك لك حرية الاختيار.. دعيني أتعرف الى ذوقك في هذا المجال..

ابتسمت بيروشكا.. قالت في نفسها: «ألطيف هو ام يتلاطف معي؟ هذه الطريقة في المعاملة تنطوي على قدر كبير من التهذيب.. هل هذا بسبب أنه فرنسي..؟ ينشر شباكه ليصطادني.. أيظنني سهلة الى هذا الحد؟ لا يبدو من لهجته أنه فرنسي.. أعرف اللهجة الفرنسية تماماً.. مع ذلك لا بأس، سأسأل الكرسون عن أجود ما عنده من النبيذ.. لكنني سأقول له إن هذا ذوق الكرسون وليس ذوقي.. انا لست خبيرة على أية حال.. الأفضل أن اكون صريحة معه».

قالت:

- في المجر أنواع كثيرة من النبيذ.. لنسأل الكرسون عن أفضل ما عنده..

- كما تشائين.. ما دمنا لا نريد ان نختار، فلنترك الأمر للكرسون..

أومأ الى المضيفة. كانت فتاة هي التي تقوم بالخدمة في القسم الذي يجلسان فيه، وقد تولّت بيروشكا الكلام معها بالمجرية. تضاحكت المضيفة البدينة قليلاً. وراحت تعد أصناف النبيذ بالقلم على أصابعها وبيروشكا تتابعها محتارة، ثم قالت حاسمة الموضوع:

- ريزلنغ..

وسألت كرم:

- ما رأيك بالريزلنغ...؟
- موافق.. على أن يكون مبرداً جيداً..

قالت المضيفة:

- إنه مبرد.. وأستطيع أن آتيكما بسطل من الثلج..

سألت بيروشكا:

- هل تحبّون النبيذ عندكم؟
- نحبه.. لكننا نفضل العرق عليه.. هل لديكم عرق في المجر؟
- لا.. هل هذا مشروبكم الوطني؟
- نعم.. نمزجه بالماء فيصبح أبيض كالحليب..
- كيف..؟ تشربونه حليباً؟
- كما يفعل الأطفال!
- عفواً.. أردت هل له مذاق الحليب؟
- وفائدته أيضاً.. إنما للرأس وليس للمعدة..

ابتسمت بيروشكا. قالت:

- لم أقصد شيئاً سيئاً..
- ولا أنا.. إنما اعجبتني فكرة الحليب هذه.. عندنا يسمّيه بعضهم «حليب السباع».

- بودّي أن أراك تشربه..
- وأن تريني أنقلب سبعاً.. لكن احذري.. قد آكلك عندئذ..

(قالها وفتح فمه على مداه ضاحكاً)

- انت جنتلمان ولا تفعلها..
- من يدري.. أما سمعت بأكلة لحوم البشر؟
- ولكن هؤلاء في افريقيا..
- ونحن في آسيا.. جيران!
- عفواً.. لا أريد أن أكون قليلة تهذيب.. إنه فضول لا أكثر..

عادت المضيفة بزجاجة «الريزلنغ» كانت باردة، وداخل سطل من الثلج. تذوّقها كرم وأبدى إعجابه، وعندما صبّت المضيفة من السائل الماسي في الكأسين، قال:

- بصحتك يا آنستي..
- بصحتك يا سيد..

شربا. أشعلا سيكارتين. كانت بيروشكا تنظر إليه الآن مباشرة، نظرتها تنطوي على تساؤل. تريد ان تكتشف من هو؟ ماذا يريد؟ ما وراء هذه الدعوة؟ وكان كرم يحدس ذلك، يقدر رغبتها في اكتشاف غايته. غير أنه كان واثقاً انها لن تكتشف شيئاً. لسبب بسيط، هو أنه لا يريد شيئاً، تكفيه متعة الجلوس معها. لو رآه البارمان فيرانتس مع امرأة بهذه السرعة لقال له: «حسناً فعلت يا صديقي.. كنت أعرف أنك داعر من النظرة الأولى» ولقدّم له، بعد ذلك، كأساً، على شرف هذا الانتصار السريع.. ولكن فيرانتس واهم.. ليست المسألة على هذا النحو.. إنه لا يبحث عن انتصار بالعلاقة مع الآخر.. لو أراد ذلك لفاز به منذ زمن بعيد.. لكن الانتصار لمن، بعد كل شيء؟ ولماذا يعدّ الرجل نفسه، في علاقة كهذه منتصراً، ولا تعدّ المرأة نفسها كذلك؟ هل ثمة

ذكورية في المجر أيضاً؟ تظل الذكورية حالة اجتماعية قائمة؟ والتقدّم؟ والحضارة؟ واستقلالية المرأة؟ سيادتها؟ وكل ما أعطتها الثورة الصناعية الأوروبية؟

رجع من شروده فألفى بيروشكا مطرقة. كانت تفكر هي الأخرى، لكنها لم تكن مبتهجة. ظلال من وجوم ترتسم عند ملغميها. كانا معاً في المكان ولم يكونا معاً في الزمان، كل منهما ذهب في ناحية، تساءل: «من اين جاءت؟» وتساءلت: «من اين جاء»؟ وقال في نفسه: «ما أظنها تحسبني من أكلة النساء» وقالت في نفسها: «ما أظنه يحسبني من النساء اللواتي يؤكلن».. انتبه الى أنه تصرف بغير لباقة. تذكر نصيحة فيرانتس: «لا تتصرف كغجري في الفراش» قال في نفسه: «التصرّف كغجري يمكن أن يكون خارج الفراش أيضاً..» قال معتذراً:

- لا تؤاخذيني.. شردت قليلا..
- وأنا أيضاً..
- كان علي ألاّ أفعل.. هذا ليس من اللياقة..
- لا أحرص على التصرّف الدقيق.. إنه مضجر.. أليس كذلك؟
- هذا رأي الشباب..
- ورأيك؟..
- لنشرب اولاً.. انظري.. كأسانا يتثاءبان..
- لنحذر اذن.. قد نتثاءب نحن أيضاً..
- هذا تعبير شاعر غزليّ من عندنا..
- حدّثني عنك أولاً.. تتمسك بقواعد اللياقة في التصرّف دائماً؟

- أبداً.. إنما أنا غريب.. وأحب مراعاة قواعد السلوك عندكم..
- نحن لسنا تقليديين الى هذه الدرجة.. أقول هذا عن نفسي على الأقل.. تصرَّفْ براحة.. كنْ أنت.
- شكراً على هذا السماح.. سأكون أنا بقدر ما تكونين أنت.. أعني لن أصطنع الأشياء.. لنشرب أيضاً..

شربا جرعة كبيرة.. ابتسما دون كلام. صار أكثر انسجاماً. تحرّرا نوعاً ما. توقّعت أن يتكلم أكثر.. أن يقول أشياء عن نفسه.. لم يفعل.. ما كان يتعمد. لم يفعل لأنه لم يجد ضرورياً أن يقدم نفسه أكثر مما فعل.. ولا هو سألها أن تقول أشياء إضافية عن نفسها.. استرخى.. رغب في أن يسرعا في الشرب.. كان هو الذي يقترح ذلك.. ما كانت متحفظة، غير أنها لاذت بالصمت.. تركته يقود الحديث.. لم يكن هذا ملائماً له.. أمس، مع البارمان فيرانتس، مع تلك الفتاة التي تعلّقت بذراعه، مع خطيبها، مع المجموعة. كان أكثر قدرة على الكلام.. كان قد شرب جيداً، هم أيضاً كانوا قد شربوا حتى انتشوا.. سيشرب حين يريد.. يَدَعها، هي أيضاً تشرب حين تريد.. لا يحب كثرة الأنخاب.. لماذا لا تتكلم؟.. تنظر إليه ولا تتكلم.. تبتسم حين يضبطها تتفحصه.. هل هي حذرة الى هذا الحد؟ تنتظر أحداً؟ تدعه إذا جاء «هذا الأحد»؟؟ ألا تكمل الزجاجة معه؟ يقبل الآخر، لو جاء أن يقاسمها الشراب؟

سألها:

- ماذا تقرئين؟
- هذه كتب جامعية..
- في أية كلية أنت؟
- كلية الآداب..

ارتاح.. بينهما شيء مشترك، جميل أن يكون الأدب هو هذا الشيء، ولكن الدراسة في كلية الآداب لا تعني أكثر من أنها دراسة، يعمل الخرّيج بعدها في التعليم او غيره. لو كانت كليات الآداب تخرج أدباء وأديبات لامتلأت الدنيا بهم، كما يمتلىء البحر بالسمك.. في هذه الحال يظل البحر أقل امتلاء، فالسمك يأكل بعضه بعضاً.. اما الأدباء؟ ابتسم، ألا يأكل الأدباء بعضهم بعضاً؟ وقال في نفسه: «لو توقّف الأمر على الحجم، على قوة العضل، قوة الفك، القدرة على الافتراس وحدها، لكان الأكثر غباء وضحالة هم الأكثر قدرة على النهش.. إنهم حيوانات «أدبية» ضخمة هؤلاء».

سألها:

- لماذا اخترت هذا الفرع؟
- لأني أحب الأدب..
- ولك محاولات؟
- بسيطة.. أكتب مقطوعات شعرية..
- مقطوعات أم قصائد؟ قولي الحقيقة..

ضحكت..

- لست شاعرة على كل حال.... هذا لقب كبير.. أنا مبتدئة..

أدرس الأدب المجري بعد..

- مَنْ مِنَ الشعراء المجريين تفضلين؟
- اندره آدي..
- ومن أشهر شعرائكم؟
- الكسندر بيتوفي.. ولكن هل هذا امتحان؟
- تقريباً.. غير أن العلامة ستكون بعد سماع مقطوعة من شعرك..
- آسفة.. لا تساعدني لغتي الفرنسية على الترجمة الشعرية..

- لنترجم الشعر اذن الى خمر..
- هذا جيد.. الشعر والخمر متلازمان..
- والمرأة؟
- ما رأيك انت..؟

قال ضاحكاً:

- أهذا امتحان؟
- تقريباً.. والعلامة تأتي..
- لا تساعدني لغتي الفرنسية على الترجمة.
- يا لك من داهية.. تحاربني بسلاحي نفسه؟

اعتدل في جلسته وشرب كأسه كله.. طلب منها أن تفعل كما فعل، قال لها: «أرجوك».. ملأ الكأسين. رغب عن الكلام الجادّ، مال الى المزاح.. ماذا يقول عن المرأة؟ ثمة أشياء تحس ولا تقال.. الحب مثلا.. كيف يشرح الحب؟ ماذا يقول الحب عن نفسه؟ النظرة، ههنا، تكفي. أبلغ، أبلغ، أبلغ.. نظرة وصمت.. اذا تكلمت عن الحب أسلمته للبرودة.. كذلك الشعر والخمر والمرأة.. ولكن أن نسمع الشعر، أن نشرب الخمر، أن نحب المرأة.. هذا يصير.. تعيشه، تحسه، تستمتع به.. ولكن ان تتكلم عنه، كيف يستطيع بكلمتين، ان يتكلم على المرأة؟ حتى لو استطاع فإنه لن يفعل.. المرأة بالنسبة اليه، هي الخمر والشعر والدنيا.. لو قال هذا لظنّت انه يتمدحها.. يقول كلاماً يرضيها.. يبالغ كي يستميلها، كي يظهر أمامها أنه رجل حضاري.. المرأة معيار في حضارة الرجل، هذا ما يؤمن به، لكنه، إنْ يقل ذلك، أمام امرأة من الجلسة الاولى، فهذا يضعه في صورة كل الرجال.. وهو يريد التميّز.. يريد ان يكون هو لا غيره.. من أجل ذلك يفضل أن يصمت، أن يسألها هي عن الرجل.. يرى صورته في تفكيرها..

قال:

– في جلسة تعارف كهذه، مع كأس النبيذ المثلوج، تصبح لعبة الدهاء باطلة.. أنا لا أحب هذه اللعبة في كل الأحوال. وخاصة في لقاء كهذا.. أنت تسألينني رأيي بالمرأة.. يمكن أن أقول ذلك بكلمتين، ويمكن أن أقوله في محاضرة، لكن.ليس الآن.. لذلك أعتذر عن عجزي.. وفي المقابل، أستطيع أن أعرف رأيك بالرجل؟

– ليس في جلسة كهذه..

– ها أنت تردّين التحية لي..

– لانك تحب التعامل بالرموز.. اعذرني على صراحتي.. أنت، حتى الآن، لم تقل من أنت. ومن أين جئت، وماذا تعمل، وماذا تريد.. أنت، عدم المؤاخذة تلفّ نفسك بالسولوفان..

– صحيح؟ ما كنت أدري.. حسبت نفسي واضحاً بما فيه الكفاية..

– إذا كنت واضحاً فكلّمني عن نفسك قليلاً.. كل ما أعرفه أن اسمك.. كيف هو..؟

– كرم.. كرم الجاهدي..

– ما معنى كرم؟

– السخاء..

– وأنا بيروشكا.. الحمراء الصغيرة..

– اسمي إذن يا عزيزتي بيروشكا.. أنا من سورية، من مدينة دمشق.. وقادم من الصين.. ومقيم في بودابست، وأعمل استاذاً للغة العربية في الجامعة.. وأحبّ الأدب.. لكنني لم أكن يوما في الجامعة، او في كلية الآداب.. ولم أمارس نظم الشعر.. وإن كنت أحبه جداً جداً.. ولا غرض لي، ولا أريد أيا شيء، من أي

إنسان.. إنني، كما ترين، أحب النبيذ فقط.. وأشرب نخب تعارفنا.. هل امتلأت الاستمارة؟

– وتسميها استمارة؟

– محضر تحقيق..

– اتراني شرطية؟

– لا.. باحثة اجتماعية...

– انت لا تهزأ بي أليس كذلك؟

– يا عزيزتي بيروشكا..

لكنه لم يكمل.. قطعت حديثه فتاة وقفت وألقت التحية.. نظر اليها ونهض. تذكر انه رآها تجلس مع بيروشكا أول دخوله المقهى. صافحها.. عرّف بنفسه.. ذكرت الفتاة اسمها لكنه لم يستوعبه.. جلست وتحدثت مع بيروشكا بالمجرية.. تضاحكا.. وقالت بيروشكا:

– السيد كرم.. أستاذ اللغة العربية في جامعة بودابست..

– وددت لو كنت من طالباتك..

قال كرم:

– لشدّ ما كان يسعدني هذا..

– هل اللغة العربية صعبة؟

– ليس أصعب من اللغة اليابانية..

– وقالت بيروشكا:

– أنت تخيفنا يا سيد كرم.. أليس كذلك؟

– وسأل كرم الفتاة:

– ماذا تشرب آنستي.. نبيذاً ام ويسكي؟

– وقالت الفتاة:

– بل ويسكي..

كانت، لأمر ما، تنزع الى التحدّي.. يعود ذلك الى الحسد؟

حسدت صديقتها لأنها كانت موضوع استحسان من رجل؟ يكون ذلك لأنها أقل جمالاً منها؟ لم ترتح إليه؟ نبرة صوتها تنمّ عن عدم تلاؤم مع وجودها. خائبة! ما أصعب المرأة إذا كانت خائبة! تختبئ الريح في ثيابها عندئذ. تنبت مسامير في أصابعها.. هو لم ير المسامير، لكن ردّها عليه.. تشديدها على كلمة «ويسكي» فيه قدر من العنجهية، وآخر من عدم الرضى..

ولما عادت الكرسونة بالطلب، بادر الى ممارسة لباقة تتجاهل خشونة أنامل ما تزال تحت الطفولة. قال:

- بصحة الآنسة..

وقالت بيروشكا معرفة:

- ماكدا..

- بصحة الآنسة ماكدا..

فأجابت بفتور:

- بصحة السيد:

- كرم..

وشربت جرعة كبيرة، فتقلّصت عضلات وجهها ليس إلا..

- ٤ -

عند الغروب اقترحت بيروشكا أن يتنزهوا قليلاً، باتجاه ساحة الأبطال. كانت قد شربت من النبيذ ما يكفي لكي تبدو مرحة قليلا. زايلها التحفّظ الذي لازمها في أول التعارف. أخذت تتصرّف بودّ ظاهر. رغبت، أمام صديقتها، أن تعطي هذا الانطباع: «كرم صديقي» صارت الأقرب إليه. قامت بدور المترجمة بينه وبين صديقتها، وبدلاً من استشعار الهزء في كلام صديقها، راحت تقهقه لأنها نكتة ترد، ولو بشكل عابر. لقد تخطّت لحظات التعارف زمنها. اختصرته، جعلته مسكوناً بحب ولّد في نفسها على الأقل، عملاقاً كأنها تعرف كرم منذ دهر، أو كأن قدراً يُعِدُّها له، ولم تفعل هي، سوى الامتثال لهذا القدر.

ساروا على امتداد شارع لينين، انعطفوا يميناً الى شارع الجمهورية المفضي الى ساحة الأبطال. كان المساء بهياً، والساحة ملأى بالمتنزّهين، وعلى جانبيها المتحف الوطني ومتحف الفن التشكيلي. بيروشكا كانت تتكلم أكثر الوقت. قامت بمهمّة الدليل. كانت تعتصر ذاكرتها لتجد الكلمات الفرنسية المعبّرة. وحين تعوزها، كانت تقول الأشياء بالمجرية. وتضحك وهي تقول: شاينوش (آسفة) وتتابع الكلام على ساحة الأبطال، بتماثيلها البرونزية، وأسطورتها التاريخية، حيث القائد الاكبر أرباد، الذي قاد القبائل

الجرية في هجرتها الى المجر. كانت مفعمة فخراً وحماسة، وكرم يجهد كي يجاريها، متذكراً صديقه هيدجي، بعينيه الزجاجيتين الزرقاوين، ويديه وأصابعه وحركاته، حين يكون قد شرب، وطفق السكر يغلبه، ووقف كمن يخطب صائحاً: «نحن المجريين يا كرم، من أوقف زحف المغول على أوروبا. هذه الأمة الصغيرة هذا البلد الصغير، بلد الشجعان، هو الذي ردّ المغول على اعقابهم، بعد ان اجتاحوا الروسيا نفسها.. لقد انقذنا اوروبا من التتار» لوحة حربية بانورامية. سيوف وخيول. أرباد العظيم، والذراري.. من نسل أرباد انت يا بيروشكا؟

سألت بيروشكا، فجأة:

– قل لي، سيد كرم، هل تحب المتاحف؟

– أنا من هواة الآثار.. يكاد البحث عن التحف يأخذ وقت فراغي كله.. هذا ما كنته في الصين على الأقل.. هنا في بودابست، لم أبحث بعد.. لا بد أن أفعل..

– ابحث وستجد.. نحن أيضاً لدينا آثارنا القديمة.. ولدينا أشياء حديثة بالطبع..

قالت الصديقة:

– بأي نوع من التحف تهتمّ؟ هنا لدينا أيقونات أثرية شهيرة.. ولكن انتبه،ممنوع إخراجها من المجر..

– وملكيّتها.. داخل المجر؟

– لا أدري.. يجب أن تسأل عن هذا..

– سأفعل.. لست مستعجلاً..

قالت بيروشكا:

– أتمنى لك التوفيق.. أنا واثقة أنك ستعثر على تحفة نادرة.

– هذه عثرت عليها..

– أين؟

– في مقهى «أم كي»..

– أنت تمزح يا سيد كرم.. أليس كذلك؟

– أنا جادّ في ما أقول.. لقد عثرت على تحفتي مصادفة..

– متى؟ سألت الصديقة.

– اليوم.. في حوالي الرابعة بعد الظهر..

ابتسمت بيروشكا.. ضغطت على يده. بدت مزهوّة لهذا الإطراء أمام صديقتها. قالت:

– شكراً يا سيد كرم.. هذا لطف كثير منك.. لكننا كنا نقصد التحف الحقيقية..

– وأنا كنت أقصد تحفة حقيقية..

– لكنك بدأت تبالغ..

قال جادّاً:

– ربما اكون مبالغاً.. لكنني أعتبر الإنسان أعظم تحفة في دنيانا..

– هذا في المطلق (قالت الصديقة جادّة وبلهجة مسمومة).

– ويمكن ان يكون في التخصيص أيضاً.. بيروشكا كانت لطيفة الى أبعد الحدود.. وأنا مسرور بالتعرف اليها، وسروري اكبر مما لو عثرت على أيما تحفة..

تضاحكت الفتاتان، تكلّمتا المجرية. قالت الصديقة شيئاً لم تشأ بيروشكا ترجمته. دخلا في حوار قصير،انصرف خلاله الى تأمل بيروشكا، جانب وجهها، عنقها، شعرها، ضحكتها، وحتى عبوسها. لاحظ أن وجهها حيّ الى درجة أن أيّ تأثر يرفّ عليه. لم يكن وجهاً جامداً، متخفياً وراء قناع، بخلاف صديقتها. كانت هذه مموّهة. تروزه خفية. تريد أن تكتشفه بأكثر مما يعنيها. قال في نفسه

«أكاد أحزر ما تقول. تظنني متملّقاً. قد أكون قلت مالا ينبغي، ما يقوله الرجال كلهم. لقد أردتها، في البدء، نوعاً محبباً من نكتة. أنا لست سريع البديهة. مع ذلك جربّت لعبة ذكاء فاشلة. أردت التعبير عن سعادة. قلت ذلك صادقاً. الإنسان أعظم تحفة في هذا الوجود. هذا ما أؤمن به. لكن بعض الإيمان يحسن أن يُكتم في النفس. أن يتسرَّع المرء، حتى في إظهار إيمانه بشيء، يجعله موضع شك.. ما أحسبني مخطئاً.. هذه الساحة. هذا الاعتداد، هذا اللقاء، كل ذلك، مع الطيبة التي أظهرتها بيروشكا، جعلني أعطي حكم قيمة. قلت عنها تحفة. تحفتي النادرة.. أكون مخطئاً؟ قد لا أكون لكن ما هو أشد خطأ، أن تظن الصديقة أنني أتملق.. وفي الحقيقة، ورغم كل شيء، هل كنت متملقاً دون أن أدري؟ لماذا؟ ما دافعي الى ذلك؟».

اغتمّ قليلاً، حاول ألاّ يَدَع ذلك يبين. تظاهر أنه معنيٌّ بما حوله من مناظر، وجد نفسه يقول:

– ما أروع بودابست يا عزيزتي بيروشكا!

كان الليل قد هبط. كان ليلاً صيفياً. وكان القمر بدراً، والأنوار، من على طرفي الشارع، ومن وسطه أيضاً، تسطع بألوان بهيجة. حلا له ان يسأل الفتاتين نزهة في الغابة المجاورة، بيد أنه وجد السؤال محرجاً. في الصين لم يعرف الغابة حتى في النهار. لم تكن له صديقة هناك. وما كان قادراً ان يجلس الى فتاة في مقهى، أو أن يدعوها الى نزهة. هنا، كما قال هيدجي، الأشياء تختلف، «عندنا مثلا» هذا صحيح يا صديقي، عندكم، مثلا، بيروشكا. عندكم «ام كي»، ساحة الأبطال، البارمان فرانتس، روزيكا وخطيبها، المجتمع هنا مفتوح. الغريب لا يبقى غريباً، الحياة

الاجتماعية تشدّه اليها قادر أن يجد صداقات من الأسبوع الأول، بل من اليوم الأول. لكن الحذر ضروري.. أنت لن تحرج الفتاتين يا كرم بهذه السرعة. بطلب كهذا. دخول الغابة في الليل، قد لا يحمل معنى طيّباً. كفَّ عن نزواتك. تمتّع بأمسية صيف حلوة. تمتّع بالقمر، بالسماء الصافية، بالنجوم القليلة المتناثرة.. الأفضل لو تجلس مع الفتاتين على مقعد من هذه المقاعد الكثيرة التي يتقاسمها المتنزّهون. يتناهبها العشاق. أنت لست عاشقاً. لا تصلح أن تكون كذلك. أنت في الأربعين. أنت مشروع عجوز في الأربعين.. بيروشكا في العشرين. ربما أقل.. ليست المسألة مسألة عمر. لكنك لن تستطيع أن تجلس معها، وأن تحتضنها وتقبلها كما يفعل الآخرون. لا أحد يلومك إن فعلت. لا أحد يلتفت اليك، أنت وشأنك، لكنك. أنت، تلتفت الى نفسك. تمارس إحساساً ذاتياً بعدم الرضى. أنت لن تكون غجرياً كما أوصاك فرانتس.. لن تستغلَّ جلوسك، لبعض الوقت، مع بيروشكا. دع الغابة وشأنها، دع العشاق وشأنهم.. ستفعل حسناً لو دعوت صديقتيك إلى أحد المطاعم.. هذا أفضل اكثر مدعاة للراحة والاطمئنان.. أجلب للثقة.

– عزيزتي بيروشكا!

قال فجأة، كأنه انتبه لتوّه إلى وجودها بجانبه.

– ماذا يا سيد كرم؟

– ما رأيك، انت وصديقتك، لو تقبلان دعوتي الى العشاء في أحد المطاعم؟

اعتذرت الصديقة:

– لا أستطيع، علي، الليلة، أن أعود باكراً.. أمس سهرت الى الصباح.. كانت ليلة السبت كما تعلم. ترجمت بيروشكا.. شرحت:

ليلة الاحد، في الجر، تكون هادئة غالباً، بعد صخب ليلة السبت. يعود الجريون، ليلة الأحد، الى بيوتهم في وقت مبكر.. يستريحون، استعداداً للدراسة او العمل.

- فهمت، قال كرم، أتقبّل الاعتذار في هذه الحالة.. أنا أيضاً سهرت ليلة امس..

- اين، سألت بيروشكا.

- في مرقص «أم كي»..

قصّ ما وقع له. كان مسروراً باستعادة قصته، روزيكا كانت ذكية.. وكان البارمان فرانتس لطيفاً. لقد قضى وقتاً طيباً.. وهو تعب قليلا، لكن لا بأس بكأس بعد هذه النزهة، مع عشاء خفيف.. غير أنه لا يصر.. ليدع بيروشكا تتصرف..

قالت بيروشكا:

- كان بودّنا. صديقتي وأنا، أن نقبل دعوتك.. لكنها ليلة الأحد، كما قالت صديقتي، وأنت ألست تعباً بعد سهرة الليلة الماضية؟

- لم أرقص كثيراً.. ثم إنني نمت الى ما بعد الظهر، هذا اليوم..

- ولو لم نكن معك.. أين كنت تقضي سهرتك الليلة؟

- في البيت..

- أين بيتك؟

- في شارع.. كيف تقولون: بنتزور اوتسا..

هتفت:

- ولكنه قريب جداً..

- اجل.. نحن في الحي، تقريباً..

- هل تسكن وحيداً؟

- تماماً..

- وكيف تقضي أوقاتك؟

- بالقراءة.. وسماع الموسيقى..

سألت الصديقة:

- لديك موسيقى شرقية؟

- صينية مثلاً؟

- بل يونانية.. هل تحب موسيقى تيودوراكس؟

قال كرم:

- أحب موسيقى فيلم زوربا.. أحبّها جداً.. لدي موسيقى عربية أيضاً.. مقطوعات قليلة..

قالت بيروشكا:

- صديقتي تهيم بالموسيقى..

- لو كان لديكما بعض الوقت، لكنت سعيداً بسماع بعض الموسيقى معكم في بيتي..

- وهل هذا ممكن!؟

- لماذا لا؟

- أعني هل تستقبلنا في بيتك؟

- بل أرحّب.

قالت الصديقة:

- على أن تكون الزيارة قصيرة..

- كما تريدين.. وسأكون سعيداً بتقديم القهوة العربية لكما..

قالت بيروشكا:

- عظيم.. موسيقى شرقية، وقهوة عربية.. هذا إغراء لا يقاوم..

انعطفوا من ساحة الأبطال الى بنتزور اوتسا. ساروا تحت أشجاره الوارفة. كان الطريق قصيراً، مريحاً، فيه عبق من تلك الليلة الصيفية. كانت بيروشكا وصديقتها تتحدثان بما يشبه الهمس. بدا عليهما توقّع ما. إنهما مغامرتان في زيارة مرتجلة، وكرم مرتبك لاستقبال فتاتين مجريتين للمرة الأولى في بيته يفكر بقطعة الموسيقى، وفنجان القهوة، وكل ما يرضي ضيفتيه، ويدخل السرور الى قلبيهما.

توقفوا عند البناية ١٩ في ذات الشارع، كانت تليه السفارة الصينية، وامامه السفارة الفيتنامية، فقالت بيروشكا:

– أهذا حي للسفارات؟

قال كرم:

– لا أدري.. كل ما اعرفه ان السفارات كثيرة هنا.. إنه حيّ ارستقراطي على ما يبدو..

– والسكنى فيه ممتعة.. انت الذي استأجرت البيت؟

– بل الإذاعة.. هذا بناء يعود للاذاعة، فأنا اقدم برامج أدبية باللغة العربية إضافة الى عملي في الجامعة.

دخلوا البناء الكبير.. رأتهم حارسة البناء لم تقل شيئاً. كانت امرأة ربعة، نشطة، متيقظة، وكانت تعرف ان كرم ما يزال غريبا، ويجهل اللغة المجرية. وهذا مبعث استغرابها. توقّف وحيّاها. رفض أن يدخل متسللاً. هذا أرضاها ولا شك. سمعها تقول: «تفضلوا» بالمجرية، فمضوا الى المصعد ومنه الى الطابق الرابع حيث تقع شقته في أقصى البناء وتطل على حديقته الواسعة من جهة الشرق.

فتح الباب ودخل امامها. كانت شقته صغيرة، تتألف من غرفتين، تفضي احداها الى الأخرى وبينهما باب خشبي عريض اذا

فتح، صارت الغرفتان غرفة واحدة مستطيلة، وكانت الشقة، كما تسلمها مفروشة. فيها خوانان عريضان، يفتحان ليلا فيصبحان سريرين مزدوجين، ويغلقان نهاراً فيعودان الى وضعهما السابق: مقعدين طويلين للجلوس، مع ثلاثة مقاعد أخرى، في زاوية الغرفة الداخلية. التي تطل نافذتها على الحديقة، ومكتب صغير، في الزاوية المقابلة، وخزانة زجاجية على طول الجدار، وخزانة ملابس، وكل ما يلزم لعائلة صغيرة.

كان كرم، الذي حمل معه من الصين صناديق من التحف، قد استطاع، خلال ايام، أن يرتب بيته وفق ذوق خاص، يتلاءم مع عرض يبرز بعض مقتنياته الأثرية الثمينة والنادرة. وضع على مكتبه تمثالاً كبيراً من خشب، يمثّل طبيباً شعبياً، وعلى قاعدة من جذع شجرة، ترك على طبيعته، فبدا التمثال المحفور، المجسم، كأنه ينهض فوق أرومة شجرية رائعة. وفوق التمثال كلة من ورق مقوى، كغطاء لمصباح كبير، مزدانة برسوم نساء صينيات، وداخلها مصباح ملون. وإلى جانب التمثال وضع مسجلة جديدة، من أحدث ما انتجته شركة فيليبس، استوردها من هونغ كونغ، مع أشرطة جديدة، فيها كل أنواع الموسيقى. وقام في الزاوية المقابلة برافان من خشب البابو، محفور حفراً نافراً، عليه طيور وزهور ونقوش فاتنة. وفي الطبقة السفلى، الخشبية، من الخزانة الزجاجية، أنشأ ما يشبه «البار».. فيه كثير من أنواع المشروبات، وبينها مشروبه الصيني المفضل «الموتاي»، وعلى رفّ الخزانة الطويل، تماثيل خشبية، وخزفيات من البورسلين الصيني القديم الفاخر، وعلى الجدران لوحات صينية غريبة بصورها، عجيبة بمزيجها اللوني، وفي كل زوايا الغرفة، لوحات من عاج، تمثل اعراساً وافراحاً شعبية

صينية، مع لوحات خشبية محفورة، فيها حروف صينية، تتشكل منها كلمات مثل السعادة، العمر الطويل، الفصول الأربعة.

أما الغرفة الخارجية، التي تلي المدخل. فقد وضع على سطح خزانتها أسداً خرافياً صينياً، من خشب محفور ونمرين بنغاليين، في حالة توثب للانقضاض من خشب أيضاً، وفي كل أطراف الغرفة، عند قدم الجدران، نثرت الخوابي والدنان والأصص الخزفية الصينية، وفوقها، على الجدران، لوحات كبيرة رتّبها على نحو ما شاهد في حوانيت باعة الأنتيكات في أحياء بكين القديمة، وما تبقّى، وهو كثير، احتفظ به في الصناديق. وهكذا قلب بيته الى متحف شرقي، يبهر الرائي، ويجعله مذهولاً، متأملاً، رافضاً الدخول، رافضاً الجلوس، قبل أن يشاهد ويتملّى، كل هذه الروائع من حواليه، تحت شبكة بسيطة من الأنوار البيضاء والملونة، مدّدها بنفسه، وراعى في توزيعها جواً رومانتيكياً يساعده على الكتابة، على صوت موسيقى ناعمة، تجعله يعيش جو الشرق الاقصى الذي عاشه يوماً، وظل مولعاً به، يحنّ اليه، ويستعيده في متحفه الصغير.

لقد علّمته التجربة، وخبرته الثقافية الصينية، أن العين، إذا وقعت على الأشياء مباشرة، دهشت للحظات ثم كفّت. الأفضل، في عرض التحف، أن تتكشف للناظر تدريجياً، وأن تبدل كل مدّة، وتعلّق عليها، كما في المتاحف، بطاقات تحمل أسماء أو شروح التحف، وأن يوضع، عند المدخل، حاجز كما الجدران الأمامية، ذات الزخارف البسيطة، في المعابد البوذية، كي تحجب ما في الداخل، وتسمح للزائر أن يتدرّج من الرؤى البسيطة، الى الفاتنة، الى الرائعة في فتنتها، وكان قد قرّر، أن يأتي بمصور، وأفلام ملونة، فيصوّر تحفه وينشرها في كتاب، مع شروح عنها،

وقصص تحكي حكايتها، وحكاية العثور عليها، وما رافق كل ذلك من طرائف، بحيث يأتي الكتاب أدبياً أثرياً، مصوّراً.

باختصار، كان يحلم أحلاماً غريبة، وفي حنينه الى المجهول، وإصغائه، في جو المتحف، الى نداء بعيد، كان قد صار الى ما يشبه اللوثة، فهو يأمل، كل ليلة، أن تخرج اليه، من إحدى اللوحات، جنية ما، او يتجسّد، على نحو مفاجئ، أسد أو نمر أو تنين، وأن تفارق العنقاء ملكة الطيور، رسمها المنقوش على خابية خزفية زرقاء، وتطير في جوّ بيته. لقد قرأ وسمع، في الصين، أن رجلاً كان يحبّ التنين، وكانت صور التنانين تملأ غرف بيته، وحين عاد، ذات يوم، الى هذا البيت، وجد التنين قد تجسّد، ونزل من الصورة، وأصبح تنيناً حقيقياً، فراح يصرخ، خوفاً، ويستنجد بالجيران، طالباً قتل التنين الذي في بيته، وحين سألوه عن سبب هذا الرعب، وهو الذي يحبّ التنين الى درجة العبادة، قال لهم: «أنا احبّ التنين في الصورة، لكني لا أحبه في الحقيقة» وعندها قال له أحد الجيران: «انت، يا سيدي، كالبورجوازي الذي يحب الثورة في الكتب، فإذا استيقظت وخرجت منها، وصارت ثورة حقيقية في الواقع، ذعر منها وطالب بالقضاء عليها».

وكان كرم يكثر، في لوحاته وتحفه، من الأشياء التي تحمل صور التنانين، والعنقاوات، والغيوم، والأشجار، والطيور والأزهار، والنساء.. وكان التنين هو المفضل لأنه رمز القوة وفي الصين القديمة كان رمز الامبراطور، وكانت العنقاء، رمز الرشاقة، وهي رمز الأمبراطورة، وكان يعيش في وسط كل هذه الرسوم والتماثيل، ذاكراً صديقه «هيدجي» ضاحكاً في سره من ولعه بالتحف الصينية، التحف التي كانت تنقصه الخبرة حولها، فيشتري كل ما

يصادفه ظناً منه انه اثري. ولم يكن، في حقيقته، إلا حديثاً كسر من أحد جوانبه، أو لُطِّخ بمادة غبارية، فتبدى كأنه قديم موغل في القدم.

دخل كرم بيته. أنار الضوء. دعا ضيفتيه الى الدخول. تنحّى وهو يرحّب، تقدّمت بيروشكا وبعدها صديقتها، لكنهما منذ صارتا في المدخل، وتجلّى لهما المنظر الباهر، صاحتا:

– يو، جونيري.. (آه رائع!).

ابتسم كرم. لم يقل شيئاً. ما كان معنياً بشيء. لم يأت بهما بقصد إدهاشهما. لقد عرف، في حياته نساء كثيرات، عرف اكثر مما رغب ان يعرف. ظل حيال كل شيء، لامبالياً. ظل مصمتاً من الداخل، كأنه لا يملك عاطفة، وكأن الحب إحساس غريب عنه. وكان يعجب لهذه الحالة، ويستشعر فراغاً ويتعذّب. ويأمل أن يرتوي، يوماً، ظمؤه الداخلي، وأن يكفّ الحنين الساغب في ذاته عن شدّه الى ما لا يدري، وأن ينتهي قلقه النفسي، فيعرف ما يريد، ويحصل على ما يريد، ويصير له زوجة وأولاد، ويدعه شيطان يسكن جسده ويضنيه. وكان يهرب من واقعه المؤلم هذا الى الكتابة، محاولاً جعلها خلاصة، لكن الكتابة كانت تعذّبه بدورها، فيهرع الى الخمرة، والموسيقى، والبغايا، ويخرج عن مواضعات البيئة، ويلوذ بنوع من حياة بوهيمية، دون ان يجد دواء لما كان يسمّيه جنونه المضمر، الجنون الذي يفتت أعصابه ويفسد أيامه ولياليه.

ترك بيروشكا وصديقتها تندهشان كما يلذّ لهما. تقدمهما الى الغرفة الأولى وأضاءها ثم دخل الغرفة الثانية وجلس بانتظار أن توافياه، لكن بيروشكا توقّفت. جاءه صوتها:

– سيب (جميل) شوك سيب (جميل جداً)

وقال لهما:

– ادخلا.. لديكما الوقت للفرجة..

قالت بيروشكا:

– لا نستطيع.. دعنا.. أية مفاجأة هذه؟ أية مفاجأة؟

وحين وصلت اليه، كان في عينيها عتب ودهش، كانت، على نحو ما، خائفة، ومن جديد، انبعث في خاطرها هذا السؤال: «أليس هذا فخاً لاصطيادنا؟» قالت وقد اقتربت منه:

– وبعد؟ قل لنا من أنت؟

كانت الصديقة في الغرفة الاولى ما تزال. كانت تمارس إحساساً بالغربة.. كرم صديق بيروشكا وليس صديقها. قرّرت في ذاتها ان تسمع شيئاً من الموسيقى وتستأذن بالانصراف. إنها، بعد كل شيء، ضيفة. وليس لها صديق ههنا. وليس من المستحسن، أن تحاول التقرّب من كرم، لكنها، في ذاتها أيضاً، كانت تخشى على صديقتها من الانجراف بدهشتها، قالت في نفسها: «هذا الإنسان خطر بأكثر مما تصوّرت، إنه يتّخذ متحفه هذا وسيلة لاصطياد المعجبات.. إن امرأة تدخل الى هنا لا تخرج سالمة.. هذا المجهول، الذي يحيط نفسه بالغموض، وينفق عن سعة، ويملك مثل هذا البيت، ومثل هذه التحف النادرة، ثم لا يتحدث عنها، ويدع للزائر ان يرى ويندهش، ليس إنساناً عادياً، وتصرفه ينطوي على هدف، بل على أهداف.. إنه يفهم نفسية الآخرين، له حساباته.. وهذه البيروشكا، في مقهى «أم كي» حسبته سائحاً أو زائراً عابراً، وصدقت انه استاذ اللغة العربية، وان مهمته في المجر تقتصر على التعليم في الجامعة.. لا.. أنا لا اصدق.. لا بد من تحذير بيروشكا ولا بد، من جهة اخرى، ان اكتشف غايته المستترة.».

جلست الصديقتان أخيراً. كانت موسيقى صينية ناعمة تنبعث من المسجل. وكانت الأضواء الملونة تضفي على الغرفة، بتحفها وتماثيلها، جواً فخماً، مخدراً، وعلى الطاولة الواطئة، المستديرة صنوف من السكاير الاجنبية، وعليها بعض الموالح، وعلبة من عيدان الخبز المالحة. التي تؤكل مع الويسكي، وكل ما يتسق مع الجو، ويعطي إحساساً بالراحة، وإغراء بتذوّق الأشياء، ودعوة الى الشراب..

قال كرم وهو ينهض:

- استأذن لحظة سأعد لكما قهوة تركية..

وقالت بيروشكا بصوت خفيض، بعد ان صار كرم في المطبخ:

- إنه أمير.. هذا أمير شرقي.. ما رأيك؟

- لست ادري.. لكنني أخاف أن يكون اميراً زائفاً.. أنا لا أصدق أن أنساناً يملك كل هذه الأشياء يأتي ليشتغل في المجر. وما حاجته الى الشغل؟

قالت بيروشكا:

- وكيف وصل الى المجر، وبأية صفة؟

قالت الصديقة:

- لعلّه يمثّل دوراً.. قد لا يكون أستاذاً في الجامعة، ولا علاقة له بالإذاعة..

- وهذا البيت.. أما قال إن البناء يعود الى الاذاعة؟

- من يدري.. بودّي لو ألقي نظرة على هذه الكتب فوق مكتبه..

قالتها ونهضت.. وفجأة رفعت كتاباً في يدها وصاحت:

- انظري.. هذا الكتاب يحمل صورته.. إنه مؤلفه ولا شك..

في هذه اللحظة عاد كرم بالقهوة. كانت قهوة مركزة. كانت كثيفة بالنسبة للقهوة المجرية، وكان مذاقها طيّباً وكان التبغ فاخراً وساد جوّ من الصمت، ترشّفوا القهوة خلاله، وتعالت حلقات الدخان، وكل يفكر في شيء ما، متصل ومنفصل، وكل ينتظر أن يقول الآخر شيئاً، أو يفصح عمّا يدور في خاطره.

قال كرم وهو يفتح البار:

- لديّ ههنا ما يشرب.. ليختر كل منا ما يريد.. أنا أفضل الموتائي الصيني.. لكنني لا أنصحكما به.. خذا قليلاً من الويسكي مع الصودا.. وبعد ذلك تأكل شيئاً مما في البراد.. إنه عشاء خفيف.. أنا، في العادة، أشرب مساء ولا أتعشّى..

أحضر ثلاث كؤوس وملأها، وعندئذ قالت بيروشكا:

- الآن سنشرب نخب صداقتنا.

شرحت له ما يعني كأس الصداقة الأول عند المجريين: يقبّل الشاربون بعضهم بعضاً، ويتخاطبون، بعدئذ بصفة المفرد.

رفع كرم كأسه ودق الكأسين المقابلتين. وشرب ثلاثتهم، ثم تبادلوا القبلات، ونادته بيروشكا، للمرة الاولى:

- كرم!

وكان في صوتها دفء خاص، وتأثير خاص أيضاً، والتمعت في عينيها، نظرة مودة، وأدرك كرم، أن عاطفة جديدة، حارة، توشك ان تولد في نفسه، هو أيضاً.

- ٥ -

أكثر ما أعجبه فيها شعرها، كان من محي الشعر الجميل المسبل على الكتفين المتموج على صفحة الخد، ذي الالتماعة الخاصة، كأنه شلال حرير ينهمر من قمة الرأس، وينفرق على جانبي الوجه، معطياً للصبا، للقامة الفارعة، للوجه البيضاوي، فتنة تغري بأن يمدّ يده ويمسد، يداعب، يلهو، يحلم بدنيا من غير دنيانا.

منذ رآها، في مقهى «ام كي»، قال في نفسه: «يا لروعة هذا الشعر» كان صباها الريان، قامتها المشوقة، عيناها، كل جسمها المتسق، في تكوينه البديع، لفتاة ساعفت الرياضة في هارمونيتها البدنية، وأبرزت، على نحو مثير، مفاتنها، في الصدر، في الردف، في الخصر، كان كل ذلك، جديراً بأن يلفته الى جمالها، وأن يسحره ايضاً، لكنه من دون كل تلك الملاحة، أغرم بالشعر، وتمنّى في غير دخلة، أن يتخلّله بأصابعه، وهو ينظر في عينيها طويلا. وعندما اقترحت بعفوية فتاة بريئة أن يشربوا نخب الصداقة الجديدة، لامس الشعر الحريري صفحة خده وهي تقبّله، فاستشعر نشوة ناعمة مريحة، تمنّاها لو تدوم طويلا.

قال في رغبة تنبع من القلب:

- أستطيع، بقليل من الجهد أن أعدّ لكما عشاءً خفيفاً.

قالت الصديقة:

- بالنسبة لي، ارغب في ذلك، لكنني منسجمة مع هذه الموسيقى، وهذا الويسكي الفاخر، فلا تطلبا مني مساعدة..

قال كرم:

- في هذه الحال، نعدّ العشاء، بيروشكا وانا.

قالت بيروشكا:

- بل أنت تبقى مستريحاً.. دعني أتصرف كما لو أنني في بيتي.

كرة أخرى، اتخذت عبارة «كما لو أنني في بيتي» منحى وديّاً جداً في التعبير. طريقة وقوفها، انفلاش الشعر على الجانب الأيسر للوجه، اهتزاز الصدر تحت القميص الرياضي، غنّة الصوت، طريقتها في الكلام، ابتسامتها المدلّة بالاعتداد، المتسامحة مع ذلك الى درجة الاستئذان في أن تكون كما في بيتها، أبهجته. كان قلبها ينبض في عينيها، في شعرها، وطفولة محببة، تُردُّ الى البراءة، تضفي على كل ما فيها عذوبة يمامة، من تلك اليمامات التي في أشجار الحديقة، وأحياناً على حافة نافذته. كانت امرأة في إهاب فتاة، لولا أن المرأة نضجت على نحو ما في الحكايات، نضوجاً يسبق العمر، ويتسيج بالخفر والإثارة معاً.

قال لها:

- بيروشكا!

نظرت اليه، في عينيه مباشرة، وأجابت بلهجة مجرية آسرة:

- ايكن.. (نعم) (ثم استدركت بالفرنسية): oui ..

ابتسم. لم يقل شيئاً. كان يستمتع، هو نفسه، بصوته هذه المرة، صوته الذي حمل كلمة بيروشكا دون اي لقب، واجداً لفظه مموسقاً على غير عادته..

وضحكت بيروشكا:

- ماذا يا كرم؟
- نسيت ماذا أريد أن أقول..
- إذن تذكر على مهل.. هل أستطيع التصرّف بحرية؟
- بكامل الحرية.. اكتشفي الأشياء دون مساعدة مني.. المطبخ الى يمين المدخل، والى اليسار غرفة المؤونة... لن تجدي فيها سوى بعض المعلّبات.. لكنها تكفي.. هيّا يا صغيرتي..

قال «صغيرتي» بقصد هذه المرة. وجدها معبّرة عن حقيقة ما بينهما من فارق العمر. كان يشعر، وهو في الأربعين، ان بيروشكا، التي لا تتجاوز العشرين، مثل ابنته لو كان متزوجاً، وهذا الشعور الذي كبح اندفاعاته نحوها، كان صادقاً، فهو يذكّرها يذكّر نفسه أيضاً، أن ثمة هوةً، وأن استغلال عاطفة بريئة، من طرفها على الأقل، يجانب استقامته الخلقية. وفي مطلق حال، من الضروري تنبيهها الى هذه الحقيقة كيلّا يخالجها امل صعب التحقق، ولا يخالجه روغ، مصدره شهوة مضمرة.

كانت الثلاجة، في المطبخ، ملأى باللحوم والألبان والفاكهة والخضروات. وثمة، في طرف من المطبخ، مائدة وأربعة مقاعد، وهناك خزانة للأواني، وزجاجات مبردة وكل ما يلزم. إنه، من هذه الناحية يحرص على أن تكون الأشياء موفورة، برغم أنه يتناول وجبة الغداء في نادي الصحفيين القريب وفي الصباح يكتفي بفنجان من القهوة وقطعة من البسكويت. أما في المساء فلا يأخذ مع الويسكي إلا بعض الموالح. كان الطعام، بالنسبة اليه، مادة لحفظ الحياة، والمشروب إكسيراً للنشوة، أما فهمه الحقيقي

فكان محصوراً بالقهوة والسيكارة.. لذلك كانت هاتان من الضروريات، وموفورتان بكثرة عنده.

قالت الصديقة التي ابتعدت الآن، باحساس أنثوي رهيف، عن مجال التفكير بأي صلة معه:

- بيروشكا صديقة ممتازة.

قال كرم:

- وأنت صديقة ممتازة أيضاً.
- أنا؟ (ابتسمت) أنا شيء آخر..
- كيف؟
- هكذا.. أنت تفهم ما أعني..

قالت بيروشكا التي جاءت من المطبخ وعلى صدرها مريلة ليلكية وقامت بالترجمة بينهما:

- صديقتي مولعة بالرمز.. لها محاولات في الأدب الرمزي..

قالت الصديقة:

- في الموضوع الذي نحن فيه، لا يحتاج الأمر الى رمز.. كونا صديقين طيبين، وهذا يسرّني..

قال كرم:

- لكن، ثلاثتنا، اصدقاء..

قالت الصديقة متابعة فكرتها:

- انا خارج اللعبة..
- لماذا؟
- لأنه لايمكن أن أفرض نفسي عليكما.. أنا أيضاً، لي صديق..

قال كرم:

- ولبيروشكا أيضاً صديق.. أليس كذلك؟

- وانت؟ (سألت بيروشكا) ستقول لي إنه لا صديقة لك!

- ففي الوقت الحاضر، لا صديقة ولا صديق.. ما أزال غريباً..

- وقبل ذلك؟ في الصين مثلاً؟ في دمشق؟ في سورية؟

- كانت لي صداقات عابرة..

قالت بيروشكا:

- أفهم أنه ليس لك صديقة خاصة؟ حبيبة مثلاً؟

- هل هذا تحقيق عاطفي؟

صاحت بيروشكا:

ابداً.. ولماذا؟ ما شأننا نحن.. هذه من خصوصياتك..

قالت الصديقة:

- سأكون صريحة أنا.. لنفرض أنه نوع من التحقيق.. ألسنا اصدقاء؟

وقالت بيروشكا:

- المائدة جاهزة..

نهضوا بعد أن أفرغوا كؤوسهم.. كذلك اقترح كرم. قال إن لديه زجاجة مثلوجة من النبيذ الصيني، وأنه سيكون سعيداً بأن يتناولها معهما.. فقالت بيروشكا:

- يا لكثرة ما شربنا اليوم.. في المقهى، وقبل الطعام، وخلاله..

قال كرم:

- وبعده أيضاً.. تخافين السكر؟

- لنفرض انني سكرت.. ماذا تفعل في هذه الحالة؟

قالت الصديقة:

- ما أظن كرم يقصد الى اسكارنا.. أليس كذلك؟

قال كرم:

- أنا لا أقصد شيئاً.. قد لا تصدّقان.. هذا لا يهمّ.. إذا كان المشروب يثقل عليكما فلنتوقف..

قالت الصديقة:

- بالنسبة لي، لا خطر.. ثم إنني لا أسكر.. وبودّي أن أتذوق النبيذ الصيني..

قال كرم:

- وبالنسبة لبيروشكا، لا خطر أيضاً.. نحن الآن لانتكلم في الرمز.. أليس كذلك؟

قالت بيروشكا بشيء من استياء:

- لست طفلة على كل حال.. وما دار موضوع الخطر في بالي.. هيا.. سنتذوق النبيذ الصيني.. قد لا أعود الى كليتي الليلة..

قال كرم:

- بل ستعودين.. وهذه لغة واقعية تماما.

- لا تفهمني خطأ.. لا أقصد المبيت عندك..

قال كرم:

- أن ترغبي في المبيت عندي فلست أمانع.. ستكون لك غرفتك الخاصة.. وثقي ألاّ خطر.. هذا وعد.. لكنني أريدك ان تعودي الى الجامعة.. ثم نحن نستعجل الأمور.. لنتناول طعامنا أولاً..

على المائدة تذوّقوا النبيذ الصيني. كان لاذعاً قليلاً، وكانت ثمة أشياء مقبّلة. أثنى كرم على ذوق بيروشكا في إعداد وجبة العشاء وترتيب المائدة. لكن الصديقة استأنفت استفساراتها:

- قل لي، يا كرم، أليس لك صديقة او زوجة، في بلادكم؟

- لا صديقة ولا زوجة...
- كم زوجة يأخذ الرجل في بلادكم؟
- الشرع يبيح اربع زوجات.. لكن الناس، في وقتنا الحاضر. لا يتزوجون بهذه الكثرة.. المثقفون يكتفون بواحدة..

أضاف:

- هذا سؤال تقليدي، يطيب للمرأة الغربية ان تطرحه على الرجل الشرقي دائماً. الصورة تغيّرت الآن، لم تتغيّر كلياً، لكن الرجل الشرقي ليس في عباءة الرجل البدوي المعروفة عنه.. إنه لا يتزوّج كما كان يفعل السلطان عبدالحميد..
- وانت؟
- أنا لم أتزوج بعد..
- لماذا؟
- هكذا.. لأسباب خاصة..
- ولا تريد أن تفعل؟
- لا أفكر بهذا الآن..
- هل ثمة موانع؟
- قالت بيروشكا بالجرية:
- كفى! لماذا الإحراج؟

قال كرم وقد فهم من عبوس وجه بيروشكا أنها غير راضية بإلحاح صديقتها:

- دعيها يا بيروشكا.. أسئلة كهذه لا تضايقني.. اعتدت عليها.. ليس لدي أصداف تحت الثياب..

اضاف:

- لم أتزوج لأنني لم أحب.. قد يبدو هذا غريباً.. لكنها الحقيقة.. ربما كنت انفر من قيود الزوجية.
- هذا لأنك كاتب؟
- انا؟ كاتب؟.. من قال هذا؟

قالت الصديقة:

- رأيت كتابك على المكتب.. عرفت ذلك من صورتك على الغلاف.. لماذا تتكتّم؟ أم تراك تحبّ الغموض، ككل شيء في متحفك هذا؟
- قد أكون غامضاً. هذا طبع أكثر منه دهاء.. لي محاولات في الكتابة، لكنني ، حتى الآن، لا أعتبر نفسي كاتباً..
- ماذا تكتب؟
- الرواية.. والقصة القصيرة..
- كم رواية نشرت حتى الآن؟
- روايتين.. وبعض القصص..
- ولا تعتبر نفسك كاتباً؟
- لم أكتب ما يخرق جدار الصوت..
- وهل هذا شرط..؟
- أنا أراه شرطاً..

قالت بيروشكا:

- بودي أن أقرأ يوماً ما تكتب يا كرم..
- لا شيء متميزاً.. ولا شيء يغري..

قالت الصديقة:

- الآن صار الأمر واضحاً.. أنت كاتب، ولأنك كذلك تريد أن تبقى حراً.. أن تسافر، ترى، تجرّب.. وإقامتك.. في المجر، نوع

من التجربة.. وهذا اللقاء، اليوم، جزء من التجربة.. أليس كذلك.؟ إنك تعتبرنا، صديقي وانا، فأرتين في غرفة تشريح.. قريباً تسمّرنا على قطعة خشبية. وفي قميص ابيض ومشرط حاد، تقوم بالاختبار اللازم على جسدينا.. هل انا مصيبة.

- ليس تماما..

- كن صريحا..

- انت تحومين، كنحلة في الربيع، حول زهرة بعينها.. أنا سأقدم لك هذه الزهرة.. سأشفي غليلك إذا استطعت التعبير عن نفسي.. لست صياد تجارب ولن أكون.. أدع التجربة تحدث لذاتها. أترك المعجزة تفرض نفسها على الواقع.. حتى الآن، لا تجربة ولا معجزة.. لا أركض وراء قصة حب، ولا أخفي نية مبيتة.. يمكنك، من هذه الناحية، أن تكوني على غاية الاطمئنان..

قالت بيروشكا:

- أنا لا أبالي. في علاقاتي بالناس، بالمقدار الذي فيه تجربة، أو فيه نفع خاص. وسأكون سعيدة، لو جاءني يوما رسام وقال لي: «أريدك موضوعاً للوحة». إذا كان لدي ما يفيد لوحته فهذا شيء جيد، إذا كنت قادرة على إلهامه صورة ما فهذا حسن.. لا أعتبر ذلك قنصاً ولا خديعة.. كل تجربة، فيها فائدة لطرفين، شريطة ألا تكون مفتعلة.. من جهتي أحب التجارب..

قالت الصديقة:

- هل هذا لأنك تحاولين ان تكوني شاعرة؟

- لا.. لأني إنسانة وكفى..

- لاحظي أنك تقدّمين نفسك كفتاة بالغة الاعتداد..

- وما المانع؟

- في هذه الحال أشرب نخب ثقتك الكبيرة بنفسك..

قالت بيروشكا ضاحكة:

- لكن دون غرور. أنا قادرة أن أحدد ما أريد وأن أطلبه أيضاً..

- وماذا تريدين؟

- لا اعرف بعد.. لديّ إحساس.. لكنه كفرسة ما زالت تحت ثلج رَبيعي..

- هذا تعبير شاعري..

- ربما.. ما تقصدت ذلك.. وأحسب أن كرم يوافقني..

قال كرم:

- كل رغبة مضمرة، يسبقها احساس يكون مبهماً في البدء.. الإنسان الجريء، المنطقي مع نفسه، هو القادر على اتخاذ موقف من إحساسه حين يعلن عن ذاته في صورة رغبة محددة.. بيروشكا صريحة، وعلى حق..

قالت الصديقة في غير جهد لإخفاء انزعاجها:

- هذه مجاملة..

قال كرم:

- بل تعبير عن إعجاب..

- لكل شيء ثمنه..

- وإذا قلت لك إنني لا أتطلع الى أيّ ثمن..

- أصدّقك.. لكنك، عندئذ، تكون في النادرين.. أو لديك مانع ما..

- قضية «مانع ما» هذه قلتها سابقا.. حين سألتني عن السبب

في عدم زواجي حتى الآن.. لست ملزما بالنفي.. قد يكون هناك مانع ما.. لكنه يختلف عما تظنين..

- بوهيمية فنان إذن.. إذا لم أقل اكثر.؟ هل لي أن أطلب كأساً أخرى من هذا النبيذ الصيني؟..

قالت بيروشكا:

- لا تسرفي في الشرب.. إننا في جو بهيج.. ولسنا طرفين متقابلين.. نحن أصدقاء.. لنشرب، مرة أخرى كأس صداقتنا..

فكر كرم في نفسه: «هل أثرت غيرتها بميلي الزائد الى بيروشكا؟ في هذه الحال أكون مخطئاً.. أسوأ ما يصادف الرجل أن يكون، في جلسة كهذه، بين امرأتين.. لو كان لها، هي أيضاً، صديق ههنا.. كان توتّرها الداخلي اقل.. بيروشكا قالت لها: «لا تسرفي في الشرب» هذا سيؤدي بها الى مزيد من العدوانية، أو إلى السكر السريع.. ثمة شيء غير مريح لها.. يترجم عن نفسه في هذه المناكدة المستمرة».

شربوا كؤوسهم بشهية ونشاط. همَّ كرم ان يقول شيئاً.. روت بيروشكا طرفة ضحك لها كرم وحده، اما الصديقة فقد استأنفت ما حسبوا ان الكأس قد صرفتها عنه. قالت:

- اسمعي يا عزيزتي بيروشكا: اشكرك على تنبيهي إلى عدم الإسراف في الشرب. إنني، في الحقيقة، احس بالانسجام مع نفسي. أرغب أن أشرب ما دام صديقنا كرم قد تلطّف ودعانا. وحتى لو سكرت، ماذا يعني هذا، أنا أيضاً كما قلت أنت، أنام هنا ما دام لا خطر.. قد لا أكون شاعرة، وبعيدة عن دراسة الادب بحكم ميلي العلمي، لكنني أستمتع بصحبة روائي.. وشاعرة!

قال كرم مدارياً الموقف:

- أشكرك، يا عزيزتي، على هذه الالتفاتة.. من جهتي أكون مسروراً لو تذوقنا أنواعاً اخرى من الشراب.. لا أحب أن تتذكّر بأنني مضيف وأنكما ضيفتان.. أحسب أن الصداقة التي شربنا كأسها منذ قليل، قد ألغت هذه الشكليات بيننا.. أنا صديقك، مثلما صديق بيروشكا...

- أنت تداريني بأكثر مما يجب.. ما أردته هو التالي: بيروشكا، وبصادفة بحتة، تعرّفت اليك في المقهى، منذئذ وهي تتصرّف بحق هذه المصادفة.. هي تعرف أن لي صديقاً، ولا أفكر، حتى مجرد تفكير عابر، أن أصرفك عنها الى نفسي.. كن من شئت أن تكون، فلست معنية بأمرك، لكنك وأعذرني على صراحتي، لست من النوع الذي أفهمه.. انت غامض، غامض، غامض.. هذا المتحف ليس إلا فخاً.. أعرف أنك لم تنصب هذا الفخ، لكن هناك طيوراً كثيرة مهيأة لأن تقع فيه، وبيروشكا تجازف إذ تمنحك ثقتها من اللقاء الاول. لا أريدها أن تكون صيداً سهلاً الى هذا الحد..

قالتها وأضافت:

- أشكرك يا بيروشكا، على ترجمة كل أقوالي بأمانة..

ساد صمت بعد هذه الكلمات.. انسحبت بيروشكا عن المائدة.

ظل كرم جالساً.. راح ينقر بأصابعه على الخشب. قال في نفسه: «هذه الفتاة ذكية بعد كل شيء. ذكاؤها من النوع الهجومي أفسدت الجوّ بغير مبرر. حقّقت ما أرادت، لكن ما ذنب بيروشكا؟ على نافذتي، تحط كل يوم يمامات صغيرة، جميلة. أنثر لها الحب، وأضع لها الماء.. بيروشكا ليست يمامة. أنا لم أضع لها طعماً.. لست صياداً على النحو الذي فكرت فيه. لست غامضاً الى الحد اللعين الذي

تصورته. أنا لست في القرية لاصطياد يمامات من أي نوع.. صديقي البارمان فرانتس، قال لي: «لا تكن غجرياً مع النساء المجريات» حسناً ها هي غجرية مجرية مع رجل عربي.. تهاجمني، تتهمني، وتصدر حكماً علي.. بينما كان ذلك بفعل السكر، لكنها لم تفقد الوعي.. أنا لا أستطيع ان امنع عنها الشراب.. ولا أستطيع أيضاً، أن اقف الى جانب بيروشكا ضدها.. لا أريد، منذ اسبوعي الاول، خصاماً من هذا النوع.. علي أن أتحمل.. أن أداري الموقف، وحين تنصرفان، أكتب صفحة في يومياتي أقول فيها: إنني على زعمي بمعرفة المرأة، لم أعرفها كما يجب بعد.. لكنني، بعد هذا، لست هنا لكي أدرس المرأة.. انا طير مشرد.. طير مهاجر، وغداً عندما يبدأ موسم العودة عندما تسمح الظروف، اعود الى وطني.. لا أريد البقاء، ولا الارتباط ولا أية علاقة عاطفية.. لقد عجزت عن هذا طوال سنوات مضت.. المعجزة بالنسبة لي، لم تحدث بعد.. الحنين اللعين المجنون يعيش في داخلي، يؤرقني، يعذبني، ولكن لمن؟ بيروشكا، مهما كانت العلاقة المقبلة بها، لن تكون إلا علاقة عابرة.. علاقة قد تكون كبيرة، حميمة، لكنها ليست هي المرأة التي تملأ كياني، تعطيه شطره الآخر الضائع، الذي لا أعرف أين.. ثم فارق العمر؟ أحب؟ أخادع؟ أتلاعب بقلب بفتاة صغيرة؟ وماذا تكون النتيجة؟ الزواج؟ كيف؟ العشرون عاماً بيننا؟ إنني أدخل متاهة.. علي أن أتوقف قبل أن أوغل فيها، وقبل أن التزم بعهد لا سبيل الى الوفاء به..».

نهضت الصديقة وذهبت الى بيروشكا في غرفة المكتب، لم يلحق بها، تركها وحيدتين.. صبَّ ما تبقّى في زجاجة النبيذ وراح يترشفها على مهل.. وحين نادته بيروشكا، وقد صالحتها رفيقتها،

وعادت الابتسامة الى وجهها، كان أثر الدمع ما يزال في عينيها.. طلبت علبة سكاير «كنت» فتح الخزانة وقدّم لها علبة، وأخرج «كروسين» اهدى كلاً منهما واحداً جلس يدخن دون أن يقول أية كلمة..

قالت الصديقة وقد نهضت:

- الآن أستطيع أن أودعكما.. لقد تأخرت..

قال كريم:

- سنأتي معك..

وافقت بيروشكا:

- نقوم بنزهة صغيرة.. أشعر بحاجة الى الخروج.

ركبوا سيارة أجرة من أمام نادي الصحافة، انطلقت بهم الى العنوان الذي أعطته الصديقة فلما ودعت وانصرفت قالت بيروشكا:

- كرم! انت لست غاضباً من تصرف صديقتي؟
- أبداً..
- قالت أشياء سيئة..
- هذا لا يهمّ..
- كنت طيباً معها على كل حال..
- وهذا ما يجب..
- وكنت طيباً جداً معي..
- لا تقولي هذا.. انت صديقة عزيزة..
- أنت لا تريد شيئاً مني؟
- لا شيء..
- لماذا كل هذه الوليمة إذن؟
- بمناسبة تعارفنا..

- لا أشعر بحاجة الى النوم..
- ولا أنا..
- لنعد الى بيتك إذن..
- بل الى الكلية..
- أنت لا تريدني إذن..؟
- أريدك جداً.. ولكن بالنسبة الى اليوم يكفي.. عودي الى كليتك.. أعطي العنوان للسائق..
- هذا قرارك الأخير..؟
- نعم.. بالنسبة لهذه الليلة..
- قبلني اذن..
- سأفعل عندما نصل..

ترجّلا امام باب الكلية.. وحين ألقت بنفسها بين ذراعيه، كانت سعادته بالغة، لقد داعبت يده ذلك الشعر الذي افتتن به، وبكثير من الحنان قبّلها في خدها قائلاً:

- ليلة سعيدة يا عزيزتي!

- ٦ -

كما الفضيلة، حين لا تنشد ذاتها، وتكون الرذيلة مرفوضة بعقل بارد، يكون العفاف، حين نفرضه على انفسنا، مدعاة لألم شديد..

كرم رفض اقتراح بيروشكا أن تأتي معه الى البيت، لاذ بنفحة من التسامي، وآثر أن يتألّم هو، على أن تتألّم هي، حين تكتشف، في الأيام التالية، أنها تسرّعت، وأسلمت نفسها إليه من اليوم الأول للتعارف..

هذا منطق عقل لا منطق قلب، تحليل إرادة لا عاطفة. لقد كبت عاطفته وعليه أن يتحمّل عذاباً بغير ضرورة.

بعد أن عاد الى البيت شعر، فجأة، بفراغ.. هل ندم لأنه لم يرض ببقاء بيروشكا؟ ربما.. كان يمكن أن تبقى، وأن يحيطها بالأحترام، ويصونها، ويحافظ على مسافة الصداقة البريئة بينهما.. لكنه، في نزوة كبرياء، رفض، الأصحّ خاف التجربة..

وقف الى النافذة، كان القمر في لياليه التي يكتمل فيها ضوؤه المنتشر في سماء صافية، يعطيه رحابة كون، يزيد بهاؤه على نحو غير معهود. وكان إحساسه، بهذا الضوء، ينبع، ويمتزج، بإحساس آخر، بهيج، بسبب من أنه استشفّ الليلة، في نظرات أمرأة، معنى وجود جديد، مُورق..

وعندما ارتدّ عن النافذة، وضع شريطاً جديداً لفيروز. أصغى. طابت نفسه، صبّ كأساً من السينزانو، برّده بقطعة ثلج، استشعر رغبة في الكتابة، مقرونة بحماسة غير معهودة، ومشاعر غير معهودة ايضاً، لكنه، في محاولة لاكتناه الانطباع الذي خلّفه في بيروشكا افترض أنها تستلقي على سريرها الآن، حالمة بما لا يدري، وهذا السؤال يراودها «من هو كرم الجاهدي هذا؟ وأية يد مجهولة دفعت به من الشرق الاقصى، باتجاه بوادبست، وجمعته، على غير ميعاد، بي في مقهى «ام كي»؟ وقال في نفسه: «إنّها تجهل من أنا، وهذا ما يحيّرها ويثيرها في آن».

كان سعيداً كما لم يكن في أي ليلة سابقة، ومرتبكاً، لعجزه عن تبرير قراره عاطفياً، وكان جديراً وراغباً في أن يعود الى بيروشكا ويدعوها للسهر الى جانبه. لكنه، لأمر ما لعلّها الرغبة في تعذيب النفس. رفض مقايضةً تجعله غجرياً كما قال له البارمان فيرانتس. قال في نفسه: وليمة مقابل ضجعة؟ لا هذا سلوك خسيس.. قد تأتي الضجعة، لكنني لا أريدها بدلا، بل تكرمة. خلعة إمارة. منحة أميرة من بلاد الداتوب، غير أن شيئاً، مقابل شيء، يحيلني الى تاجر مبتذل.. إنه، هنا، ليس للتجارة. ومنحه لن يكون فخاً، وسلوكه لن ينحطّ الى درجة التغرير بأيما فتاة.

صاحب مبدأ هو، ومن أجله، ذات يوم تشرّد عن وطنه البعيد: عرف الجوع، نام في محطات المترو اختبأ تحت جسر ليتّقي البرد والعيون، رحل، لا مال، لا عمل، لا بيت، لا حقيبة سفر.. خمس من السنوات مضت، خمس طوال، سنوات منفى، والوطن صرّة مشاعر، والآه في القلب، حسرة، والشمس تعرف، والقمر يعرف، وهو يبتسم، لأنه مكتوب، من شاء الارتفاع على الشدائد، عليه أن

يبتسم، إلا أن الاسى نهر، ومن يمنع النهر، أن يشقّ مسيلاً في الصدر؟ وكان المسيل سؤالاً معلقاً في فضاء الأيام: لماذ؟ وفي الجواب بيت من الشعر: من الذي، في الحب كما اديم الوطن؟ والمكافأة منع وحرمان.. «ايها الوطن، ياصرة مشاعر ندية كالفجر، صافية كدموع الطفل، ماذا جنيت انا؟».

في الصين مات إسبانيّ مهاجر.. ثلاثون عاماً من الغربة والتشرّد ثلاثون عاماً من الكفاح ضد فاشية فرانكو وأخيراً توقف القلبُ. التابوتُ على طاولة خشبية والعلم الإسباني على التابوت. ومهاجرون مثله منفيون مثله، تجمّعوا حول النعش، وبمهابة عزف النشيد الأممي، ردّده الذين احترقت قلوبهم على شفاههم، ثم تقدمت الزوجة، رفيقة النضال والغربة، وتناولت وردة عن التابوت.. هذا كل ما بقي، وهذا ما سوف تحمله يوماً، الى الوطن.

لقد اعتزم كرم ان يسهر الليلة وحيداً. فيروز غنّت له في وحدته.. ومن فضاء الغرفة أطل وجه المناضل الإسباني: «أنا لم أمت يا رفيقي. أنت، وهو والآخر، والآخرون.. وشعبي، هناك، ووطني، والدنيا، والرفاق» وقال في نفسه: «من أجلهم، هؤلاء الشهداء، ومن أجل الأحياء، يجب أن نمضي، وأن نعمل».

في الصين لم يستطع أن يكتب. النبتة لا تعطي إلاّ في أرضها. صحيح أنه تسلّى جمع تحفاً، اختزن حنيناً.. لكنه لم يكتب، وهذا ما أرّقه، ثم مشى به الشوق في طريق العودة. طريق الاقتراب من الوطن اكثر.. وهاهو في بودابست.. لا ينقصه عمل، ولا بيت، ولا مال.. بل شيء اثمن، لكنه مجهول، بغير اسم وهو يريد أن يجد له اسماً، أن يعرف ما هو، وما سرُّ هذا النزوع الاكتئابي، الذي يفسد عليه سعادته، كلما أصبح وحيداً.

فكّر: «هل الغربة هي مصدر هذا الإحساس بالقلق، أم أنني قلق بطبعي؟ لم أعرف المناءة في الصين، وظنّي أني لن أعرفها في المجر، برغم هذا الجوّ من الحياة الاجتماعية الغنية التي أنا مقبل عليها، وهذه العاطفة التي تبدّت اليوم في عيني بيروشكا».

ظلّ يروح ويجيء في الغرفة، بين المدخل والنافذة. كانت الحديقة تلي ذلك. كانت مستطيلة، مسيّجة بشبكة حديدية، ذات أشجار باسقة، وفيها زهور، وخضرة وملعب للكرة الطائرة، وعشب، وفيء، وفي ضوء القمر، كانت ظلال أشجار تعطيها جواً من المهابة، وسط الصمت وانعكاسات الأضواء من النوافذ، ورئة الحديقة التي تتنفّس عبقاً صيفياً خاصاً وفاغماً.

هنا، في هذا البناء المؤلف من ستة طوابق، كان عليه أن يعيش، أن يكتب، مكملاً روايته التي بدأها في الصين وأهملها. منذ الأيام الأولى لوصوله، لفته أن سكان البناء خليط من أجناس جمعهم العمل في الإذاعة او الجامعة. وكان في الطابق الاول والطابق الارضي، ثلاث أو أربع من العائلات العربية، زارها عائلة عائلة، بعد أن جاء الرجال، ليلة وصوله، وسلّموا عليه. وكان جاره، في الطابق الرابع، إيطالياً موفداً للعمل في القسم الإيطالي من الإذاعة. ومقابله، على طرف القوس المستطيل للباحة، يسكن رجل انكليزي وزوجته، وثمة، في الطابق نفسه، عائلتان، اسبانية وتركية، وكان رب العائلة التركية مهاجراً مثله، فُرض المنفى عليه فرضاً، فهو يعمل في القسم التركيّ، ويشكو الربو، ويكتب قصصاً قصيرة، وقد احتفى به حفاوة غير قليلة، لأنه يعرف التركية، وتجمع بينهما صلات الفكر واللغة.

لهذا حين طرق الباب، في نحو العاشرة، حسب أن الطارق هو

صديقه ضياء التركي. ولقد سرّ بذلك، فهذا الإنسان، رقيق الحاشية، المريض. كان فيه شيء من الأبوة. كانت طيبته، بوجهه المريح، وشاربيه المتهدّلين على فمه، تمنح صداقة صدوقة من الوهلة الاولى، وقد اعتزم كرم ان يقصّ عليه ما جرى معه الليلة، غير أن الطارق لم يكن ضياء التركي، بل حسن الإيراني، وكان حسن هذا شاباً في نحو الأربعين، رياضياً، خلوقاً، تعرّف عليه في الصين، ثم هاجر قبله الى المجر بعد أن تزوّج صينية، وله منها ولدان، كان حسن من تبريز. ومن ضباط الجيش، وقد هرب من إيران، إثر الانقلاب الذي وقع على مصدق، وذبح فيه الشاه مناضلين تقدميين كثيرين، وبينهم ما لا يقل عن ١٥٠ ضابطاً في الجيش، حسن نجا بأعجوبة، استطاع الوصول عبر الجبال، الى اذربيجان السوفياتية، ومنها الى موسكو حيث درس وحصل على الدكتوراه، لكنه، لإجادته التركية، كان يدرس لغتها في الصين، ثم في بودابست بعد ذلك.

دخل حسن دخولاً صاخباً كعادته. وبلغة عربية، ذات لكنة فارسية، صاح وهو على الباب:

– السلام على أمة العرب..

ردّ كرم:

– وعلى أمة العجم السلام..

قال حسن:

– ليس هكذا يا صديقي.. لا تقل أمة العجم... هذه كلمة سيئة.. قل أمة الفرس..

قال كرم مازحاً:

– طيّب.. ولكنك من العجم يا حسن.. لماذا تنكر؟ لغتك العربية تفضحك..

- أنا أتكلم العربية على طريقة سعدي الشيرازي..
- سعدي كان يتقن العربية، ونصف أشعاره فيها..
- هذا دليل على أننا أمة ذات حضارة..
- لكنك أنت تتري لا أكثر..
- وهذا التتري جاء لدعوتك الى سهرة في جزيرة مارغريت..

وصاح كرم دهشاً:
- في مثل هذا الوقت؟ الساعة تجاوزت العاشرة ياحسن!
- وفي مثل هذا الوقت تبدأ السهرة.. ألا تتمدّن أيها البدويّ؟ هيا.. ستكون سهرة ممتعة.

لم يستطع كرم التملّص، فانقاد الى صديقه وخرجا..

كان الليل قد ابترد اكثر.. أضواء المدينة ما زالت تشع. حافلات الترام تأتي من عدة جهات. تدور في ساحة يمتد منها طريق الى جسر على الدانوب. صعدا الحافلة. كانت غاصة بالناس، بودابست لا تنام. هذه ليلة الاحد، المفترض أن الذين سهروا ليلة السبت، وهم الكثرة، قد عادوا الى بيوتهم للراحة، مع ذلك المدينة مزدحمة، نشطة، فرحة، انيقة. قال كرم في نفسه: «هذه باريس أخرى» أضاف: «هذه باريس دون شانزليزيه، دون مونمارتر، دون حيّ لاتيني، لكن لها، هي ايضاً، شوارعها، واحياؤها التي لا تقل روعة. فوق ذلك فيها الدانوب. الدانوب الازرق.. هذا الذي لا يعرفه إلا من وقف عليه. شاهده ليلاً.. أدرك سرّه في وقفة طويلة يتكشف خلالها جماله شيئاً فشيئاً.. كانت هناك الجسور، السفن، الأبنية، الأضواء.. والمياه تنساب هادئة، تكاد لا تحس بانسيابها، لا تفهم لغتها لكنها تتكلم. مياه الدانوب تتكلم، ولغتها زرقاء، وفيها موسيقى خاصة، مرحة، فالسة، وفيها ينعكس القمر، وتتشكل

تهاويل لونية.. وعلى الضفتين عشاق.. بودابست مدينة العشاق وقال في نفسه: «آه يا مدينة العشاق ما أروعك».

نزلا على الجسر. مرقا، في الزحام، خلل الجسوم، شمّا صنوفاً من العطور.. وحين صارا على الرصيف، وجد حسن من واجبه ان يشرح قصة الجزيرة:

- هذه الأرض، التي تشطر النهر الى شطرين، اصطناعية، أعني لم تكُن كذلكَ في الأصل، لم تنشئها الطبيعة.. بناها الإنسان. مارغريت، ابنة احد ملوك المجر، رغبت ان تكون لها جزيرة. والدها حقق رغبتها. انشأ هذه الجزيرة، وأطلق عليها اسمها..
- يا للروعة! هتف كرم..

قال حسن:
- الجزيرة في النهار، منتزه.. هنا يتنزّه الناس. فيها مسبح كبير.. وعلى العشب، من حواليه، ولمسافات بعيدة، تستلقي آلاف الإجسام.. تستحم في الشمس.. تسترخي، عارضة اشكالاً جميلة لنساء فاتنات.. يخيل اليك أنك في الجنة.. هنا الحوريات التي وُعدنا بها.. اما في الليل، وبين الورود والأزهار، وعلى مقاعد متناثرة في كل أنحاء الحديقة، فلا تجد مكاناً الا بصعوبة.. حين ترى شابين متحابّين، متخاصرين يتناجيان، يتعانقان، تخشى ان تعكر صفوهما.. لا أحد يسأل الآخر ماذا تفعل.. كل زائر يتنزه على هواه، يمشي، يجلس، يقبل حبيبته، يمارس حريته، كأنه وحيد في الجزيرة..

قال كرم في نفسه: «لا بد أن ازور هذه الجزيرة مع بيروشكا.. ترى تحب بيروشكا جزيرة مارغريت هذه؟».

سأل:

– وهذه الأضواء، والأبنية..؟

– هذه مقاهي، مراقص.. مقاصف.. الناس، هنا، ليسوا كما في الصين.. في صدورهم قلوب.. يعملون، يكسبون، ينفقون.. لا يمارسون الحب على الناشف.. يبدأون بالشرب، والرقص، الغناء، ثم، في نهاية الليل، يذهبون إلى الفراش.. يختمون ليلهم ختاماً سعيداً..

دخلا احد المراقص.. شربا نبيذاً. رقصا أيضاً. لا يهم أن تكون معك امرأة تراقصها، تستطيع ان تطلب بتهذيب، أية فتاة او سيدة الى الرقص.. ولن يزعجك أن تعتذر.. هذا مألوف.. لكن النساء لا يعتذرن.. خاصة إذا حدث تعارف.. يرقصن.. يسهرن.. والمجتمع مفتوح، لا أحد يبقى وحيداً أو غريباً.. صدق البارمان فرانتس.. سيكون جميلاً ان يتعرف الى الحياة في المجر، أن يدخل المجتمع المجري، أن ينسى وحدته في المجتمع الصيني المغلق..

حوالي الساعة الواحدة غادرا الجزيرة، دارا حولها دورة كبيرة. انتظرا سيارة أجرة فوق الجسر.. مرّت بهما عدة سيارات ولم تتوقف.. كانت مشغولة. المواصلات الأخرى، الترام والباصات، توقفت.. المترو وحده يبقى الى الصباح. محطة المترو كانت بعيدة. اقترح حسن ان يسيرا.. راحا يسيران ويتوقفان. يلوّحان للتكسيات.. لكن هذه كانت تمرق كالسهم.. إنها ملأى دائماً.

قال حسن:

– ظني أننا سنعود ماشيين..

قال كرم:

– هذا أفضل.. الليلة للسهر.. لدينا، غداً وبعده، وقت طويل للنوم..

قال حسن:

– أنا لا أستطيع أن أتأخر أكثر.. ستقلق عائلتي.. لا بدّ من العثور على تكسي..

مضت ساعة أخرى ولم يفوزا بأيما واسطة نقل. كان حسن قد اقترب من بيته. ذكر ذلك عرضاً، عندئذ أصرّ عليه كرم ان يفترقا.. قال:

– اذهب انت الى بيتك..

– وأنت؟

– اتسكع حتى أفوز بواحد من هذه التكسيات..

– وإذا لم يحالفك الحظ..؟

– أصل الى بيتي ماشياً..

– لكنك لا تعرف الطريق..

– أنا أحفظ اسم الشارع.. دلّني على الجهة التي علي أن أسير فيها..

– ولماذا لا تنام عندي؟

– أريد العودة الى بيتي.. لدي شغلٌ بعد..

لم يجد حسن، أمام إصرار صديقه، سوى الإذعان. أوصله الى شارع رئيسي، شارع الجمهورية، وقال له تذهب بصورة مستقيمة، وعند نادي الصحفيين تنعطف الى اليمين.. هل تستطيع ذلك؟

قال كرم

– تماماً.. الى اللقاء.. لا تقلق علي.. لن أضل الطريق، ولن أضيع..

لكنه، بعد قليل، ضلّ الطريق وضاع.. لم يصل الى نادي الصحفيين، ولا ميّز بين الأبنية، فقرّر أن يسأل. أوقف اول رجل

صادفه في الطريق وسأله. كان هذا كهلاً، ويجهل أي لغة سوى المجرية. لعل كرم لفظ عبارة «بنتزور اوتسا» بشكل غير واضح، أو أن الرجل لا يعرف هذا الشارع الفرعي، وهكذا فشلت محاولتها للتفاهم..

كانا يقفان على الرصيف. ومن روائها فتح باب، خرجت منه سيدة أنيقة، على كتفيها شال، وفي قدميها حذاء عالي الكعب، كان وقعه، في صمت الليل، يعطي إيقاعاً طروباً.. وعندما اقتربت منهما، أوقفها الرجل الكهل وطلب منها ان تتفاهم مع كرم، وتعرف ما يريد.. لسوء الحظ كانت تجهل الفرنسية. سألت كرم إذا كان يعرف الروسية، فظن ان الفرج قد جاء، كان يعرف بعض كلمات روسية.. قال لها:

- ضوما (بيت)..
- قالت السيدة:
- دا.. (نعم)..

قال كرم، بعد تفكير..

- نييت (لا يوجد) كان يريد أن يقول لا اعرف.. حسب ان كلمة «نيت» تفي بالغرض، لكن السيدة دهشت.. كيف يكون رجل لا بيت له في هذا الليل؟.. ابتسمت، كان الموقف غريباً وطريفاً. وكان الرجل الكهل قد مضى في سبيله، تاركاً كرم والسيدة يتحاوران..

قالت السيدة وهي تضحك:

- ضوما (بيت)؟

أجاب كرم:

- نييت (لا يوجد)..

ضحكت السيدة من جديد، وقالت وهي تعطيه ذراعها:

- دا (طيب)..

سارا دون أن يعرف الى أين تقوده.. كان يحسب أنها ستوصله الى احد الفنادق.. وقال في نفسه «لا بأس، أنام في الفندق.. لقد قضيت يوماً لا تنقصه المفاجآت.. لكنه يوم لذيذ على كل حال.. ضياعي، في هذا الليل ليس مشكلة.. أنا لن أقلبه الى مأساة.. غداً سأخبر ضياء وحسن وكل الجيران بما وقع لي.. ومن يدري.. فقد اكتشف، في بقية ليلي هذا، شيئاً جديداً، شيئاً مجرياً نموذجياً، وهذا ما أنشده.. لا بأس من الضياع قليلا.. لماذا يجب ان نعيش حياتنا كلها ونحن نعرف سلفاً اين نمضي؟ وماذا سنلقى؟ وكيف سنتصرف؟.. اللعنة على حياة معروفة، ومحسوبة كهذه.. امضِ يا كرم.. امضِ يا بنيّ.. لا بد أن تجد غرفة تؤويك في آخر هذا الليل».

توقّفت السيدة بعد مسافة قصيرة. حاول أن يكلمها بالفرنسية فلم ينجح. هزّت برأسها نفياً. إنها تجهل هذه اللغة، لكنها حسبته فرنسياً.. وكانت تنظر في وجهه وتضحك، ومن جديد ألقت عليها سؤالها المعهود:

- ضوما؟

وأجابها:

- نييت..

وتضاحكت وقالت:

- دا..

وسارا من جديد..

المفاجأة كانت أنها وقفت على باب مرقص. مزدان مدخله بأنوار ملوّنة، وقالت له، باشارة من رأسها:

– ادخل..

لم يمانع كرم، تركها تتعهّده.. هنا، أيضاً، يمكن أن يسهر.. سيظل ساهراً الى أن يغلق المرقص أبوابه، وعندئذ يواجه ما يستجدّ باستعداد طيّب لتقبّل المجهول.. سيذهب إلى الفندق، الى البيت، واذا رضيت السيدة أن تصطحبه الى بيتها ستصنع له بهجة.. ستضع بذلك خاتمة طيبة لليلته..

تكلمت السيدة مع البواب. قالت له شيئاً بالمجرية. كان في المدخل كشك صغير لقطع التذاكر وبيع الدخان. اخرج من جيوبه نقوداً أجنبية. دولار. استرليني، فرنك فرنسي، لكن قاطع التذاكر هز برأسه سلباً. قال:

– فورنت (عملة مجرية).

تذكر كرم أنه يحمل مبلغاً من العملة المجرية في الجيب الداخلي لسترته، أخرجها وعرضها، فتولّت السيدة اختيار ورقة من فئة المئة فورنت، وتسلّم تذكرته ودخل وراءها انتقت مائدة قريبة الى حلبة الرقص، وأشارت له فجلسا.. قالت له ان اسمها «ارجي» لفظتها مرة اخرى «ايرجكا».. كان هذا اسم التصغير، للتحبّب، على عادة المجريين، وقال ان اسمه كرم.. ورددت «ارجي» الاسم عدة مرات حتى حفظته.

جاء النادل يسألها ماذا يشربان.. طلبت «ارجي» كونياك.. وقال كرم «بونابرت» وفهم النادل وانصرف لإحضار الطلب، وعندئذ سنحت الفرصة لكل منهما ان يتأمل الآخر.. كانت ارجي في نحو الثلاثين.. كانت سيدة كاملة. انيقة، ترتدي ثوباً فاخراً.

وكانت، كما لاحظ معروفة جيّداً في المرقص، بدليل ما لقيت من حفاوة واهتمام، فقد حيّاها كثير من الحاضرين.. وبعد وقت قصير تقدّم رجل نصف وطلب مراقصتها فرفضت.. أشارت الى ساعتها وقالت شيئاً ما بالمجرية.. فانحنى الرجل وعاد الى مائدته..

وحين أحضر النادل الكونياك، طلبت منه شيئاً، فانحنى أمامها، وبعد قليل اقبل الميتر، وكان يتكلم الفرنسية، فدعته الى الجلوس، وقصّت عليه كيف لقيت كرم، طالبة منه أن يسأله: «هل حقيقة لَيس له بيت؟..» وكان جواب كرم ضحكة.. لقد اكتشف غباءه باللغة الروسية، وأوضح ان له بيتاً، في شارع «بيننزور اوتسا» قرب نادي الصحفيين، وأنه أضاع الطريق اليه، ولم يعثر على سيارة توصله أو أحد يفهم عليه..

قال كرم:

– إنني اعتذر للسيدة ارجي.. لقد كان سوء تفاهم لعين..

قالت ارجي:

– إنه طريف بقدر ما هو لعين.. هل أنت فرنسي؟

قال كرم:

– أنا عربي.. ولي أسبوع في بودابست.. وأنا غبيّ في شيئين: الجغرافيا والحساب..

قال المتر:

– ولكنها مصادفة سعيدة.. نرحب بك في بلادنا.. وسنرسل من يوصلك الى بيتك في أي وقت تريد..

إنه قريب من هنا.. ولكنه في شارع خلفي..

طلب كرم قدحاً من الكونياك للميتر فاعتذر هذا.. لكن السيدة «ارجي» حملته على القبول، وشربوا حين جاء الطلب،

نخب المصادقة، والتعارف.. وقال الميتر، بعد ان تكلمت ارجي، وقام هو بالترجمة:

– انت يا سيدي، محظوظ.. السيدة ارجي فنّانة.. انها كبيرة المغنيات في مرقص مكسيم هذا، وهي تعتذر منك، فقد حان دورها للغناء.. لكنها ستعود اليك... لا تغادر المائدة..

مدّ كرم يده وصافح أرجي.. قبّل يدها أيضاً. قال إنه سعيد.. وسيكون مسروراً ان يستمع اليها، وان ينتظرها، حتى مطلع الفجر.. لكنه رجا الميتر، ان يعينه في الحصول على باقة ورد، فقال الميتر:

– هذا مستحيل.. نحن في ساعة متأخرة..

– بماذا أستطيع، إذن، أن أحييها..؟

ترجم الميتر، لكن السيدة قالت:

– أرجوك يا سيد كرم، أجّل التحية، اذا كان لا بد منها، الى ليلة قادمة.. إني لأشكرك سلفاً..

غير أنّ كرم طلب من الميتر:

– زجاجة ويسكي فاخرة، الى الاوركسترا.. تحية للسيدة ارجي..

وحين صعدت الى المسرح، وهو عبارة عن مصطبة حسنة الديكور، غنّت وهي تتجه اليه.. أصغى الى الغناء وأعجب به، دون أن يفهم كلمات الأغنية. كانت أرجي، الآن، في ثوب سهرة طويل، مكشوفة الصدر، والساعدين، وعلى صدرها وردة، وكان في صوتها شجو، وأعلنت في ختام وصلتها، أنها ستغني أغنية اخرى، هدية لضيف زائر في القاعة..

صفّق كرم دون أن يفهم ما تقول، لقد أشارت اليه وهذا يكفي، وجاء الميتر فشرح له، وعندئذ شعر بسرور مضاعف، وجدّد طلب الكونياك، مستغرباً كيف لم يسكر، وقد تذوّق، في نهاره وليلته، صنوفاً من الشراب.

أخيراً عزفت الموسيقى الراقصة. انتهى دور «ارجي». بدّلت ثيابها وجاءت اليه. كانت سيدة كاملة. كانت جميلة. أجمل ما فيها كان صدرها وساعديها. وحين مرّت، بين الصفوف، تلفت الحاضرون. كانت ذات حظوة كبيرة. تتمتّع باحترام ملحوظ.. وقد أقبلت بخطوٍ هادئ، تتبغدد كأنها أميرة، وحين قارنها كرم ببيروشكا، وجد هذه فتاة صغيرة، طالبة، لا تستطيع، في أية حال، أن تصمد أمام أي مقارنة بينهما.. قال في نفسه: «لقد وُفقت يا كرم.. يا لحظّك الطيب! انت مولود في ليلة القدر.. ولك، في هذه المدينة، مستقبل باهر.. أنت لن تكون، أيها الغجري، وحيداً وغريباً بعد اليوم.. أنت خليق بأن تنفق كل ما ادّخرته في الصين، هناك حيث لم تستطع، لا في بكين ولا مدينة الخبراء، ان تنفق شيئاً، لأنه لم يكن مجال لإنفاقها..».

وقف عندما وصلت الى مائدته.. أي دلال في مشيتها، لفتتها، ابتسامتها! وأيّ مجاملة هذه التي خصّته بها! هتف في ذاته: «يا للذوق الأرستقراطي! دخلت معي الى المرقص، عدّت نفسها رفيقتي، منحتني صداقتها، رغبت ألا أكون وحيداً. هذا هو التصرف الحضاري.. بيروشكا، يا بيروشكا، يا فتاتي الصغيرة، تصمدين أمام هذه السيدة؟ هذه خبيرة، مجرّبة. هذه سيّدة.. وأنت فتاة، طالبة جامعيّة. دارسة أدب، شاعرة مبتدئة، لكنك، في شعرك الجميل، المتهدّل على الكتفين، مع طيّة على صفحة الوجه، إنسانة رائعة،

غير أني ، يا بنيتي ، لن أكون جديراً بروعتك ، ولن أكون خليقاً بكل هذا الاعتداد الذي يتجلّى في حركات « ارجي » .. إنني غجري .. وإنني عاجز عن الحب .. شهواتي الى درجة مسعورة ، ثم لا شيء .. جنّية القمر تلك ، البعيدة التي لا أعرف أين ، تناديني .. إنها حبّي ، وحنيني ، ومحطتي الاخيرة في سفرة العمر هذه .. لكنني ، يا بيروشكا ، لا أريد أن أموت على صدرك ، ولا على صدر ايرجكا .. أنا لا أريد ميتة مجانية كهذه .. إنني ، يا بنيتي ، عابر سبيل ، متشرّد ، منفيّ ، وهذا الإسباني الذي مات ، ورفاقي ، في كل الدنيا ، الذي يموتون ، والذين ، في بلدي ، كان جزاؤهم جزاء سنّمار .. حسناً ، أنت يا بيروشكا لا تعرفين من هو سنّمار .. تعرفين حكاية الخورنق والسدير .. هذه قصة عربية .. هذه قصة دخلت التاريخ .. انا لا أعرف من التاريخ شيئاً بسيطاً ، ولن استطيع ، في أيما يوم ، أن أشرح نفسي تاريخاً ، أو أكتب نفسي تاريخاً .. إنني لا أعرف إلا ما عشته ، ولا أكتب ، أيضاً إلا ما عشته ، ولن أستطيع في لغتي الفرنسية الرديئة ، أن أشرح أحاسيسي كلّها ، يكفي أن شعرك لامس صفحة وجهي ، فيا شفتاي تقبلان وجنة مسحورة ، ويكفي أن شفتيّ ، هذه الليلة ، قبّلتا هذه الفنانة الرائعة ايرجكا .. أنا ساحفظ وصية البارمان فيرانتس ، لن أكون غجرياً مع أي منكما .. ولن أكون نذلاً مع أية امرأة في هذا الوجود .. » .

قالت ايرجكا وهي تتأمله في شهيّة واضحة :

– أشكرك على التحية .. زجاجة ويسكي؟ ولكن أتعرف كم هو غالِ المشروب الأجنبي هنا ..؟

ترجم الميتر . قال كرم :

– هذا لا شيء .. أنت ، الليلة ، أكرمتني على نحو لم أحلم به يوماً .. وكان يجب أن أشكرك بطريقة ما ..

كيف يقولون بالمجرية : شكراً ..؟

قال الميتر :

– كوسينم سيبين : (شكراً جزيلا)

ردّد كرم الكلمة . وقالت ايرجكا :

– انهض!

– ألى اين؟

فابتسمت :

– الى بيتي ..

- ٧ -

مثلما الرجل، حين يقتنص امرأة، تكون المرأة حين تقتنص رجلاً. الطلاء الاجتماعي، حتى في الغرب، يوشّح رغبة غريزية تنبع من أعماق المرأة. إنها، في حال كهذه، لا تنتظر الآخر، أن يقوم بدور القوزاقي الذي يخطف على فرس او في سيارة، خطيبته، أو حبيبته، وفقاً للتقاليد الذكورية. إن المرأة، في تمرّدها على قضبان تاريخها الخاص، وفي حطمها ايضاً، تقدم على ممارسة ما هو من حقها كما من حقه، تخطفه، وتفرُّ به الى بعيد. ولعل ايرجكا، في قولتها «الى بيتي»، كانت تمزق سلفية يغزلها عنكبوت اجتماعي على نافذتها، نافذة غيرها وغيرها في القارات الخمس.. تتعامل، بفعل جسارة، مع واقع آخر، جديد، ومن منطلق التحدّي، لا بصفتها فنانة، بل بصفتها إنسانة تعلو على قيم الاستبداد المتوارث، والذي، الى حد ما، ما زالت تستشعره، وتضارّ منه، حتى المرأة الغربية.

إنها كبيرة، واثقة، سيدة، وفي ممارسة الشرف الذي لا يخدش بالنسبة للرجل، تريد أن تثبت ان هذا الشرف يظل ذاته، بالنسبة للمرأة أيضاً، حين تحب، حين تعجب، وحين تكون حرة، صريحة، فتقول للرجل «تعال أريدك».

هذا المساء، قالتها ايرجكا بغير مواربة. فكر كرم لحظة بالمعنى

الذي تنطوي عليه الدعوة، لكنه بدل أن يعتد، تطامن. أدرك أنها هي المعتدة، وتولّد في ذاته احترام لاعتدادها، وإحساس بانتفاء عنجهية الذكورية، وبالمساواة في القدرة على القرار، والتصرف، وتذوّق «التفاحة» بطريقة صحية وبسيطة جداً.

ركب السيارة الى جانبها وانطلقا..

كانت تسكن شارع «بيضا اوتسا» في الطرف الآخر، الشمالي، للحي الذي يسكنه. لفّت شالاً حريرياً على عنقها، اتّقاء لبرد الفجر الذي يقترب، وخوفاً على حنجرتها الذهبية التي هي كنزها. وفي سيارة الرينو التي كانت تنتظرها امام الملهى، قطعا شارع الجمهورية، الى الجسر المعلق على الدانوب، ورحلا الى بودا. كانت تسوق بيدها اليسرى، ويدها اليمنى في يده، وتضحك، وهما على الشاطىء الآخر للدانوب، سائلة بغنج امرأة ناضجة، شهية، لعوب:

- ضوما؟

كرم يجيبها ضاحكاً أيضاً:

- نيبت..

فتقول مرحة:

- دا..

وتمضي به لا يدري الى أين. كانت اللغة حاجزاً بينهما. كان، في ذاته، يلعن هذا الحاجز، وقالت وهي تعود به من على الجسر المعلق نفسه:

- كرم، لوبلو ايرجكا؟ (كرم تحب ايرجكا؟)

فقال بدوره:

- دا..

فهم كلمة الحب بالروسية ، لا يدري كيف استعملتها ، بصيغة اسم ام فعل ، ولكنه كان يعرف ان «لوبلو» تعني الحب ، وادرك انها تسأله «هل تحبني؟» وحين اجابها نعم ، قالت ، كما خيل اليه: «ليس بعد..» فضحك ، وضغط على يدها ، تاركا لمسام الجلد ، في الكف الحارة ، ان تعبر عما في قلبه من عرفان الجميل.

وحين تكلمت بالروسية اكثر ، لم يفهم شيئاً ، فقال وهو يتلعثم بالكلمات:

- نزنايو روسكي.. (لا اعرف الروسية).
- نيشيفو (لا يهم)..

فتح دفتره الذي كان قد كتب فيه بعض العبارات المجرية ، تعلّمها من طلابه ، وقال:

- شاينوش.. مجارو نيهيز (آسف.. اللغة المجرية صعبة).

فضحكت من لفظه وقالت:

- ايكن.. شوك نيهيز. (نعم ، صعبة جدا).

دارت به ، قرب نادي الصحفيين ، بحركة بارعة ، وانطلقت شمالا مواجهة نسيماً منعشاً ، وألقاً فجرياً مبكراً. ثم توقفت رويداً رويداً ، امام مبنى ضخم ، في شارع (بيضا اوتسا). ترجلت فترجّل. فتحت الباب الخارجي ، تقدّما عبر بهو كبير ، دخلا المصعد الى الطابق الثالث ، تقدّمته وفتحت الباب ، وقالت:

- تيشيك (تفضّل).

كان البيت جميلاً. صالون واسع. منسّق تنسيقاً حسناً. ينمّ عن ذوق فنانة. كانت فيه بعض التحف ، وفي خزانة ، على الجدار ، صُفّت أوانٍ خزفية ، وكانت هناك ناركيلة ، لا يدري من أين اتت بها ، خمّن أنها هدية من معجب عربي.. ولقد سُرّ لرؤية الناركيلة..

شمّ فيها رائحة عربية. توقّف عندها. كانت خالية من الماء ، لم تستعمل أبداً ، وكان هيكلها من الخشب ، ولها نربيش أحمر. تناوله ، رفعه الى فمه. وسمعها تسأله بالمجرية:

- سيب (جميل).
- جينيري.. (رائعة).

صفقت وهي تضحك.. قالت عبارة مجرية ، فهم منها التالي: «ها أنت تتكلم المجرية». وقال في نفسه: «سأتعلمها من غير شك.. إذا كان عليّ أن أقيم في المجر لمدة لا أعرفها الآن ، فإن عليّ أن أتعلم المجريّة.. وسأفعل ذلك منذ الغد.. ولكن يكف نتفاهم ، ما تبقّى من الليـل ، وواحدنا لا يعرف لغة الآخر..؟ نصمت؟ نكتفي بالنظرات؟ ننام؟ أنام هنا في الصالون وتنام هي في غرفتها؟ تعتبرني ضيفاً لديها حتى الصباح؟ لقد ذكرت كلمة «الحب؟».. ربما كانت تسألني هل أحبها.. من غير المعقول أن تصدق أنني أحبُّها.. الحب لا يكون بهذه السرعة ، بهذه السهولة.. وسأكون كاذباً ، لو قلت لها أحبك جاداً.. كنا نمزح ونحن على ضفة الدانوب.. المصادفة العجيبة تعطي طرافتها. لكن الحب فوق الطرافة.. أحسب أنها مثلي ، تمضي مع نزوة عابرة ولّدتها المصادفة لا أكثر».

كانت قد استأذنته ودخلت غرفتها ، فلما عادت كانت تحمل قاموسا ، من الفرنسية الى المجرية. وقالت وهي تضحك:

- فرنسوسيكي نيهيز (الفرنسية صعبة)..

وقال مجاريا:

- ايكن (نعم..)

تناول القاموس منها ، القاموس الذي تتعلم منه كلمات فرنسية ، وراح يقلبه ، شاعراً بالسعادة لأنه يستطيع بمساعدة هذا القاموس ،

ان يتفاهم معها،.. وأشارت الى زجاجات على مائدة صغيرة:

- كونياك؟

أجاب:

- فينو (نبيذ)..

كانت الليل، بالنسبة اليه، قد اوشك على نهايته. أحس بتعب وعزوف عن المشروب القوي. اقترح النبيذ وفي ظنه ألاّ يشرب سوى قدح واحد، ربما تأذن له أن ينام، او ينصرف عندما يطلع الصبح.. لكن الليل، بالنسبة اليها، كان قد بدأ الآن.. خلال العمل، وقبل الغناء لا تشرب إلا قليلاً... ترفض الشرب والرقص الا في حالات نادرة، ولكن حين تعود الى البيت، وحدها او برفقة صديق، او تكون في سهرة خاصة، فإنها تشرب حتى تنتشي. تتحرّر من التزاماتها عندئذ تخرج من جديّتها، تعطي نفسها بكرم للمتعة..

أحضرت زجاجة نبيذ «توكاي» كان قد عرف ان هذا اجود نبيذ في المجر، أحضرت كذلك مفتاحاً للزجاجة ورجته أن يفتحها، فيما كانت تحضر صحناً من «السلامي» المجرية المشهورة أيضاً. جلست الى جانبه وشربت نخبه. شربت جرعة كبيرة.. ثم نهضت ومضت، وسمع الباب يغلق من الداخل. تملّكته الحيرة. عجز عن تفسير سلوكها. لقد آمن، مما رآه في الملهى، انها فنانة محترمة، لكنه، هنا عاوده الشك. قال في نفسه: «كيف اتصرف؟ اعتبر نفسي ضيفاً؟ صديقاً؟ عشيقاً؟ زبوناً؟ ماذا أقدّم لقاء هذا كله؟ هل عليّ أن أدفع نقوداً؟ تكون من اللواتي يأخذن نقوداً؟ تكون فوق هذا المستوى؟ فنانة هي، كل ما في تصرّفها يدل على اعتداد بالنفس، بالفن، بالزهو الداخلي، وفي حال كهذه، قد أرتكب حماقة بعرض نقود عليها؟ الهديّة تليق.. لكنني لاأحمل اي شيء يُهدى.. الأفضل أن

أتريث.. ما دام الموقف يتحدّد في النهاية، والنقود، في حال تعاطيها، تُدفع في النهاية. إن لدي وقتاً للتفكير وللتصرّف بشكل سليم لا يجرح.. أنا لا أريد ان أجرحها.. هي لا تعرف من أنا حتى الآن. لم تسأل حتى عندما كنا في الملهى، وكان الميتر يترجم بيننا.. هذه الناحية لم تولها اهتماما.. رأت نقودي فقط حين أخرجت النقود لأدفع ثمن تذكرة الدخول، رأتني أحمل مبلغاً كبيراً، غرّها هذا؟ اعتبرتني زبونا دسماً، ولكن ماذا لو كان هذا ظناً؟ إن بعض الظن إثم.. مهما يكن، وحتى لو أرضتها طرافة اللقاء وأريحية الموقف في الملهى، فأنا لست بالشاب بعد كل شيء.. لست ذلك الفتى الذي تغريها فتوته.. لست صاحب المكانة الذي تستهويها مكانته.. ثم لست فناناً.. ولا تعرف أية تفاصيل عن وجودي في بودابست. ومن المرجح انها تعتبرني سائحاً.. هذا هو السبب. السياح يشكلون إغراء.. وخاصة إذا كانت لديهم وفرة من النقود.. أنا لست إلا سائحاً.. يا كرم، يا بني.. أيها المشرد، أنت سائح في بلاد السيّاح الجميلة هذه.. تمتّع.. اشرب قليلا، تحامل على نفسك.. لا تدع التعب يسيطر عليك، لا تدعه يتجمّد في أجفانك.. كن لطيفاً، كن مهذباً.. حاذر أن تتصرّف كنجري مع امرأة فنانة».

عادت اليه وقد أزالت بعض «مكياجها». قدّر أنها تخلصت من «بيروكة» الشعر المستعار، مشطت شعرها الحقيقي وردّته الى الوراء، ربطته بشريط بنفسجي ربطة «ذيل حصان».. ارتدت «روب دي شامبر» جميلاً، أخفت محاسنها تحت المعطف البيتي، جلست الى جانبه وهي تبتسم، شربا نخباً جديداً. كانت ظمأى الى الشراب، كانت تعبة هي الأخرى، كان السهر الطويل الدائم قد أعطاها طابعاً محدداً: الإرهاق والشبق، وفتّش في القاموس عن

بعض الكلمات، وأشار اليها فابتسمت.. كانت العبارة تقول:

- متى تنامين؟

وبالطريقة ذاتها اجابته:

- نهاراً..

- الى ما بعد الظهر..؟

- بعد الظهر للعزف (وأشارت الى بيانو في طرف الصالون) والغناء.. فترة تمرين، وحفظ للأغنيات الجديدة.

سألته:

- وانت.. متى تنام؟

- ليلاً طبعاً، ولكن في وقت متأخر...

- هل اعجبتك بودابست؟

- كثيراً..

- منذ كم أنت فيها؟

- منذ اسبوع..؟

- لديك أصدقاء؟

- بعض الأصدقاء..

- بينهم صديقة ولا شك..

- ليس تماماً.. تعرّفت الليلة الى فتاة جامعية..

- تحبها؟

- ليس بهذه السرعة.. ليس من اللقاء الاول؟

- ولماذا اخترتها صغيرة؟

- أنا لم أخترها... تعرفت إليها في مقهى «إم كي»

امتعضت.. أشارت إشارة رفض. قالت:

- هذا مقهى سيء.

- لا أدري.. كل ما في الأمر أني رأيتها وحيدة، وتعرفت اليها..

- احذر..

- لماذا؟

- على هذا المقهى تتردّد عاهرات.

قالتها وشربت.. جاراها في الشرب. فكر: «تكون بيروشكا عاهرة؟» شعر بأسف.. بخيبة أمل.. استغرق في محاورة نفسه. قالت:

- هل أغرتك لأنها صغيرة؟

- ما أظن..

- في مثل سنّك يحبّ الرجال الفتيات الصغيرات..

ران عليه ظل من كدر.. التذكير بالسنّ لم يرق له. هو كهل لا شك. كهل في الاربعين، لكنه لا يبحث عن الفتيات الصغيرات.. أخذ القاموس منها وبحث عن الكلمات. قال:

- والنساء، حين يتقدمن في السن يحببن الفتيان الصغار..

هزت رأسها نفياً.

- انت مخطىء..

اصطنع كرم ابتسامة واجاب:

- ربما..

شربت كأسها، سكبت ما تبقى في الزجاجة.. ولما فرغا منها امسكت بيده ومشت به الى غرفة نومها.. كانت قد كشفت الغطاء عن السرير. أرخت الستائر. تركت مصباحاً صغيراً احمر مشتعلاً.. أحضرت زجاجة «توكاي» أخرى وقدحين نظيفين.. أعدّت، في غرفتها، وليمة للجس.. وقال كرم في نفسه: «هذا ما كنت

أتوقعه.. أنا لست إلا زبوناً في نظرها.. حسناً إمض يا بني في اللعبة.. تذوّق «الطعام» الجري تذوّقه من «طبخ» سيدة بهذه الأناقة المترفة، والى جهنم بكل الحسابات الأخرى».

نزعت المعطف عنها فبدت فارعة نافرة الصدر، رخصة الساعدين، وصدرها الابيض، وقوامها كله تحت «الشلحة» الشفافة، يعطيها الآن رشاقة، نضارة إثارة غير التي كانت في وجهها.. استلقت على السرير.. جلس هو على حافته بكامل ثيابه. صبّ قدحين. شرب، هذه المرة قدحه كاملا.. لقد استثارته.. نادته بكل مكامن اللذة فيها: صدرها، ساعداها، فخذاها، عيناها اللتان اغتلمتا.. فهم النداء تشرّبه من كل مسامّه. ضغط على أعصابه كي يبقى هادئاً. قال في نفسه: «علي أن أخرج ناجحاً من هذا الامتحان» ثم تذكر قول البارمان فيرانتس: «لا تكن غجرياً». وقال في نفسه: «الى الجحيم بنصيحتك يا فيرانتس.. انا لن اكون سويدياً بارداً منطفئاً من الإدمان على الكحول.. سأتصرف، الليلة، وفق قانوني.. الأفضل ألا أكون عنيفاً.. لكن ماذ افعل اذا كان العنف كاللعنة في دمي؟..

اخذ يدها وقبلها. قبل زندها قبل ساعدها فضحكت وقالت محذّرة:

– كرم!

وقال:

– ايرجكا..

وتعانقا.. قبّلها، هذه المرة في فمها. قبلة طويلة، عنيفة، وكشف، بيد مرتجفة، عن صدرها، لكنها نهته عن الضغط على نهديها. كانت حريصة على عنفوانها.

شربا أيضاً.. انتهت الزجاجة. نضجت قطعة «البيفتيك» الشهية. كانت ايرجكا قد بلغت مرحلة السكر، وتجاوزت، في اندفاعها، مرحلة العقل، جنّت.. عيناها تراءى فيها نثار لمان كالومض... وكان كرم يرتعش وهو يشمّ عطرها. بعد ذلك لم يدر كيف تخلّص من ثيابه، وحين قفز الى السرير واحتواها، اعطته نفسها بسخاء..

في الصباح نهض واغتسل.. ظلّت هي مستلقية. نامت نوماً قصيراً واستيقظت حين كان يغادر سريرها. ابتسمت. كانت عقدة «ذيل الحصان» قد انحلت، وانفلش شعرها، وكان جسمها المشوق، الابيض، على توشيحة وردية، ممدّداً على طوله، وكان الغطاء مرفوعاً. فانحنى عليها وقبّل سرّتها.. ضحكت وقد دغدغتها شفتاه، قالت:

– كرم!

واشارت إشارة مؤداها: يكفي..

وجاءت اللحظة الحيرة بالنسبة لكرم، ماذا يفعل؟ ماذا يترك لها؟ كيف يتصرّف؟... جلس وأشعل سيكارة.. فكّر.. امعن في التفكير.. نظر اليها. رآها تراقبه.. كانت ترصد حركاته من طرف خفي. هرع الى الصالة. احضر القاموس. بحث فيه عن بعض الكلمات. عرضها عليها:

– ماذا يتوجّب علي؟

اخذت القاموس وانتقت كلمة:

– ان تدفع.

مدّ يده الى جيبه، أخرج نقوداً وضعها على الكومودينة قرب السرير.. نظر اليها وهو يهم بالخروج. كان وجهها مربداً.

قفزت من السرير عارية. امسكت بالنقود وتفرست بها طلبت أيضاً. اعطاها. طلبت مرة اخرى. ناولها ما معه. طلبت للمرة الثالثة. أخرج ما تبقّى، وهي نقود مجرية. جمعتها كلها في حفنتيها.. ابتسمت.. لم تقل شيئا. اقتربت منه رفعت كفها لتصفعه. كان اسرع فأمسك بيدها. احتضنها. أخذ النقود وأعادها الى جيبه، انحنى امامها، ضاماً كفيه على الطريقة البوذية. قال:

- شاينوش (آسف).

قبّلها.. قبّلها.. داعبت رأسه. قالت:

- لوبلو (احبك)..

عاد الى تقبيلها.. قالت:

- أدريس.. (العنوان)..

كتب لها عنوانه كما حفظه (بنتزور اوتسا ١٩، الطابق الرابع، المسكن ١٠).

قالت:

- كوسينم سيبين (شكراً جزيلاً).

قال:

- متى أراك..؟
- عندما تريد..
- سرفوس (وداعا).
- فيسونت لا تاشرا (الى اللقاء)..

كان الوقت ضحى.. وكانت الحركة صاخبة في الشوارع.. سار باتجاه بيته.. دخل الباب خجلاً. رأته البوابة. ابتسمت، عرفت انه لم ينم في منزله. لم تقل شيئاً. لا دخل لها في هذا.. مهمتها أن تحول بين البناء والغرباء.. كرم يعود وليس معه غريب.. أسرع الى

غرفته.. أغلق الباب وانطرح على السرير. كان بحاجة شديدة إلى النوم. قرر الا يفتح الباب لأحد، وظل نائماً الى العصر..

تناوب على مخيلته وجهان فرضا نفسيهما بقوة. وجه بيروشكا ووجه ايرجكا. كان في حالة صفاء ذهني بعد النوم الطويل. وفي هذا الانسجام الصفوي حلا له أن يرتّب مشاعره، مستوعباً ما وقع له أمس، متنقلاً بأفكاره بين المرأتين اللتين جمعته بهما المصادفة وحدها. أول انطباع خرج به. من خلال استعراض وقائع ما جرى، أن الروح المجرية مشبعة بحضارة عريقة، تنعكس في تصرّف الناس، من باقة الزهر التي تحرص سيدة البيت على ابتياعها، وهي تتسوّق خضارها، او تشتري أيما غرض لبيتها، الى التهذيب الرفيع في حالتي الاستقبال والوداع، الى مخاطبة المرأة التي يبدأها الرجل بقوله: «أقبّلك» فاذا كانت سيدة متقدمة في السن قال لها: «أقبّل يديك». ان الزهرة، الابتسامة، التحية الجميلة، الكلمة الحلوة، الترفع أشياء يمكن ملاحظتها في وقت قصير، كما يمكن ملاحظة أناقة الناس، المستوى الجيّد لحياتهم، نظافة الشوارع، خلوّها من المتسولين والعاهرات واللصوص، هذه الظواهر اللازمة للمجتمعات الأخرى، في النمسا وايطاليا وفرنسا وكل البلاد الغربية التي زارها.

قال في نفسه: «التطبيق الاشتراكي، هنا، بخير، قد تكون ثمة نواقص، لكن الأشياء الإيجابية تطالع الزائر فوراً (أضاف): يا لها من بلاد جميلة.. المجر، هذه، تصح أن تكون واجهة للبلاد الاشتراكية.. المرء فيها يشعر بإنسانيته، ربما كانت، في هذه الزاوية او تلك، في هذا المقهى او ذاك، في «ام كي»، فتيات في سلوكهن ريبة، لكن المرأة المجرية تحترم نفسها جيداً. بيروشكا كانت في مقهى «ام كي» لكن سلوكها خلا من الابتذال. ايرجكا مغنية في ملهى،

لكنها، حين عرضت عليها نقوداً غضبت. بلغ بها الغضب انها كادت تصفعني.. هنا لا خلط بين الحب والدعارة. تحب المرأة تمارس الجنس مع من تحبه. وهذا حقّها لكن الجسد غير معروض للبيع، وإذا كان هناك استثناء، فهو تثبيت للقاعدة ليس إلا..

نهض وهذه الأفكار البهيجة تملأه اطمئناناً. كان سعيداً الى حد أنه دمدم بأغنية وهو يعد لنفسه فنجاناً من القهوة. كان المطبخ مرتباً. حرصت بيروشكا، بعد العشاء على ترتيبه، هذه علامة اخرى جيدة. ترشف قهوته مع سيكارة. اصغى الى شيء من الموسيقى، ابقى باب الحمام مفتوحاً وهو يغتسل، استشعر راحة وحباً لوحدته. لكن الباب لم يلبث ان طرق بقوة. لبس برنس الحمام وفتح. كان هذا ضياء التركي.. صاح منذ أن رآه..

– أين أنت يا صديقي؟.. متى عدت الى البيت ؟

– ولكنني في البيت..

– كيف جاء حسن وطرق الباب. طرقته أنا أيضاً. قال حسن إنه هتف اليك عدة مرات ولم ترد.. إنه قلق عليك.. يخشى ان تكون ضعت ليلا، عندما تركك في ساعة متأخرة..

– وهذا ما حدث فعلا.. ولكن لنجلس أولاً.. ما رأيك بكأس من الفودكا؟

– أكون شاكراً.. لعلّ هذا السعال اللعين يتوقف.. الربو يكاد يقتلني يا كرم..

– وأنت تجهد نفسك في الكتابة.. استرح قليلا..

شربا قدحين كاملين من الفودكا دفعة واحدة. قال ضياء:

– أنت لا تعرف مبلغ سروري بوجودك في هذا البناء.. انا لا أجيد المجرية. لم أستطع تعلّمها.. وأنت تتكلم التركية.. أنت أخي..

أضاف بعد وقفة قصيرة:

– هل هذا لأننا مهاجرون، ام لان فكرة واحدة تجمعنا؟

سكب كرم قدحين جديدين، واستأذن في أن يرتدي ثيابه.. لكن طرقاً تعالى على الباب، فلما فتحه صاح حسن:

– السلام على أمة العرب، واللعنة عليك يا صديقي..

قال كرم:

– ادخل.. ضياء عندي.. جاء قلقاً مثلك..

قال حسن:

– أين كنت ايها الملعون؟

– كنت في البيت.. ظللت نائماً حتى العصر.. سمعت الطرق على الباب، ورنين الهاتف.. لكنني كنت تعباً وقد غلبني النوم..

قال ضياء:

– كرم سبقنا.. نحن لا نجد وجهاً يبتسم لنا.. وهو منذ وصوله، ينام خارج البيت..

انضم حسن الى الصديقين في شرب الفودكا، وبعد ان ارتدى كرم ثيابه قص عليهما حكاية ضياعه، وأغفل منها الجزء المتعلق بايرجكا.. زعم انه سهر في احد الملاهي، وعاد صباحاً باكراً الى البيت..

أبدى ضياء، بأبوّته، بطيبة قلبه، أسفه لما وقع.. وأتبعها بهذه النصيحة:

– اسمع يا كرم.. في هذا المتحف.. وفي إنفاقك الواسع، تستطيع ان تسهر الى الصباح. وان تغري كثيراً من النساء.. لكن هذا ليس جيّداً بالنسبة اليك... عليك أن تكتب.. لاتنس انك تعيش.. قاطعه حسن:

- المجر، ايها الملعون، غير الصين.. هنا المغريات كثيرة..

وقال كرم:

- أفهم هذا جيّداً.. لم تستهلكني كل البلدان الأوروبية التي عشت فيها.. ولن تستهلكني المجر أيضاً.. في الصين وجدت المجتمع مغلقاً. لم أستطع أن أكتب.. أما هنا فسأعمل.. هذا ما اعتزمته..

قال ضياء:

- للغربة أخلاقياتها.. غداً تعرف.. تعاشر الآخرين: الجيران، الزملاء، الطلاب، وتجد نفسك أمام طريقين: أن تزداد تمسكاً بقضيتك، وعملا من أجلها أو تغرق في التوافه، والملذات.. وتنساها!

قالها واقترح نخباً على شرف النضال.. ثم سأل فجأة.

- أتعرف، يا كرم، من كان يسكن هذا البيت يوماً؟

- من؟ منفيّ آخر مثلنا..؟

- نعم.. منفيّ مثلنا. اعتبر المنفى مهنة شاقة.. إنه ناظم حكمت!

هتف كرم:

- ناظم حكمت سكن بيتي هذا؟

- وفيه كتب قصيدته «أرض المجر».. فكّر بهذا.. كن وفياً لناظم يا بنيّ.

- ٨ -

كانوا ثلاثة في الحديقة:

أدامو الإيطالي ومعه ابنته الرضيعة، في سرير بلاستيكي صغير، يُحمل ويُنقل باليد. وكبريانو اليوناني، المهاجر منذ الثورة اليونانية، عقب الحرب العالمية الثانية، والذي عاش طويلاً في الإتحاد السوفياتي، وانتقل منه إلى المجر، ليعمل في الإذاعة.

ومحمد حيش، العراقي الذي فرّ بعد الانقلاب على عبد الكريم قاسم، ودرس في المجر، ثم تزوج مجرية، وما يزال يدرس، ولا أحد يعرف متى يتخرج..

أما على الشرفة المطلة على الحديقة، فقد جلس نيلسون، الماركسي الإنكليزي الذي اتخذ من الشرفة مقيلاً، فهو ينعم بالفيء صيفاً، وبالشمس شتاءً، ويقرأ الأدبيات الماركسية بغير انقطاع.. ويعمل أستاذاً في الجامعة..

هؤلاء الثلاثة لفتوا كرم، في الأيام التالية لوصوله. كانوا دائماً في الحديقة، وفي الشرفة، كأن كل عملهم محصور فيها، أو كأن لا عمل لهم، فهم يعيشون باسترخاء، وينعمون بحالة من اللامبالاة تجاه دنياهم.

كان أدامو الإيطالي، في حرصه على نقل المظلّة الملونة، الكبيرة، مما يوضع على البلاجات، من مكان إلى آخر، ونقل طفلته تبعاً لذلك، يبدو نموذجاً لمن فرغ من الهموم، ولم يبق له من شغل سوى هذه الحركة الرتيبة التي يزاولها، قائماً بها مقام الأم التي كانت أجدر بهذه الرعاية المفرطة لطفلة رضيعة لا تتجاوز الأشهر من عمرها كما يدل سريرها.

وكان ضئيل القامة، قصيرها، قليل شعر الرأس، مرحاً، لديه سيارة فيات، وزوجة، وكلب، ودراجة سباق للرياضة، ويعمل في القسم الإيطالي من الإذاعة. هو مدرّس في الأصل، من إحدى المدن الإيطالية الجنوبية، وليس لديه ما يعمله في المجر، سوى الاعتناء بسيارته، وابنته، وكلبه السمين، ذي الشعر الطويل، والقامة المدبدبة، التي لا تكاد ترتفع عن الأرض.

أما كبريانو اليوناني فهو مولع بالموسيقى، وكرة المضرب، والذهاب في شهر تموز من كل عام إلى بحيرة «البلاتون» للاستجمام، والراحة، وتعريض جسمه للشمس، ومرافقة بعض اليونانيين الذين يزورون بودابست وتبديل العملة لهم، كجزء من نشاطه في السوق السوداء.

حيش كان صاحب تجارة أوسع. إنه يعمل في التهريب. تجد لديه الدخان، الويسكي، الثياب النسائية الداخلية، وكل الأشياء التي يستطيع، بطرق شيطانية، ان يهربها من النمسا إلى المجر، ولها مشترون في كل أطراف العاصمة، وله عملاء خاصون، ويتاجر بالأيقونات الأثرية، يهربها إلى فيينا، ولا أحد يعرف الأسلوب الذي توصّل به إلى السكن في البناية، لكنه منذ سكن قرر ألاّ يخرج، وألاّ يغادر بودابست، ولا يعود إلى العراق، ولديه دائماً تشكيلة من

القداحات وأقلام الحبر، هدايا لبعض ذوي النفوذ، في الجامعة وغيرها..

نيلسون وحده لا يتاجر، ولا يهرب، وإن كان يصرف نقوده في السوق السوداء. اهتمامه الوحيد هو المطالعة. يقرأ الماركسية وهو يتشمس، يحرص دائماً على نظافتها، على أخلاقيتها، ولا يفهم أبداً، كيف أن المجريين، بالتعاون مع الإتحاد السوفياتي، قضوا على الثورة المضادة في المجر.. يعتبر هذا تدخلاً فظاً، ولا يفهم كيف يقاوم الفلسطينيون «دولة» إسرائيل التي ينبغي، في رأيه، ان يتفاهموا معها، وإن يكفوا عن نكران وجودها، أو عدم الاعتراف بها..

ولأن نيلسون لا يعمل إلا ساعات في الأسبوع، فإنّ وقته الباقي يقضيه في تدوين ملاحظات على هوامش الكتب التي يقرأها، وفي الدفاتر التي يبسطها أمامه، وحزمة الأقلام التي لا يعرف سلاحاً غيرها. كان همه أن يطوّر الماركسية. يعيد تفسيرها. وهو فوق الخلاف الصيني- السوفياتي، إنه ضد الجمود العقائدي، بمقدار ما هو ضد التحريفية، وهمّه أن يتوّصل إلى نظرية ثالثة، نظرية تلائم أوروبا.

هذه المعلومات نقلها ضياء التركي إلى كرم على دفعات. كان يشرب الفودكا معه، ويسعل، ويختنق من الربو، ومن القهر لأنه يعيش بعيداً عن تركيا. يقول:

- هناك يا كرم، في الأرض التي ولدنا عليها، ينبغي أن نكون.. المناضل الحقيقي يسبح في بحره، خارج هذا البحر يكون كالسمكة الملقاة في الشمس على رمال الشاطىء. تنتن، تنفسخ، وتنشر رائحة كريهة لا غير.. لدينا هنا، في المجر، في رومانيا، في

بلغاريا، في البلدان الإشتراكية كلها، أتراك كانوا يوماً مناضلين.. أنا أعمم.. هناك أناس ظلوا مناضلين، يتحرّقون شوقاً إلى العودة، إلى مواصلة الكفاح، لكن هؤلاء قلة.. الأكثرية صاروا مرتزقة.. استمرأوا العيش في مجتمعات اشتراكية جاهزة، لم يدقوا مسماراً في بنائها.. إنهم طفيليّون.. يمارسون كلّ أنواع الرذائل.. يتزوّجون في الإتحاد السوفياتي، وبعد فترة يهربون إلى بلغاريا فيتزوّجون أيضاً، وإذا انتقلوا إلى رومانيا فعلوا الشيء نفسه.. يتعاطون جميع الموبقات.. من التهريب والعمل في السوق السوداء إلى القوادة.. يصيرون، مع الأيام، قوادين أيضاً، همّهم الراحة، السفر، وجمع المال.. لو بقوا في تركيا لظلوا شرفاء، مناضلين. لو سُجنوا لتعلّموا الصمود مثل ناظم حكمت.. المنافي صعبة. والشرفاء وحدهم يسلمون فيها..

هذا المساء، بعد أن انصرف حسن الإيراني، وهو يلعن كرم تحبباً، بقي ضياء جالساً. طلب من كرم موسيقى تركية. كان يحب أغنية «كيلو قزم»، «بنت الريف» وبعد أن شرب أفاض في الحديث:

اسمع يا كرم:

– لي ولدان: ابن مراهق، وفتاة صبية. تربّيا معنا في الغربة. في بلغاريا ورومانيا، ثم هنا.. الفتاة تدرس في الجامعة. دخلت معها حانوتاً تديره امرأة عجوز. هذه فرحت عندما كلّمتها ابنتي بالمجرية.. رغبت في أن تعرف من أين هي، وماذا تفعل في المجر وأشياء أخرى من هذا القبيل، فماذا كان موقف ابنتي؟ انتهرتها.. حين غادرنا الدكان سألتها: لماذا كنت فظة مع العجوز؟ قالت: لأنها ثرثارة. قلت لابنتي: اسمعي! هذه امرأة مجرية. إنها، حتى في هذه

السن، تعمل، تدفع ضرائب، تسهم في بناء المجر، ومن الضرائب التي تدفعها تتعلمين أنت.. تأكلين أيضاً.. نأكل نحن.. العجوز أفضل منك، أفضل من كل أمثالك من الطلاب الأجانب الموجودين هنا، الذين يمارسون شعوراً بالامتياز على المجريين، ينتهرونهم بقلة أدب، كما فعلت.. هذا نموذج لسلوك الطلاب الأجانب، سواء كانوا عرباً، أو افريقيين أو أسيويين.. وحدهم الطلاب الفييتناميون، هؤلاء المناضلون، يتصرّفون بطريقة أخرى، يدرسون، يجتهدون، يعيشون على نار، بانتظار تخرجهم، للعودة إلى فييتنام والاشتراك في الحرب الدائرة هناك..

قال كرم:

– ولكن هذا مخيف يا عم ضياء.. مؤسف أن يكون ذلك كذلك..

– هذا هو الواقع.. أنت كنت في الصين.. عشت مع الأجانب الذين يعملون فيها.. قل لي، بصراحة، أما كان فيهم شيء مماثل؟

يعزّ عليّ أن أقول نعم.. كان معظمهم من المرتزقة، خاصة بعد الخلاف بين الصين والإتحاد السوفياتي.. عرفت، هناك، إيطالياً يدعى انجيلو، كان متعصباً للصين.. كان يحاول أن يتاجر في التحف، وذات مساء سهرنا معاً، وبعد أن شرب عدة كؤوس، قال لي: «اسمع يا كرم.. أنا لست هنا إلا لجمع ثروة صغيرة. ثمن بيت وسيارة. حين نشب الخلاف.. انحزت إلى الصين.. كنت أرغب في المجيء إلى هنا.. سمعت بالتحف الصينية.. أردت أن أربح قليلاً.. هذا هو كل شيء..».

أمثال هذا الانتهازي كثيرون، ستجدهم هنا أيضاً، رغم أنه لا تحف مجرية تذكر.

قال كرم:

- في بدء الخلاف.. حين وقف كاسترو ضد خروتشوف، أرخى كثير من المرتزقة، وخاصة من بلدان أميركا اللاتينية، ذقونهم، اقتداء بكاسترو.. لكن خروتشوف أزيح، وانتهى الخلاف البسيط، ووقف كاسترو ضد الصين، فهل تعرف ما فعل أصحابنا بلحاهم؟ حلقوها سريعاً، تزلّفاً للصينيين.. وذات يوم عقد اجتماع في بكين، لتشكيل فرقة تذهب وتقاتل مع الفييتناميين.. الأجانب الموجودون سجلوا أسماءهم جميعاً.. تطوّعوا.. وبعد انفضاض الإجتماع، ذهب كل واحد على انفراد وطلب شطب اسمه، بذرائع كاذبة.. الانتهازية، هي الوجه الآخر للانهزامية.. المرتزق لا يمكن أن يكون مناضلاً.. في الصين، بعد الخلاف، لم يبق سوى المرتزقة، وقلة من الشرفاء، انتظرت حتى انتهت عقود عملها..

- من أجل ذلك، قال ضياء، أعمل برغم مرضي.. أكتب قصصاً قصيرة، أرسلها إلى تركيا وأنشرها بأسماء مستعارة..

أضاف:

- وأنت يا كرم عليك أن تكتب أيضاً، إذا كنت لا تريد أن تكون مثل الآخرين، الذين يتفسّخون في الغربة..

وبعد نوبة سعال، وكأس فودكا، نهض ضياء ومضى.. كان عجوزاً، طويلاً، متهدل الكتفين، يذوي كورقة خضراء في لفح الشمس، يذوب كشمعة في منفاه. قال كرم في نفسه، وقد جلس وحيداً: «كل ما قاله ضياء صحيح.. للغربة اخلاقها.. هنا، في هذه البلاد، يتصرفون وكأنهم أصحاب البيت الطالب يدرس مجاناً. يأخذ مرتباً. له بيت، وقسيمة طعام، ولباس.. كل شيء موفور له، ينسى أنه يعيش من جهد سواه.. يتنكّر لهذا المعروف. بعد ذلك يشتم حتى

البلد الذي درس فيه. ضياء قال: كل رسائل الحنين إلى الوطن، والتعلّق به، تتلقّاها، في القسم التركي، من العمال الأتراك، والطلاب الأتراك الذين يعيشون في الغرب. هؤلاء يعانون، يعرفون ما الاستثمار، ما الظلم، ما أجرة البيت وثمن الطعام وقسط الجامعة. هذا ينطبق على العرب أيضاً.. وهذا البلد الصغير، هذه الدولة المجرية، تتحمل، ونحن نعضّ اليد التي تصنع المعروف معنا.. هناك، في تركيا، في سورية، في مصر، في العراق، في اليونان، وفي اسبانيا أيضاً، "يعانون"، يناضلون، يواجهون الأعداء.. يعيشون أمل الإشتراكية، يكتبونه على قلوبهم، يحولونه إلى أعمال.. وهنا، في هذه الحديقة، في هذه البناية، يقرأ نيلسون الأدبيات الإشتراكية وهو يتشمس.. وامادو الإيطالي يقضي وقته في تركيز المظلة فوق سرير ابنته.. ونقلها من مكان إلى آخر، وكبريانو يسمع الموسيقى ويلعب التنس، وحيش يتاجر في السوق السوداء.. وأنا؟ أصير مثلهم غداً؟ وهذا المتحف؟ وليلة أمس في الملهى؟ واللقاء، قبل ذلك، ببيروشكا؟ إلام يقودني هذا السلوك؟ ضياء كان يعنيني بكلامه.. ذكرني بناظم حكمت. قال هذا بيته.. هنا، في هذه الغرفة، سكن وعمل. وضياء، المريض بالربو، يعمل، وحسن الإيراني يضع قاموساً، يذكر تبريز والدمعة في عينه.. وأنا؟ ودمشق؟.. إيه يا دمشقي الحبيبة... أحتاج من يذكرني بك؟ من يحمل إلي حفنة تراب كما فعل البولونيون مع شوبان؟ لا.. لن يكون ذلك.. لن يكون ذلك..»

عمل، ذلك المساء، حتى ساعة متأخرة. كتب فصلاً في رواية تتحدث عن الغربة. شعر أنه يكفر عن ليلة أمس. لكنه، في المقابل، كان واثقاً من أن شيئاً لن يبدله. هذه التحف ليست

للتجارة. قد يبيعها إذا احتاج. ناظم قال: «أردت شراء باقة بنفسج لحبيبتي، وكان الرفاق جياعاً، فأكلنا بثمنها خبزاً» هو أيضاً إذا جاع، إذا احتاج الآخرون، الطيبون، مستعد أن يبيع أيا قطعة، وحتى أن يبادلها برغيف.. لكنه، بانتظار ذلك، يرى أن مقتنياته هذه أشياء ثقافية.. إنه ليس كهدجي. ليس كأنجيلو.. لم يفكر بالتجارة، فكر بالثقافة.. ولا ضير عليه أن يعيش في جو ثقافي. بل من الضروري أن يعيش في جو ثقافي. أن يشرب، يرقص، يتسلّى.. ويعمل فهذا ضروري.. ديمتروف قال: «تسلّوا أيها الرفاق، فالطريق طويل» أراد: اعملوا، وعيشوا.. لا تجلسوا على أعصابكم، لا تدعوها تتوتّر إلى درجة الانقصاف.. أنا لن أجلس على أعصابي، ولكن لن أجلس على مؤخرتي، لامبالياً، لن أديرها، كثور، لآلام شعبي، ووطني، والبشرية المعذبة.

في اليوم التالي ذهب إلى الجامعة فألقى درسه. عرج على الإذاعة وأعطاها برنامجه الأدبي، وتذكر، حوالي الظهر، أن لديه موعداً في شارع الجمهورية، أسرع إلى محطة المترو، عند الباحة الرئيسية للشارع، وهناك كان أليوش بانتظاره. تصافحا، تكلما العربية التي يتقنها اليوش. كان قد درسها في موسكو، وعاد ليصبح معيداً في كلية الآداب، وكان يدرّس، في قسم اللغة العربية، إحدى روايات كرم.

جلسا في مقهى على الرصيف. كان اليوش طويلاً، أسمر، أسود الشعر، تخاله من الشرق. كان ذكياً، مجتهداً، وكان حريصاً على التعرف إلى كرم منذ سمع بوصوله، قال:

- من خلال روايتك، حسبتك عملاقاً، وقوراً، ونسخة عن أدباء متعجرفين عندنا.

سأل كرم:

- وكيف وجدتني؟

- على غير ما تصوّرت.. أنت ما تزال شاباً..

- ليس تماماً، لكنني لن أشيخ بسهولة.. أين نتغدى..؟

- في مقهى هنغاريا.. هناك سنجد عجائز كثيرين، نساء ورجالاً، بشراً يعيشون على ذكريات الماضي.

سلكا طريقاً قصيراً أفضى بهما إلى شارع لينين، صعدا شمالاً، وعلى اليسار، في منتصف الشارع، كان مقهى ومطعم هنغاريا، المحتفظ بكل ارستقراطيته، وبكل الشكليات التقليدية للتصرف، وبالمونوكل على العين الواحدة، ونظارات يدوية مكبرة، مذهبة المقبض، تضعها امرأة أو رجل، على العينين، حين يراد انعام النظر في وجه مقابل.

قال كرم مازحاً:

- هذا متحف للمستحاثات أم مقهى؟

لم يفهم اليوش كلمة مستحاثات. شرحها له كرم فأغرق في الضحك. قال:

- هذه جثث حية، لم تدفن بعد.. ولكن لا خطر منها..

- كيف؟

- بعد القضاء على الثورة المضادة، عام ١٩٥٦، فقدت أسلحتها.. كل ما بقي لها الكلام.. هنا ينتقدون السلطة الإشتراكية علناً، يشتمونها أيضاً. السلطة تعرف ذلك، لكنها لا تبالي، ما دام العداء مقتصراً على الكلام وحده..

- وإذا تحوّل إلى فعل؟

- ما أظنّ.. هذه الذئاب فقدت أسنانها.. لا تستطيع العضّ في الوقت الحاضر.. ثم لا أحد يسمح لها..

- لماذا؟

- لأن القضاء على الثورة المضادة، رافقه قضاء على الأخطاء التي استغلها المحرضون عليها..

- تعتقد ان كل شيء، الآن، على ما يرام ؟

- ليس على ما يرام تماماً.. لكننا في الطريق الصحيح.. بعد الضربة الماحقة التي وجهناها للرجعية، بدأ الإصلاح.. بدأ جذرياً هذه المرة..

- لكن الرجعية، وهذه نماذج منها في هذا المقهى، ما زالت موجودة.

- وستبقى موجودة إلى زمن طويل.. لكن القوة للملكية، والملكية للشعب، أعني الدولة، وهذا هو الأساس.. حين تكون للرجعية قوة اقتصادية، تطلب التعبير عن نفسها سياسياً.. لقد جرّدناها من هذا السلاح الآن..

- أنت في الحزب؟

- أنا في الشبيبة.. والدي من قدماء الحزبيين، عامل منجم..

- حضرت الثورة المضادة؟

- اشتركت في مقاومتها..

- كانت المعركة ضارية؟

- بأشدّ مما تتصور.. لقد ذبح الفاشيست المئات من المناضلين.. وبعيني هاتين، رأيتهم يلقون مناضلة من الطابق السادس.. كانوا شرسين كأبلغ ما تكون الشراسة.. وكانت القوى الخارجية، القوى

المعادية، أميركية وغربية، قد زوّدتهم بالسلاح والمال.. كانوا يريدون القضاء على النظام، وإعادة المجر عشرات الأعوام إلى وراء..

شرب أليوش كأسه وسأل:

- ألا أضجرك بحديثي الجافّ هذا؟

- أبداً.. أنت تتكلم وأنا أنظر إلى هذه الوجوه الانتيكية.. أتساءل: بينها مَن اشترك في الثورة المضادة؟

- من غير شكّ.. إذا لم يكن مباشرة فبالتحريض.. انظر هذه القفازات البيضاء، المخرمة، في الأيدي، انزعها ترَ دماً على الأصابع.. لو انتصروا لأبادونا.. ليس لديهم رحمة.. وبرغم كل ما يقال في الغرب، ها انت تراهم يعيشون.. إننا أرحم منهم على كل حال..

- ومن أين يعيشون؟..

- من بقايا ممتلكاتهم.. ومن رواتب تقاعدية..

أضاف، في انعطافه مفاجئة:

- اللعنة على هذا الحديث الممل.. كفى ما تكلمنا على هؤلاء الأوغاد.. لديّ اقتراح.. ما رأيك في أمسية صغيرة، يحضرها بعض الأدباء والمثقفين، وطلاّب اللغة العربية، وتُلقى فيها أشعار مترجمة إلى اللغة المجرية، وتلقي أنت، كلمة صغيرة، نترجمها مباشرة؟

- أنا؟ صاح كرم.. لا أعرف كيف أتصرف حيال جمهور لا أعرفه بعد..

- أنت لا تتصرف بشيء.. لن تمثّل على كل حال.. تلقي كلمة.. وتجيب على الأسئلة.. هذا كل شيء.. موافق؟

- لا أدري.. لا تضعني في موقف حرج..

- لا حرج في الأمر.. ستكون مسروراً.. دعني أرتّب كل شيء..

اتفقا.. كان في ذلك كسب للثقافة العربية، وللبلاد العربية، وفيه، بالنسبة لكرم، اتصال بالحياة الاجتماعية والثقافية في المجر.. وحين استشار ضياء في الموضوع شجّعه. قال له أكتب كلمة صغيرة، فيها تحيّة للمجر.. وفيها لمحة عن الأدب العربي الحديث.. استعن بقصيدة ناظم.. إنها موجودة عندي، وسنترجمها، وترى كيف خاطب ناظم أرض المجر..

أقيمت الأمسية على مدرج صغير في كلية الآداب. حضرها جمع من المثقفين والطلاب المجريين. حضرها، كذلك، طلاب عرب، وأفارقة، وآسيويون، ومن أميركا اللاتينية، وحضرها ضياء وحسن، والموسيقي اللبناني نصر جبيل، عازف العود الرائع، الذي كان يواصل دراسة الموسيقى في المجر.

كانت فرحة ضياء كبيرة. لبس أفضل ما لديه. شرب كأساً من الفودكا وأوصى كرم بشرب قدح مماثل. قال: «هذا يفيدك. يشجّعك أكثر. يجعلك طبيعياً.. أنت، يا بنيّ، ستدخل الحياة المجرية من الباب الواسع بعد هذه الأمسية. اقرأ لي ما كتبت.. اقرأه بالعربية أولاً.. أريد أن أسمع إلقاءك.. ثم ترجمه لي.. لا تهمّ البلاغة.. أريد معرفة الأفكار.. ولكن أسمح لي، قبل أن تبدأ، بكأس أخرى من هذه الفودكا اللعينة.. أريد أن أتخلص من سعالي خلال الأمسية..»

قرأ كرم كلمته القصيرة وترجمها. كان ضياء ينصت ويهزّ رأسه،

وعندما ختم كرم الكلمة بفقرات من قصيدة ناظم حكمت تقول: الأرض كالإنسان/ وكالأغاني تماماً/ تضاعف من جمال الحرية/ وتضاعف هذا الجمال أرض المجر أيضاً. «نهض وقبّله..» «كوزال» «كوزال» كان يهتف.. جميل.. جميل.. وتابع كرم: «المرء لا يشبع من إنسانك/ وخيالك/ ونعمتك، وحريتك/ وشاعريتك/ وخمرك/ يا أرض المجر» فصاح ضياء:

- أنت أكربتني.. أحسنت بهذا الاستشهاد.. ناظم عظيم، عظيم يا كرم.. هل في الدنيا أشعر منه؟

قال كرم:

- ناظم كبير يا ضياء، ليس بشعره فقط، بل بنضاله العنيد أيضاً.. إنني أحبه، أحبه بأكثر مما تتصور.. لا بد أن نقيم أمسية كهذه للأدب التركي الحديث أيضاً، وعندئذ تتكلم، وتنشد شعر ناظم بالتركية..

- هذا ما لا أستطيع.. هذا الربو الرهيب..

- حسناً.. يقرأ حسن شعر ناظم..

- يمكن.. يمكن تماماً.. هذا ما يجب.. هذا ما يسمى نضالاً في الغربة.

كانت فقرات الحفلة تتألف من عزف مقطوعة على البيانو، وعزف على العود لنصر جبيل، وقراءة أشعار عربية مترجمة إلى المجرية، وكلمة كرم في الختام، وكانت القاعة مزدحمة، وعلى المنصّة مزهرية ورد، والعلم السوري، والعلم المجري، والبوش، عريف الحفلة، يرتدي بدلة صيفية أنيقة، وربطة عنق على شكل فراشة، وبعد العزف على البيانو، عزف نصر جبيل مقطوعات صغيرة على

العود، وتقدّمت فتاتان مجريتان، تلبسان «تيّورين» رصاصيين وبيد كل منهما مصنّف أبيض، عليه شريطة حمراء، وبداخله القصائد المترجمة، وقد كانتا من معهد التمثيل واختصاصهما الإلقاء.

كانت أول قصيدة للمتنبي.. وكان الالقاء جيلاً.. كان هادئاً، إيحائياً، تعطيه نبرة الصوت وقعاً خاصاً، فقال كرم في نفسه: «يا لأبي الطيب! لو كان يعلم أن فتاة مجرية، على هذا الجمال، وهذه الروعة في الإلقاء، تقدّم شعره مترجماً إلى المجرية، لكان غفر لدهره بعض ما عاناه».

جاء دور كرم.. وقف وألقى كلمته.. صفّق لها الطلاب العرب. صفّق لها ضياء وحسن، وصفّق المجريون عند الترجمة، وجاء دور الأسئلة، فانهالت عليه، وفوجىء بسؤال غير متوقع:

- هل نظمت الشعر يوماً؟

نظر إلى صاحبه السؤال مدهوشاً. كانت هذه بيروشكا.. وكانت تقف رشيقة، مهيبة، بشعرها السبل، ذي الطيّة على صفحة الخد.. وأجاب كرم:

- لم يسبق لي أن نظمت الشعر.. ولكن من يعش في المجر، لا بد له أن ينظمه.. قد أفعل ذلك يوماً.. وسأهديك القصيدة الأولى.. هذا وعد مني..

قالها في دعابة غير خافية، فصفّق الجمهور، وانتهى الحفل، وتقدّم بعضهم لمصافحته، وثمة من عانقه، لكن بيروشكا شبكت ذراعها بذراعه وقالت بالفرنسية:

- الليلة لن أعود إلى كليتي باكراً.. وقد لا أعود أبداً..

وقال كرم:

- لك، يا صغيرتي، ما تشائين.. ولكن حذار.. قد لا أكون لطيفاً كما في المرة السابقة.

وقالت بيروشكا:

- أنا لا أريدك أن تكون لطيفاً.. كن عنيفاً بقدر ما تستطيع.. هذا يطيب لي جداً.

- ٩ -

تحلّق الطلاب العرب، بعد الأمسية، حول كرم، يطرحونه بالأسئلة. كان ما زال واقفاً في القاعة، قرب المدخل، ومعه أليوش، ونصر جميل، وبيروشكا، وبعض المجريين، وكان اليوم جمعة، وقد تقدم منه شاب ربعة، على عينيه نظارتان طبيتان مدخنتان، وله لهجة إحدى مدن الشمال السورية، عرّف نفسه باسم جورج، وقال الطلاب إنه رئيسُ رابطة الطلاب السوريين، وفهم منه أنه كان مسافراً وعاد أمس، وأنه يسكن البناء نفسه، في بنتزور اوتسا، في الطابق الأرضي، وقد فرح منذ علم أن كرم جاء للعمل في بودابست، وأنهما يسكنان بناية واحدة.

ارتاح كرم للتعرّف إلى جورج. وجده هادئاً منطقياً، جديراً بأن يكون رئيساً لرابطة الطلاب، ومنه، أو بواسطته، تعرّف إلى الطلاب الآخرين، وبينهم اثنان أظهرا مودّة حارّة، هما هادي، وبهيج، الأول كان قصيراً، له صلع خفيف مبكر، وفي عينيه نَمَش طبيعي، والثاني طويل، ضامر، بارز الفكين، يغلب عليه المرح، وفهم من جورج أنهما صديقان، وقريبان منه جداً.

قال هادي، وكان يدرس مهندساً، وله طاقة على تقديم المعونة للآخرين، ويرغب، دون أن يسأله أحد، أن يتعهدّ من يراه، وأن

يقدّم له المعرفة والنصح، باعتباره طالباً قديماً في المجر، ويبدو على علاقة وثيقة بجورج، وبنصر جميل، الموسيقار وعازف العود، ويعرف أليوش معرفة تامة. قال:

- أقترح، ما دمنا قد التقينا، أن تنظّم حفلة صغيرة، على شرف كاتبنا وصديقنا كرم.

لاحظ كرم أن كل طالب عربي له صديقة تقريباً. وأنه أحضر هذه الصديقة إلى الأمسية. وكان الكلام الذي يقال بالعربية، يترجم فوراً لهؤلاء الصديقات، وقد أظهرن حماسة واضحة لفكرة السهرة، ولم تتخلف عن ذلك بيروشكا، ودون أن يَدَعوا مجالاً للمناقشة، طُرحت فكرة الحفلة كأنها من المسلّمات، وقُبلت بالإجماع، ولم يبق إلا تحديد الزمان والمكان.

بهيج اقترح أن تكون الحفلة في مطعم. عارض هادي. قال:

- نريدها حفلة عربية. حفلة سورية، نسمع فيها العود والغناء العربي..

قال جورج:

- على أن تكون ضيّقة.. تتوفر فيها الحميمية..

قال بهيج:

- غداً السبت.. إنه وقتها تماماً..

قال كرم المشتاق إلى جلسة من هذا النوع، بعد طول غياب عن الوطن، وبعد أن حُرم من أمثالها في الصين:

- أنا موافق.. وسأكون سعيداً بسماع عزف موسيقارنا نصر..

دمدم هذا شاكراً، مبتسماً عن فرق بين أسنانه، من وراء شفتين

مثلثين، ونظارات سوداء.. لكنه اشترط، أن يكون العدد قليلاً، وأن يحسن الحاضرون الإصغاء..

وافق الجميع. يبدو أن هذا الشرط كان معروفاً لديهم. وكانوا شديدي الحماس، وعلى استعداد للاستجابة التامّة.

عندئذ اقترح هادي:

- لتكن الحفلة في بيت صديقنا جورج:

لكن كرم قال:

- يسرّني ذلك.. لكن ما رأيكم، ما دمت وحيداً، وما دام بيتي جاهزاً، ان تكون عندي.. تفتتح الحفلة للتعارف.

هادي حسم الموقف فوراً:

- اتفقنا.. غداً، في الثامنة، نبدأ.. اتركوا تنظيم الحفلة لي.. وكذلك عدد الذين يحضرونها، وأسماءهم.. انتفعوا من خبرتي في هذه الأمور.

لم يعارض أحد. كان بهيج يبدو تابعاً لهادي، ومؤيداً لكل اقتراح يصدر عنه، وقال جورج إنه يكون مسروراً بالمشاركة، ويعتبر ذلك واجباً، ما دام قد تأخّر في زيارة الأستاذ كرم للسلام عليه.. هذه فرصة.. حفلة تدشين ومباركة. غير أنه اشترط: لا أحد يأتي بأكثر من صديقته.. لا نريد اختلالاً في التوازن. ولم يفهم كرم هذا التحذير، لكن هادي قال:

- لا بد من صديقة للاستاذ كرم:

قال كرم:

- شكراً.. الصديقة لا تأتي بتوصية..

لكن اليوش قال:

- ولكن الأستاذ كرم له صديقة.. ألا ترونها إلى جانبه؟

قالها وتكلم مع بيروشكا بالمجرية. سألها:

- تعرفين كرم ؟

قالت بيروشكا باسمة:

- نعم.. نحن صديقان منذ وصول كرم إلى بودابست..

وقال بهيج:

- المسألة محلولة إذن.

تفرّقوا بعد ذلك. بقي كرم وبيروشكا وأليوش، كانوا سعداء لنجاح الأمسية. اعتبر اليوش هذا النجاح يخصّه شخصياً، كرم كان مسروراً بكل شيء. عانقه ضياء وحسن عقب الأمسية. وقال حسن:

- لا بأس.. أمة العرب بخير.. ولكن لاتنس، أيها الملعون، تأثير أمة الفرس.. هذه الأدبيات.. وقال ضياء مقاطعاً:

- محكم.. كلام كرم كان جيداً، وكان جيداً استشهاده بناظم.. محكم.. برافو كرم..

وقال كرم في نفسه: «يا للطيبة! ضياء بمثابة أب.. كل ما أفعله حسن و «محكم» بالنسبة إليه.. أيعقل أن يحبّني بهذا المقدار؟ هذه هي العاطفة الشمولية.. عاطفة حب الطيّبين، من أي بلد، وأي جنس كانوا». وفي تحية مقابلة قال لهما:

- غداً مساء.. لا تتأخّرا..

وقال ضياء:

- سآتي.. ولكنني سأكون وحيداً.. أنا لا صديقة لي.. سأكتفي بالسماع.. نصر سيعزف شيئاً من الموسيقى التركية.. الموسيقى التركية أصل الموسيقى العربية.. إنها الموسيقى الشرقية الأصلية..

وقال حسن:

- اللعنة، يا ضياء، على أمة الأتراك.. الفرس..

وقاطعه كرم:

- سنسمع موسيقى فارسية أيضاً.. كما تريد يا حسن.. يا صديقي الطيّب ولعلّها أن تكون موسيقى تبريزية..

هل أنت مسرور؟

قال ضياء:

- بحكم..

وانصرف..

تناول الثلاثة: كرم وبيروشكا واليوش العشاء في مطعم برلين، كان الدبّ كبيراً وجيلاً وملوناً على باب المطعم. وكان الجوّ رائقاً، الفرقة الموسيقية رائعة، والطعام فاخراً، وكذلك النبيذ، ورقصت بيروشكا مع اليوش أولاً، ثم مع كرم.. بدت أليفة، ودودة، كأنها تعرف كرم منذ أعوام، وكأنه يخصّها وحدها، وكأن كلمة الحب، التي لم يتلفظ بها أيٌ منهما، كانت مُقالة، بينهما، ومتبادلة، منذ أجيال. لكن كرم كان يبتسم.. يريد أن يعتبر بيروشكا طفلته المدللة، المدللة لا أكثر، وكان، في ذاته، ينفصل عنها مسافة ما بينهما من تفاوت في العمر، ويشك، في أعماقه، بأنه قادر على مبادلتها عاطفة صادقة، عميقة، كأن شعوراً مبهماً، ثابتاً، ما زال يهتف به من الداخل: لحظة حبك الكبير، الجنون، لم تحِنْ بعد..

بعد العشاء استأذن أليوش وانصرف.. وعد بالحضور في الليلة المقبلة.. شدّ على يدي كرم بقوة.

قال له:

- أنت صديقي.. بل أكثر.. نحن، كما يقال، تجمعنا فكرة واحدة، وفوقها حب اللغة العربية.. أنا لا أستطيع أن أتصوّر كم في الشعر العربي من موسيقى وكم في السجع القرآني من سحر.. يسعدني وجودك في المجر.. وسنكون أصدقاء دائماً، وسأعطيك دروساً في المجرية.. لا تهتمّ من هذه الناحية.. مفتاح اللغة امرأة.. بيروشكا ستعلمك المجرية بسرعة.. لن يمضي شهر إلا وتصبح قادراً على التفاهم بلغتنا..

قال كرم ضاحكاً:

- لا تتفاءل كثيراً من هذه الناحية.. خمس سنوات في الصين، ولم أحفظ سوى اسمي الماء والخبز.. في موضوع اللغات أنا غبي.. غبيّ أكثر مما تتصور..

قال اليوش:

- كان لك، في بكين، صديقة صينية؟

- لا.. مثل هذه الصداقة، هناك، غير ممكنة.

- إذن هذا هو السبب في أنك لم تحفظ في الصينية سوى كلمتين كما تقول.. المرأة يا صديقي.. هي المعلّم الأول والأخير، صدقني..

وقال لبيروشكا بالمجرية:

- لا تتكلّمي مع كرم بالفرنسية.. عليه أن يتكلم المجرية.. ساعديه في ذلك.. كوني مجرية متعصّبة في هذا المجال..

على امتداد شارع لينين، وبعده صعوداً إلى الشمال في شارع الجمهورية، سار كرم وبيروشكا واليد باليد. كان يفكر: «هل يعقل هذا.. أنافي الأربعين، وهي في العشرين أو أقل.. ماذا يقول الناس؟ يبدو أن السماء تكافئني.. بعد حرمان الأيام في الصين،

تفتح الجنّة لي أبوابها في بودابست.. تفتحها واسعة.. على مصراعيها.. تجدّد شبابي بشكل لعين.. هذا ما يسمّونه حياة.. يخيّل إليّ أنني أولد من جديد».

بلغا البيت في الساعة الحادية عشرة. رفضت بيروشكا، وبإصرار، أن تعود إلى كلّيتها، قالت له: «إذا كنت ترفض، ينام كلّ منّا في غرفة.. لن أفرض نفسي عليك ولن أضايقك». وقال كرم: «ليس هذا يا بيروشكا.. لا تفهميني خطأً.. إنما أنت طالبة.. لا تكوني مجنونة.. أنا أخاف على مستقبلك.. أخاف على وضعك وأنت تسكنين الجامعة.. ماذا يقول المسؤول إذا تغيّبتِ ليلاً؟» أجابت: «ليقل ما يريد.. لست مهتمة.. ثم إنني أتغيّب أحياناً.. النظام الجامعي، هنا، ليس صارماً إلى الحدّ الذي تتصوّر.. نحن لا نؤدي خدمتنا العسكرية.. الانضباط الذي تتصوّره غير مطلوب عندنا.. لدينا الحرية اللازمة.»

جلسا في الغرفة الداخلية، أضاء نوراً خافتاً ملوّناً، أشعل شمعة، فتح زجاجة ويسكي.. أزاح الستارة عن النافذة المطلّة على الحديقة. انطلقت موسيقى ناعمة، حالمة من المسجّلة.. وقال لبيروشكا:

- لك عندي هدية..

- أترى ذلك ضرورياً؟ أنت تنفق كثيراً يا كرم..

- في سبيل عزيزتي الصغيرة كل شيء يهون.. ثم هذه عادتي.. عندما أفلس ابيع بعض الأشياء من هذا المتحف.. أنا لست معنياً بالثراء، ولن أكون ثرياً.. ما أريده هو أن أصبح كاتباً جيّداً، كاتباً معترفاً به..

- لقد كنت رائعاً اليوم.

- ليس تماماً.. أعرف نفسي.. قد تكون الترجمة المجرية هي الرائعة.. أنا كاتب لم يصل بعد..

- ستصل.. كن واثقاً من نفسك..

- أنا واثق من نفسي.. أعرف انني سأصل، ولكن ليس قبل أن أعود إلى وطني.

نهضَ وأحضر صندوقين صينيّين مليئين بالحلي والجوهرات.. انتقى خاتماً جميلاً يقال له «عين النمر» وقدّمه لها.. قال لها: «عندي ثياب صينية أيضاً.. عندي مجموعة كبيرة من اللوحات.. ما هو معروض هنا ليس إلا بعض ما أملك من تحف.. لقد جمعتها خلال خمس سنوات.. أنفقت عليها كلّ دخلي.. وأنا سعيد بذلك.

طلبتْ أن يُريها الثياب النسائية الصينية. ارتدت ثوباً عليه رسوم جميلة. ألبسها فوقه معطفاً حريرياً مشغولاً باليد، مطرزاً بألوان زاهية، تمثّل أساطير صينية. أتاها بمظلة صينيّة صيفيّة من الحرير وعليها رسوم. سمح لها أن تتزيّن بما تشاء من قلائد وأساور وأقراط وخواتم.. وحين فعلت ذلك، قال لها:

- أنت الآن أميرتي.. أنت أميرة صينيّة.. تعالي إلى المرآة.. أمسكي المظلّة على هذا النحو..

عندما رأت نفسها في المرآة الجدارية الطويلة، هتفت من أعماقها:

- يا يسوع! لكم هو رائع هذا كله.. أرجوك.. أرجوك يا كرم.. دعني قليلاً بهذا اللباس، وهذه الجوهرات، دعني أتصوّر نفسي امرأة من ألف ليلة وليلة.. أميرة شرقية كما في الحكايات..

- ابقي هكذا ما شئت.. ولولا أن هذه من أشياء المتحف، لوهبتك إياها كلها، أو بعضها على الأقل..

عندئذ، وبحركة مسرحية، وكما تفعل امرأة الحكايات الشرقية حاولت أن تركع، كأنها تقمصت شخصية نسائية تاريخيّة من الشرق وقالت له:

- ماذا تريد مني؟
- لا شيء..
- أنت لن تعتبرني جارية كما في ألف ليلة وليلة، أليس كذلك؟
- أنت أميرة..
- وأنت؟
- أنا كرم فقط..
- أنت شهريار..
- لكنني لن أقتلك في الصباح.. أنت شهرزاد بغير حكايات.. يكفي أن تكوني صديقتي..
- فقط؟
- في الوقت الحاضر نعم.. أنت لا تريدينني كاذباً.

تعمّدت إخفاء حقيقتك في البدء. لم تتحدّث عن بيتك هذا الرائع، ولا عن هذه الأشياء الثمينة التي لديك.. أردت أن تصنع مفاجأة، ونجحت.. اعترفْ أنّك نجحت.. ثم كنت كريماً، وكنت مرغوباً، وكنت تدرك هذه الحقيقة، منذ الليلة الأولى التي دخلت فيها بيتك، عيناي، يداي، شعري، وجهي، جسمي كلّه انطوى على رغبة إليك، وعرفتَ ذلك، وتجاهلته، وحملتني، بطريقة مهذبة ولكن حازمة، أن أعود تلك الليلة التي كلّيتي، فأطعتك وعدت..

جعلتني أزداد رغبة فيك، وأزداد جهلاً بك.. تعمدت أن تكون غامضاً، غريباً، وأن تلعب في لعبة ذكية، ولكنها، اسمح لي، غير شريفة، لأنها تهدف إلى إهانتي.. إنني، بعد كل شيء، لست مومساً.. أنا طالبة. طالبة أدب، وأنت أديب.. وكان اللقاء بيننا طبيعياً، لكنك بتغليف نفسك بالغموض، أردت أن تتظاهر بأنك لست أديباً، أو لا تبالي بأن تعرف كذلك.. هل هذا تواضع؟ أشكّ.. إنه غرور.. لكنه ملعوب بذكاء.. واليوم، في الجامعة، سمعت بالأمسية. وقيل إن أديباً عربياً سيتكلم فيها.. ولم أعرف من هو، لكن إحساساً مبهماً دفعني إلى حضورها، ولم أكن مخطئة.. لقد تعمّدتَ، بعد تلك الليلة، ألاّ تأتي إلى الكلية وتسأل عني، مع أنني أعطيتك عنواني.. انتظرت أياماً، كنت أريد، ككل فتاة، ككل امرأة، أن تأتي أنت.. لكنك، في لعبة الاعتداد، أردت أن آتي أنا.. وها قد أتيت.. حضرت أمسيتك.. كنت سعيدة. كنت فرحة كطفلة. اندفعت وهنأتك، وقفت إلى جانبك، فرضت نفسي عليك، طلبت منك أن آتي إلى بيتك.. قبلتُ دعوتك إلى العشاء، وبعدها جئنا إلى هنا، وها نحن نشرب، وها أنت تصنع لي مفاجآت جديدة، بعرض هذه الثياب، وهذه الحلي، وهذه التحف علي، وبعدها تغمرني بلطف نادر، بعزّة كبيرة، جعلتني، من فرط الحب والسعادة، أركع وأنت تجلس على كرسيك، في حركة أردت منها إظهار عاطفتي أكثر من إبداء خضوعي.. فماذا تريد بعد..؟ ألم تشبع زهواً ونرجسية؟ تقول لي: «يا أميرتي!» وتعاملني كجارية.. هل هذا سلوك لائق؟ ألا تراه سلوكاً يليق برجل شرقيّ، واعذرني على الكلمة، رجل قادر على الزواج من عدة نساء، وقادر، إذا كان يريد تقليد التجّار الذين حدّثتنا عنهم ألف ليلة وليلة، أن يشتري ما

شاء من الجواري.. لكن اسمع.. أنا لن أكون جارية، ولا زوجة رابعة، ولا فتاة تبيع نفسها.. إنني أرفض.. خُذ (وبدأت تخلع الحلي وتلقيها أرضاً) خُذ هذه الأشياء.. ألبِسْها لسواي، أغرِ بها من شئت.. لكنني أنا، بيروشكا، ألقي كل هذه المغريات على الأرض، وسأذهب ولا أعود..

– أنا أريدك صادقاً دائماً..

– إذن صدِّقني أنني لا أريد منك شيئاً.. أرجوك، اسمحي لي أن أشرح نفسي: لست زاهداً فيك.. لو كنت امرأة أخرى، أيَّ امرأة، كنت أريد منك ما يريده الرجل من المرأة، ولكن أنت.. انظري.. لن أخدعك.. أنا أعزّك، أعزّك معزّة كبيرة، من أجل ذلك أصونك.. أدفع أذاي عنك، ولعلّك أن تقولي: ما سبب هذا الموقف؟ يعزّني ولا يحبّني، يعزّني ولا يريدني.. كيف يكون هذا؟ أجيبك: لأنني أعزّك أحترمك.. لا أريد أن يكون في موقفي استغلال لتعلّقك بي، على فرض أنه كذلك.. افهميني.. لست نذلاً ولا أريد أن أكونه..

– وهل هناك نذالة في أن تحبّني؟

– هناك نذالة في أن أخدعك.. أنا أعزّك ولا أحبُّك.. ثمة فرق، مهما يكن بسيطاً، فهو قائم بيننا.

– ولكنك تتصرف وكأنك تحبّني..

وقف ومضى إلى النافذة.. هل يحقّ له أن يصدم عاطفة هذه الفتاة؟ يتصرّف معها وكأنه يحبّها.. هذا حقيقي، التصرّف بلباقة، بودّ، بمعزّة، هو تصرّف فيه لون من الحب، لكنه لون لا أكثر.. أما الحب، الكامل بكل قوته، كل عنفه، كل اندفاعته، خارج

دائرة القرار، خارج برودة العقل، هو الحب الحقيقي، ومثل هذا الحب غير موجود، ولا يستطيعه.. ولم يستطعه يوماً حتى الآن.. إن ثمة شيئاً شاذاً في هذا، لكنه الواقع.. إنه لا يحبها ذلك الحبَّ الذي يملك عليه نفسه، والدليل على ذلك أنها تستطيع أن تغادره، ولن يجد دافعاً لأن يركع أمامها، لأن يبكي على صدرها، لأن يقول لها لا تغادريني.. وتستطيع أن تفارقه نهائياً، ولن يشعر بأنه سيموت، أو يجنّ، إنْ هي فعلت ذلك.. سلوكه، نحوها، ما زال يحكمه العقل.. وتلك هي المشكلة.

يا بيروشكا! قال لها، بودّي أن أحبّك. أن أبادلك مشاعر أكثر عمقاً وحرارة، لكنني عاجز.. ثم هناك شيء لعله السبب.. وأنت تفهمين.. لنشرب كأسينا.. يا أميرتي التي خرجت إليَّ من كتاب ألف ليلة وليلة هذا المساء..

شربت بشهيّة كبيرة. كانت قد وقفت وراحت تدور في الغرفة، بدا الاستياء عليها. استشعرت إهانة بالغة، تعرض قلبها فيرفض. تعرض جسدها فيأبى، أيّ رجل هذا! وما هو السبب الذي يحول بينه وبين أن يحبّها وأن يضاجعها.. قالت:

– أنا لا أفهمك يا كرم.. منذ لحظة لقائنا تتعمّد أن تكون لغزاً.. هل هذه طريقة في القنص تجيدها؟ أصغى إليها دونما مقاطعة. وظلّ صامتاً يفكر، وهي ترتدي ثيابها استعداداً للذهاب.. وحين قالت له:

– أنا ذاهبة..

لم يتحرّك في مقعده. لم ينهض لوداعها. ظلّ جالساً. قذفها بعبارة واحدة:

- أغلقي الباب وراءك عندما تخرجين..

عندئذ استدارت إليه. تقدّمت. وقفت قبالته. حدّقت فيه بغضب، بنقمة، قالت:

- أنت لست حجراً.. لا تحاول أن تظهر أنك لا تحسّ، لا تبالي، لا تتأثر بكل ما فعلت.. قلت لي إنك لا تريد أن تكون نذلاً، ولكن هذا التصرُّف له اسم واحد: نذالة.

وقف، كان يرتعش لفرط تأثره. كان يشعر أنه غير مفهوم، وأنه مظلوم لذلك، وأنه لن يستطيع، بأية لغة تكلم، بأيّ شعور تبدّى، أن يجعل أسبابه مفهومة ومقبولة منها، ومن حقها، لأنه كذلك، أن تتّهمه بالغموض، وبالاستدراج، وبمحاولة إبهارها، وبتجريب لعبة ذكاء حقيرة معها.. وفي اللحظة التي همّت فيها بالخروج، اعترضها، سدّ الطريق عليها، قدّم لها خده وقال:

- اصفعيني.. أستحق.. افعلي هذا.. أرجوك ان تفعليه، إذا كان ينفّس عنك، ويجعلك أكثر هدوءاً وأشد قدرة على الإصغاء لما سوف أقول.

- وماذا لديك لتقوله بعد؟

- كلمات بسيطة..

- لتخدعني أكثر، أو لتهينني أكثر..

- لا هذا ولا ذاك.. بيروشكا يا صغيرتي.. هل هدأت ثورتك؟.. أمامك هذا البيت. حطّمي كل ما فيه.. كلّه يهون، إذا كان من شأنه أن يعيدك إلى السكينة ولو قليلاً.. هاتي هذه الحقيبة.. اجلسي.. أرجوك، لنأخذ كأساً أخرى ولنتحدّث.. سأقول لك كلمات قليلة.. وبعدها تصرّفي كما يحلو لك.. ناولته

حقيبة اليد. هدأت قليلاً. كانت، في ذاتها، على استعداد للهدوء، للرضوخ، كانت، في هذه اللحظة، ضعيفة جداً، برغم السعار الذي تفشّى على وجهها.. أرادت أن تكون قوية، لكنها تكشّفت عن ضعف ناتج عن حب وعن شيء آخر اسمه براءة، طفولة، عدم تجربة كافية في التعامل مع الرجال..

تناولت الكأس وحاولت إفراغها كلها في جوفها، أمسك يدها «لا تفعلي! قال، ستسكرين، لا أريدك سكرى، ما زال لدينا كلام يقال، ولم ينته ما بيننا.. فقط اسمعيني، وصدقيني كما وعدتِ.»

شرب كأسه هو الآخر وقال:

- أفضّل أن أخسرك على أن أخدعك أو أكذب عليك.. أنا لا استطيع أن أحبّك لسببين: أوّلهما، وهو الأهم، أنني عاجز عن الحبّ.. عاجز عن الحبّ الذي هو معجزة، أو كبير مثلها.. الحب الذي يجعلني أسيراً، مجنوناً، وقادراً على التصرّف بطيش كامل.. وثانيهما هو فارق العمر بيننا.. انظري.. أنت مثل ابنتي.. مثل ابنتي لو كنت متزوّجاً، وبعد هذا، تريدينني أن أدفن شعوراً يعذّبني، هو شعور من يدرك أن التكافؤ، من هذه الناحية، معدوم بيننا.. هل هذا واضح؟ ولكن لنشرب جرعة أخرى أولاً..

قالت بيروشكا وقد انفجرت في بكاء مفاجئ:

- أفهمك ولكنني لا أصدقك.. لا أريد أن أصدقك.. أنت تحبّني كما أحبك.. لكنك تتعزّز.. ثم ما مسألة العمر هذه؟ انسَها.. أنا أحبك.. أحبك لأنك تكبرني كما تقول.. متى كان فارق العمر حائلاً بين قلبين..؟ وعلى فرض أنك لا تحبّني، وأنك تعزّني فقط.. أنا أوافق على هذه المعزّة ما دامت صادقة..

- في هذه الحال أنا لك بكل ما تطلبين..

- قبّلني إذن..

قبّلها في خدها .. امتصّ ، بشفتين حارّتين دمعاً كان على وجنتها. لكنها صاحت:

- قبّلني في فمي..

وفعل.. ضمّها الى صدره.. وقال لها لا تبكي.. لا تبكي يا عزيزتي الصغيرة الرائعة..

قالت:

- ولن تتقدّم إليّ بوصية أبوية لعينة كما فعلت في المرة السابقة؟

- لن أفعل..

- وسننام معاً؟

- من غير شك..

- وستكون لطيفاً..

قال وهو يتذكر البارمان فرانتس:

- لن أكون غجرياً ملعوناً على كل حال..

- ١٠ -

في الصباح ذهب كرم إلى الجامعة فألقى درسه في الحصّتين المقرّرتين، كان طلابه، اليوم، أكثر انجذاباً إليه. حاولوا أن يتحدّثوا عن الأمسية الأدبية، طلب أحدهم أن تكون كلمة كرم في الأمسية مادّتهم الدراسية لهذا اليوم. أغروه بالخروج عن الدرس المقرّر للكلام على الأدب، من خلال ما سمعوه منه أمس. رفض ذلك بحزم. يعرف شيطنة الطلاب ورغبتهم في أن يلعبوا مع مدرسهم لعبة قدَح، يجرّونه بها إلى الكلام على حياته الخاصة، على شعره أو قصته أو لوحته، إذا كان شاعراً أو قاصاً، أو رساماً. أوقف اللعبة بغير ردع يسيء إلى عواطف هؤلاء الشباب، ولكن بغير تساهل في ما يتعلق بالدرس المقرر. كانت تلك عادته، فهو في الجامعة مربٍّ، وهو أمام برنامج عليه أن يتقيّد به وينجزه، ثم إن الوقت المخصّص للغة العربية قصير، لا يتجاوز عشر ساعات في الأسبوع كله.

غادر الجامعة في الحادية عشرة والربع. لم تكن لديه سيارة، كان يحب السير، ولا حاجة لتبديل وسائط النقل، مشى حتى محطة المترو، ومن هناك، في آخر شارع الجمهورية تقريباً، ركب متجهاً إلى بيته، يتنازعه شعوران: رغبة في الراحة، في النوم بعد السهر الطويل، ورغبة في أن يصغي إلى شيء من الموسيقى الهادئة وأن

يستعرض، كعادته، وقائع الأمس، ويرتب أشياءه النفسية، المختلطة في ذاته، برغم أنه لم يرتكب حماقة تجعله يندم على أيّما تصرف. الشيء الوحيد كان خوفه أن يخدع نفسه. وكان هذا الخداع واقعاً. كان يعرف أنه دون متحفه لا شيء، وأنه، في المضمر، كان يريد بيروشكا جسدياً، وأنه توسل إلى ذلك بنوع من دهاء، تحت ستار طيبة مفرطة. وبرغم أن كلمته استقبلت بترحيب وحماسة من قبل الحاضرين، إلا أنها، في الحقيقة، كانت جافّة بعض الشيء، وتفتقر إلى شواهد، وتوثيق، ومرونة، كانت غير مستوفية، بل سيئة، ولو ألقاها في دمشق لكشفت عن ضحالة ثقافته، عن جهله بالمعطيات المستجدة في عالم الأدب، خاصة الحديث منه، عن فقر النسغ البيئي فيها، وعن الضرورة إلى الإطلاع، ومعايشة البيئة، والعيش في أجواء الوطن، أجواء ناسه، التي وحدها تشكل مقومات أدب حقيقي، أدب يليق بطموح كاتب يحمل قضية.

هذه الخواطر التي ألمّت به وهو يكتب، ثم وهو يلقي ما كتب في الأمسية، لازمته بعد العودة إلى البيت أيضاً، وإذا كان، بفعل الويسكي، وتأثير بيروشكا، قد نجح في أن ينحيها جانباً، يختزنها في اللاشعور، فإنه لم ينسها، وها قد استدعاها اليوم، في محاسبة مع النفس، ومصارحة داخلية كاشفة يتطلبها كي يظل في الطريق السوي، ولا ينحدر إلى مغريات الغربة وأخلاقياتها. كان، فيما يتعلق بواجبه حيال الوطن، صارماً، أو مياسراً أن يكون كذلك. هذا الواجب. في المنفى المفروض، يتحدّد بالقدرة على العمل، ضمن الحيّز المتاح، والجنس الأدبي الذي يزاوله، وهو كتابة الرواية، صحيح أنه ليس فوضوياً، ولا بوهيمياً، ولا متبلّد الإحساس، لكنه قد يتصرّف، بدفع من خلقه كفنان، تصرّفاً فيه بعض الخروج على

المألوف. كان هذا من حقه. لم يكن يشعر بأيّما تبكيت للضمير من جرّائه. لا بد له من صوت متميّز في الفن، وهذا ينمي الروح الفردية، روح اللهو والسهر والاستمتاع، لكنه ضد الإغراق في ذلك. هذا ما فعله في أوروبا، وفي الصين، وسيفعله في المجر. الحب. السهر، الرقص، اللهو، لكن مع هذا كله، أو قبله كله، العمل، ليس العمل الوظيفي، مصدر الرزق، بل عمل الإبداع، أن ينجز روايته، التي هي في الأصل، جزء من واقعه، باعتبارها تتحدّث عن كاتب يعاني عذاب الغربة. وقد لاحظ، في الأمسية، أن عزف نصر جميل، كان رائعاً، لكنه لا يتناسب مع دراسته الموسيقى في المجر، لم يكن قد وضع أية قطعة موسيقية، فيها النكهة الشرقية، فيها صورة الوطن، ونبض الحياة الشعبية، فما سبب هذا؟

أطل من النافذة، كان أدامو الإيطالي في الحديقة. كانت هناك أيضاً المظلّة، وسرير الطفلة.. راقبه قليلاً، كان ادامو يقرأ، ينهض بتكاسل، يغيّر مكان المظلّة، ومكان الطفلة. أما نلسون الذي يقرأ الماركسية، ويبحث في تطبيقاتها النظيفة، فهو يتفيأ ظلال شجرة وارفة، ويكتب، من حين لآخر، بعض الملاحظات، لإعداد كتابه المنتظر عن النقاء، والاستقلالية، والخصائص الأوروبية ،وعن عدم مقابلة العنف بالعنف، وأشياء أخرى، من بينها القضية المجرية، وكيف لم تفهم استقلالية أمري ناجي، وعن الخطأ في التدخل، من قبل دولة أخرى، مؤكداً أن الثورة المضادة، ومقاومتها، شأنان داخليان تماماً.

قال كرم في نفسه وهو يراقبهما: «هذه تنبلة الذين لم يعد لديهم، في قضية النضال، ما يعملونه. العناية بالطفولة جيّد. الطفولة جميلة، وهنا يوفّرون لها كلّ متطلّبات الحضانة، والنموّ، والتنشئة

الجيدة، لكن الآباء، في هذه البلاد، يعملون في المناجم والمصانع والحقول لتوفير عيشة الامتياز لهذا الإيطالي الذي مظلّته الملونة، هي حدود دنياه المرفّهة.. ولن يتأتى لنلسون، أن يفهم أن المناضلين الأوائل، كانوا يقرأون الماركسية في المغائر، على أضواء الشموع، ويرتدون الأكفان، لأنهم يعتبرون أنفسهم شهداء أحياء.. إن الذين يموتون، على أعواد المشانق، والذين يذوون في السجون، بسبب طموحاتهم إلى العدالة، وهذه المناضلة المجرية التي ألقاها جماعة أمري ناجي، من الطابق السادس، هؤلاء جميعاً لا يدخلون في حساب ماركسيته النظيفة».

بعد الظهر ذهب كرم إلى صديقه فرانتس.. ومذ رآه هذا صاح:

- ها.. أيها الصديق.. كيف الحال؟ كيف الصديقات.. هل كنت غجرياً معهن؟..

- إلى حدّ ما.. المرأة، يا فرانتس.. في كل مكان، تحبّ بعض العنف.. أنا لم أكن عنيفاً، لم أكن غجرياً. عملت بنصيحتك، لكنني لم أكن لطيفاً جداً..

صاح فرانتس وهو يعدّ قدحاً لكرم:

- إلى البالوعة بكل اللطف.. أنا لا أحب اللطفاء جداً.. هؤلاء يشكرونك جداً.. يعطونك لطفاً بدل البخشيش.. أولاد عاهرة لا أكثر.

- هذه نصيحة مفيدة يا صديقي.. لن أحب اللطفاء جداً بعد اليوم، لكن لديّ كمية منهم هذا المساء.. سأقيم سهرة في بيتي..

- أنت..؟ وبهذه السرعة..؟ جيّد، ومن سيحضر حفلتك؟

- بعض الأصدقاء من الطلاب العرب، ومعهم صديقاتهم، وموسيقار عربي، يدرس في المجر.. سيعزف لنا أشياء شرقية..

- وددت لو كنت موجوداً.. لكن عملي، في الأصل، ليلاً.. وبالمناسبة.. تذكر تلك الفتاة التي لعبت بك لعبة صغيرة السبت الماضي؟.. رأيتها أمس.. قالت إنها ستزورك مع خطيبها..

- ما اسمها..؟ لقد نسيته..

- روزا.. يناديها روزيكا للتحبّب.. لماذا لا تدعوها؟ لديّ رقم هاتفها..

- لا أستطيع الليلة.. ربما في المستقبل.. في سهرة مقبلة.

- هل تنوي أن تُكثر من السهرات في بيتك.. في هذه الحال تنافسنا.. تأخذ زبائننا..

- اطمئن.. لن أتعامل مع زبائنك أو غيرهم..

- قال فيرانتس:

- يا صديقي الطيّب، فهمتك منذ اللقاء الأول.. أنت تريد..

قاطعه:

- لا أريد شيئاً، جئتك لأمر آخر..

- ما هو؟

- ساعدني في معرفة الأشياء التي تتطلبها الحفلة.. أرجوك..

- اسمع.. سأرسل معك أحد الفتيان إلى هذا المخزن القريب.. إنه «سوبر ماركت».. تستطيع أن تنتقي ما تريد.. أنت لن تقدّم لضيوفك الويسكي والجنّ والستزانو.. أليس كذلك؟ هذه أشياء غالية.. للسهرات الخاصة.. مع صديقة مثلاً.. في سهرة الليلة خذ صندوقاً من البيرة، بعض زجاجات النبيذ، بعض الكونياك.. ثم

اللحوم الباردة.. سأكتب هذه الأشياء في ورقة، وسيعاونك الفتى في شرائها، وفي إيصالها بسيارة إلى البيت..

«يا صديقي الطيّب، قال له، هذه خدمة تستحق عليها ترقية. أنا لن أكون لطيفاً معك، أنت لا تحب اللطفاء، ولن أكون غجرياً، غير أن ليلة ستأتي، ليلة رائعة نسهر معاً، في بيتي، ونعربد إلى الصباح. أنت رجل أريحي. لكن هذه الكلمة تدخل في باب اللطف، أليس كذلك؟.. قال فرانتس: يكفي ما سمعت من لطفك.. سهرة طيبة، جرّب ألاّ تشرب كثيراً، ستكون، آخر الليل، بحاجة إلى وعيك.. وإلى قواك.. أنت تفهم، إلى اللقاء».

المرأة البوابة، في بيته، كانت تكره اللطف أيضاً. كان كرم يترجم لطفه إلى هدايا، من أجل ذلك استأثر، دون الساكنين، بودّها.. إنها تعرف، بحكم عملها، أن تترجم خبرتها إلى خدمات، أن تبادل لطفاً عملياً بلطف عملي.. وقد قام زوجها، المشرف معها على البناء، بنقل طاولتين، ودزينة من الكراسي، وأخرى من الصحون والأدوات إلى شقة كرم، هذه الأشياء، التي تُزوّد بها الشقق، لكون البناء مفروشاً، وأشبه بفندق، قالت لكرم: «أنت وحيد، إذن يحق لك قدح وصحن وملعقة وشوكة.. الأدوات على عدد أفراد العائلة.. لكنك، أنت، تستطيع أن تطلب ما تريد.. أقمْ ما تشاء من السهرات، لكن دون أن تقلق راحة جيرانك، انتبه، لا أريد شكاوى إلى الادارة.»

وقال حسن، عندما جاء مبكراً في المساء:

– أيها الملعون.. من أين لك هذه الأشياء كلها؟ أنت لا تنام مع البوابة العجوز.. أليس كذلك؟

– ولماذا لا أنام؟ الفقير يأكل «خبزاً يابساً».

– أنت تأكل خبزاً «طازجاً».. أعرف كل شيء.. أمة العرب في حال طيبة..

وقالت بيروشكا حين دخلت البيت:

– بوزيش ماريو.. (يا يسوع ابن مريم) كيف دبّرت كل هذا؟ كم أضعت من النقود، يا حبيبي المجنون..

أما ضياء التركي فقد قال، بعد أن عاين الترتيبات:

– محكم!

ولم يزد على ذلك لكنه، بعد قليل، وإثر نوبة من السعال، طلب قدحاً مسبقاً من الفودكا، فقال حسن:

– وأمة الفرس، تريد قدحاً أيضاً.. أنت،، أيها الملعون، تفضّل الويسكي.. أنت ولد شيطان..

بعد ذلك تعاون بهيج وبيروشكا على صنع بعض التوابل والمقبلات. كان بهيج يضحك لخراقة بيروشكا في مساعدته ويقول لكرم بالعربية:

– إذا لم تتعلّم بيروشكا هذه صنع بعض الأشياء، فستكون أول من ألقيه من النافذة.. ماذا تفيدك هذه الآنسة التي تكتب الشعر كما تقول؟ ينقصنا شعراء في بلادنا؟

انتهره هادي:

– أنت تعمل وتسكت.. بيروشكا قطعة من المتحف..

وقال بهيج وهو يضحك مكشراً عن أسنان طويلة..

– وقطعة من السرير أيضاً..

فقال كرم جاداً:

- أرجوكم، ولا كلمة سيئة بحق بيروشكا.. هذه صديقتي..

قال بهيج:

- نحن نمدحها.. أنا لا أعرف طريقة أخرى لمديح الفتيات.

قال هادي:

- لا نريد هجاء ولا مديحاً.. بيروشكا تتصرف كأنها سيدة البيت.. وهي كذلك بتوصية من كرم.. وفي هذه الحال أفضل ما تعمله هو أن تغلق فمك..

قال كرم:

- دعو بيروشكا وشأنها.. لنسرع في إنجاز المقبلات..

أسرعوا ما استطاعوا، وعندما فرغوا من الترتيبات، انصرفوا لارتداء الثياب اللائقة، وإحضار الصديقات، ولم يبق سوى بيروشكا، التي ظلت تدخل وتخرج، بين الغرف والمطبخ، دون أن تعمل شيئاً.. كانت ترتدي ثوباً يكشف عن صدرها، والمجرى الأبيض، الرائع، بين نهديها، وشعرها الفاتن، الذي أسبلته، لأنها تعرف أن كرم يريده مسبلاً، وأغنية من البهجة، غير مذاعة، تنداح في الجو، والقمر العجوز، من النافذة، يضحك في لحيته الفضية، ورضى يغمر الصدرين، يحس، ولكنه لا يترجم، وقبلات منهوبة.. وبيروشكا تقول:

- كرم.. ماذا أفعل أيضاً؟

قال كرم:

- لا شيء.. يكفي ما فعلت!! أنت سيدة بيت هائلة.. يمكنك سماع الموسيقى ريثما استحمّ.. تأذنين؟

في الثامنة بدأ الأصدقاء يتوافدون. كان كل منهم يصطحب

صديقته.. بيروشكا كانت تحسن فتح الباب، والترحيب..

- تشك (تفضل).. تقول وهي تبتسم، وتفسح الطريق للقادمين..

لكنها، فيما بدا من نظراتها، لم تكن مرتاحة لمجيء النساء، لم تكن مرتاحة أكثر لإعجابهن المفرط بالبيت والتحف.. وبعصبية ناقشت هادي، في المطبخ، عن هذه التشكيلة العجيبة، كان هادي محاوراً، جيداً و صبوراً أفلح في إقناعها أن الجميع أصدقاء، ولا خطر على المتحف، إذا ما تجاوزت فتاة ما، التعليمات، ولمست إحدى التحف.. مع ذلك سحبت بيروشكا كرم إلى زاوية وقالت له:

- هل أنت مرتاح لهذه المجموعة من القطط..؟

- وما علاقتي؟.. لكل فتاة صديقها.. هذه هي طبيعة السهرات.. أرجوك كوني طيّبة.. السهرة لما تبدأ بعد.. دعي حساسيتك المفرطة..

أخيراً جاء نصر ومعه عوده. كان حسن وضياء قد جاءا وحيدين.. لم تكن، لأي منهما، صديقة.. ولم يكن مناسباً، في رأيهما، إحضار زوجتيهما.. وقال حسن:

- اللعنة عليك يا ابن العرب أنت.. من أين أحضرت كل هؤلاء الناس؟ متى تعرّفت بهم؟ وبيروشكا، هذه؟

وقال ضياء:

- محكم.. كرم أعدّ لنا سهرة رائعة.. وأنت، يا حسن، يابني.. لا تكن فارساً جلفاً.. الليلة على الأقل..

في التاسعة بدأت السهرة.. بدأت بموسيقى ناعمة، وبعض الأغاني العربية لفيروز.. وببعض الكؤوس.. كانت هذه فترة تحمية،

ثم أطفئت الأنوار.. وأبقيت مصابيح ملونة.. وصاح جورج:

- ايشو هاد خيّو.. رومانتيك؟

نقر نصر جيل على عوده: صمت! وكان أليوش يشرح، بصوت خفيض، لصديقته شيئاً عن هذه الآلة الموسيقية الشرقية، التي تشبه الغيتار.. فعاد نصر جيل ينقر على عوده احتجاجاً، وصاح هادي:

- صمت يا جماعة.

وصمت الجميع..

بدأ العزف خافتاً، يكاد لا يسمع، كان متسقاً، هرمونياً، يتدرّج صعوداً، بأنامل سحرية، ثم انعطف إلى مقام الصبا، فالنهوند، ودخل منطقة المقامات، وسيطر على الجو.. لم يعد أحد يتكلم، لم يعد قادراً أن يتكلم.. كان العود ملكاً، كان ملك الطرب حقيقة، لكن نصر، بحكم دراسته، مزج شيئاً من الموسيقى الغربية في اللحن الشرقي وصاح طالب عربي، من المدعوّين:

- الله أكبر!

ولما شزرته العيون. أقفل فمه.. الإعجاب في القلب.. لا كلام صلاة. العود يصلي.. وبيروشكا تلتصق بكرم. تداعب يده.. وهو، باليد الأخرى، يداعب شعرها، يتخلل حريره بأصابعه، ويشرب لاعناً السنوات التي قضاها في الصين، مستذكراً صديقه هيدجي، وكلمته: «عندنا مثلاً..» ونزل بهيج، بكل قامته العملاقة، وسجد أمام نصر، وراح يهز رأسه طرباً..

دامت الوصلة الأولى قرابة نصف الساعة، ولما توقّف العود، انطلقت الأصوات بهتفة واحدة:

- برافو.

أشعلت الأضواء، وتعالى رنين الكؤوس، في أنخاب لا تنتهي، كل مع صديقته ثم مع الجميع..

وقالت فتاة:

- رومانتيكوش! اطفئوا الأنوار..

أطفئت الأنوار من جديد، وأعلن نصر.. وهو ينبه إلى الصمت:

- ألآن، عجْم عشيران، لأجل صديقنا حسن..

صفقوا..

- برافو!

وراح العود، من مقام العجم، يسلطن، وحسن يضع يديه على رأسه ويقول، برغم التحذيرات:

- باه! باه! باه!

وعلّق ضياء، بلكنته التركية:

- مُحكم، استاذ، مُحكم..

وانتهى عجم عشيران. تصفيق. برافو. رنين الكؤوس.. قبلات بين الأصدقاء، وأعلن نصر:

توركشاه.. نغم تركي..

نصب ضياء جذعه.. ملأ قدحه جيداً.. وعلى نقرات عود حنون، في تقسيمات شرقية، راح ضياء، كصاحبه حسن، يهز رأسه طرباً، مسترجعاً شبابه، وهو يصيح:

- أمان جانم، أمان جانم (آه روحي، آه يا روحي).

وانعطف منير إلى أغنية مجرية شهيرة محبوبة: «ازاسيب»

(عيون جميلة) وشرع الجميع كورساً جماعياً، يغنّون للعيون الجميلة.. وجورج يصيح:

- ايشو هاد خيّو.. نصر.. أنت ملك العود..

وصديقته تصفق.. ثم نهضت، ورقصت.. كانت طويلة، نحيلة، ورقصتها الإنفرادية، مع النغم، وإيقاع التصفيق، خلقت جواً حماسياً مجنوناً.

رنّ، في هذا الجو اللاهب، جرس الباب. أسرعت بيروشكا، ثم عادت تقول:

- بورتاش (البوابة)..

خرج كرم مسرعاً.. استدعى هادي للترجمة. حسب أن ثمة احتجاجاً من الجيران، لكن البوابة قالت:

- ايرجكا المغنية، ايرجكا الفنانة، في المدخل، تسأل عنك..

ركض كرم للاستقبال، كانت مفاجأة. دوى التصفيق في الداخل.. رجع هادي وأعلن عن قدوم ايرجكا، أفسحوا لها مكاناً في الصدر. دهشوا للمفاجأة.. حسبوا أن كرم قد فعلها، واستقدمها.. إلى الحفلة الساهرة كمطربة.. وحين دخلت، بجمالها، بأبهتها وبرصانتها وقفوا جميعاً.. صفّقوا.. وضعت يدها على فمها، منحت قبلتها للجميع، أما كرم فقد أدارت له خدها.. قبلها وأعلن:

- صديقتي ايرجكا..

صفق الحاضرون من جديد.. وقف نصر، الذي يقدر موهبتها فقبّل يدها منحنياً.. صاحت الأصوات:

- رومانتيكوش!! أطفئوا الأضواء..

أطفئت، لكنها، حين أضيئت ثانية، كانت بيروشكا قد اختفت. ظنّها كرم في المطبخ، في التواليت، في المجاز الخارجي، بحث في كل مكان فلم يجدها، نزل يسأل البوابة عنها، فقالت له:

- خرجت.. خرجت وهي تبكي.. ماذا جرى؟ لماذا زعّلتها..؟

عاد كرم وهادي إلى الداخل صامتين.. تظاهر كرم بالسرور، راح يشرّب بنهم، ينتظر أن تعود بيروشكا، لكن بيروشكا لم تعد..

لم تحتمل الصدمة.. ولم تشأ أن تسمع أيّ إيضاح حول ايرجكا. انسحقت.. فرّت من المعركة قبل أن تبدأ. كانت عصفوراً انقضّ عليه باشق من سماء عالية جداً..

ولم يعرف كرم كيف يتصرف.. اختلطت عليه الأمور.. يحزن لذهاب بيروشكا؟ لفرارها؟ أم يفرح بمجيء ايرجكا؟ الزيارة المفاجئة أذهلته، ولم يجد من دواء سوى الكأس.. وحين غنت ايرجكا، ضج الحاضرون، صفقوا طويلاً، ازدادوا جنوناً، وقال ضياء:

- برافو! مُحكم..

لكن كرم كان قد دخل منطقة الصمت نهائياً، ولم تنحل كفّه عن الكأس.

- ١١ -

شعرت ايرجكا أنها جاءت في غير وقتها، هذه السهرة، هؤلاء الحضور، نصر جيل وعوده، تلك الفتاة التي هربت، خروج كرم إثرها، ثم عودته خائباً.. كل هذا لَفَتَها. تصرّفت وكأنها لم تلحظ شيئاً. غنّت أغنية واحدة. اعتذرت أنّها متوعّكة، ولهذا لم تقدم الليلة فقرتها في برنامج ملهى مكسيم الذي تعمل فيه.

كان حضورها المتميّز، الحفاوة التي استقبلت بها، انحناء نصر جيل لها، الحماسة والتصفيق لأغنيتها، كل ذلك كان قمينا بأن يزدهيها، بل إن هرب بيروشكا وحده، وما يعني من وطأة سلطتها، ومن انتصارها في هذا العمر، على فتاة صغيرة وجميلة، كان جديراً بأن يجعلها سعيدة غاية السعادة، وفي الواقع لم تكن تنقصها السعادة. كان مرورها على بيت كرم هدفه ردّ الزيارة، واصطحابه إلى الملهى، لكنها، منذ ألفت نفسها في جوّ كهذا، وسماعها الموسيقى الشرقية، في تقسيات ومقامات نصر جيل، وبهجتها بهذه الحميمية من الحاضرين، تمهّلت في الانصراف، ثم قررّت البقاء، مشتاقة إلى أن يُغنّى لها، بعد أن أمضت أعواماً من عمرها وهي تغني للآخرين. هذا، على الأقل، ما جال في خاطرها، لكنها، في اللاشعور، كانت تواصل عملية السطو على الآخر، في الإحساس الذي يبعث نشوة

بأنها هي المرأة، قادرة أن تصادر رجلاً، وأن تخضعه، وأن تسحق امرأة أخرى، وتجعلها تستسلم من المقابلة الأولى.

هي، في البدء، لم تكن تريد الاستئثار بكرم. بالعكس، أرادته وسيلة متعة عابرة، في ليلة مسوّرة بالشبق، تقول له بعدها: «اذهب» كما يقول أيّ رجل لأية امرأة، بعد ليلة كهذه «اذهبي».. الآن اختلف الموقف، اختلفت النظرة، الهدف، صار هاجسها أن تكتشف من هو. أن تعرف، وهو بين هؤلاء الكثر من مدعويه، كيف؟ ادّعى أنه ضلّ طريق البيت، وكيف يملك متحفاً كهذا، وما علاقته بالفتاة التي هربت، وهل لعب بها لعبة ذكية، في وقت كانت تظن أنها هي، صاحبة هذه اللعبة، وأن المصادفة وحدها، وضعته في طريقها، تلك الليلة. لقد حسبت أنها تصنع معروفاً، تصنع له بهجة، وتنساق مع حادث طريف إلى مداه الأقصى. لكنها، الليلة، كانت أمام واقعين: هذا الجوّ الحلو، غير المتوقع، الغريب، المترف، وهذا التجابه، بين أن تَغلب أو تُغلَب، بين أن تواصل دورها، في اللهو بإنسان ساذج، وبين أن تصبح هي ألهية لرجل داهية بأكثر مما كانت تتصوّر..

الآن، كما فكرت، تبدأ مرحلة أخرى، قد لا تعنيها كثيراً، وقد تكون قصيرة جداً، لكنها، في كل حال، تضعها أمام تجربة جديدة، دفعها التحدّي إلى أن تمضي بها إلى النهاية..

لهذا، عندما انفضّت السهرة، تريّثت في الخروج. طلبت فنجاناً من القهوة.. طافت، ريثما أعده لها كرم، أرجاء البيت، كان النور كاملاً الآن، انتهى الجو الرومانتيكي. عاينت كل شيء بهدوء.. لم تدهشها التحف. غاظتها. اكتشفت أنها خُدعت. كان يؤلمها أن تُخدع. هذا لا يجرح كبرياءها فقط، بل يجعلها تشكّ في ذكائها

وفراستها أيضاً، هي التي خبرت أصنافاً من الرجال. إن هذا البيت، هذا المتحف، هذه السهرة، أدلّة دامغة على أن كرم يقيم في بودابست ويعرف كثيرين فيها.

أما كرم فقد تذكّر جيداً أنه أعطاها عنوانه. على هذا العنوان جاءت الليلة، جاءت لتتأكد أن ما قاله صحيح، وأن له بيتاً، وأنه لم يغادر بودابست، بعد تلك الليلة التي أمضاها معها، وقد توقّع كل شيء، إلا أن تأتي هي، وأن تفسد الجوّ مع بيروشكا إفساداً غير قابل للإصلاح، ولهذا كان مستاء، وكان يرغب أنْ تَدَعه وتنصرف. إلا أنها بقيت. ثمة حساب يحتاج إلى تصفية!

فتحت النافذة. أطلّت على الحديقة. انتعشت من طراوة الليل. لكنّها في الداخل. كانت تعاني إحساساً بعدم الرضى. ولما اقترح عليها، وهما يشربان القهوة، ويجلسان حول المائدة الصغيرة التي سحبها قرب النافذة، أن يسمعا شيئاً من الموسيقى، رفضت.. مضت إلى الهاتف، طلبت الملهى. أخبرت الميتر أنها متوعكة، ولن تقدم فقرتها الليلة. كرم لم يفهم شيئاً. هتف بدوره إلى جورج، يسأله عما إذا كان هادي ما يزال عنده. التمس منه أن يرسله إليه. جاء هادي، أدركت انه طلبه للترجمة. القاموس الذي استعانا به، في تلك الليلة، غير موجود، كرم تلقّى بعض الدروس بالمجرية، على يد اليوش، لكنه لا يستطيع أن يشرح نفسه، ولا أن يتبادل حواراً معها.

سألها عما ترغب من شراب. فتح لها البار الصغير، طلبت كأساً من الجن، مع عصير الليمون. شرب هادي نبيذاً، هو اختار الويسكي. انتعش قليلاً. حاول أن يضفي بعض المرح على الجوّ. أن يجعل الجلسة الصغيرة حميمية. لكنها، هي، تحدّثت غير قليل

بالمجرية مع هادي. شرح لها هذا الموقف. كان محنكاً.. قال إن كرم كاتب، وقد اشترك في أمسية أدبية، وأنهم اقترحوا، بعد الأمسية، أن يسهروا الليلة عنده، وهذا ما صار.

- وتلك الفتاة؟ سألت..

- طالبة في كلية الآداب.. وكانت من حضور الأمسية.. دُعيت على هذا الأساس..

- أنا لست معنية على أي أساس دُعيت.. ما يهمّني لماذا انسحبت؟ أسأله.

سأله. قال كرم:

- لست أدري.. لعلها شربت أكثر مما تحتمل..

قالت ايرجكا:

- لم أقتنع.. ما هي العلاقة بينكما؟ أهي صديقتك؟

- نعم: قال بغير تردد.

- وأنا؟

- صديقة أيضاً..

- صديقتان في وقت واحد؟..

أضافت:

- أعذرك.. الرجال، عندكم، تكون لهم أكثر من زوجة، فكيف بالصديقات!

قال كرم:

- افهميني يا عزيزتي ايرجكا.. ليس كل الرجال، عندنا، يكون لهم أكثر من زوجة.. أما أنا فليس لي حتى زوجة واحدة..

معنى هذا أنني غير مرتبط، وليس عندي التزام تجاه أي امرأة.. أقصد بالالتزام هنا الحب.. أنا لا أحب بيروشكا، ولا غيرها.. غير قادر على ذلك، ولا أريد أن أخدع أيا فتاة أو امرأة.. الحب العاصف، المندفع كموج، لم أعرفه بعد.. أشعر بحنين إلى امرأة، لا أدري متى ألتقيها، ولا أين.. في الصين يعتقدون أن جنيّة تسكن القمر.. ربما كنت أعشق جنّية القمر.. ما عدا ذلك لي أصدقاء وصديقات.. أنت واحدة من الصديقات.. وكنت أنوي زيارتك، لكن بعض المشاغل والرغبة في تعلّم شيء من اللغة المجرية، جعلتني أتريّث..

قالت ايرجكا:

- على فرض أن ما قلته كان صحيحاً، أيّ رقم بين صديقاتك أحمل أنا؟

- أنت فنانة.. صداقتك من نوع خاص.. ثم إنني لا أوزّع أرقاماً على أصدقائي..

- وهذا المتحف؟ يخيل إليّ أنه شبكة صيد جيدة..

- لم أصطد به ولا سمكة حتى الآن.. أنا صيّاد فاشل..

- أنت ماهر في الكلام.. هل هذا لأنك كاتب؟

- من قال ذلك؟

- أنا! أجاب هادي. سألتني بعض المعلومات عنك..

قال كرم:

- وماذا يعني حتى لو كنت كاتباً؟

- كيف؟ هتفت.. يا إلهي! أن يكون المرء كاتباً.. هذا شيء كبير.. اليست الحال كذلك عندكم؟

لم يجب على السؤال. ماذا يقول لها؟

قال هادي:

- لنشرب نخب تعارفنا.. أنا أيضاً رأيت كرم أمس لأول مرة..

- ألم تسمع به قبل ذلك؟ أعني أليس مشهوراً عندكم؟

- سمعت.. كنت أتمنى أن أراه، وها هو الحظّ.. من كان يظن أننا سنلتقي في المجر؟

«- بودّي لو حدثني عن نفسه أكثر مما فعل.. لماذا أخفى عني حقيقته تلك الليلة؟ هل هذا طبع أم دهاء؟

- ليس طبعاً.. أحب أن أثرثر أحياناً.. أتحدّث عن نفسي بغير تحفّظ، ولا حرج، ودون أن يسألني أحد.. لكن ماذا كان يجب أن أقول لك.. أنا كاتب؟ عندي متحف؟

- تركت ذلك لتصنع لي مفاجأة.. هذا من الدهاء أيضاً..

قال كرم:

- أنا لست داهية في الواقع، ولا أصلح لهذا الدور.. سأكون صريحاً فأقول إن لي طاقة عاطفية تكفي أكثر من امرأة. على هذا الأساس، وبطيبة قلب كاملة، أرغب في أن تكون لي أكثر من صديقة. أقول صديقة لا حبيبة، أنا إنسان محروم من الحب. نقطة الغباء، والسذاجة، عندي، هي أنني لا أفهم لماذا لا تريد المرأة أن يكون للرجل أكثر من صديقة.

قالت ايرجكا:

- وهل يريد الرجل، هل تريد أنت، أن يكون لصديقتك أكثر من رجل؟

قال كرم:

- هذا لا يهمني كثيراً.. أنا لم أسأل أيّما امرأة عن أصدقائها..

- هذا ناتج عن فهم حضاري أم لامبالاة؟؟

- لا أدري..

- بل أنت تدري.. هذا ناتج عن لامبالاة، وهذه ناتجة عن إنعدام الحب، وانعدام الحب يولد انعدام الغيرة، أنت فقير ومعذب من الداخل..

قال كرم:

- هذا صحيح جداً..

- ومعناه أن انصرافي الآن، لا يولد أي أسف في نفسك..

- أنت شيء آخر..

- أنت لا تقول الحقيقة.

- إنني سيّء الحظ، لأنني غير مفهوم، أو غير قادر أن أشرح نفسي.. أنت شيء آخر.. منذ هذه اللحظة أنت شيء آخر.. أنت صديقة يا عزيزتي ايرجكا! كوني صديقة طيّبة.. ولا أطلب أكثر..

- وباسم الصداقة تريدني امرأتك في بعض الليالي؟

- ليس هذا. أنت أكبر.. أستطيع أن أمتنع عن قضاء ايّما ليلة معك، ومع ذلك أبقى صديقك..

- على أيّ أساس؟

- لا أعرف.. أليس في الحياة أشياء غير معروفة الأسباب..؟ لنشرب، يا عزيزتي، كأس صداقتنا، وهذا قول نابع من القلب.

شربت ايرجكا.. تقبّلت ملاطفاته، قبلاته على يديها، وظلّت تبتسم وتفكّر.. لقد كان، بالنسبة إليها، رجلاً غامضاً، لكنه صادق

في قوله وتصرّفه.. تتركه وتمضي؟ تقبل صداقته على ما فيها من غرابة؟ تأخذ تقلّب أطواره على أنها أطوار كاتب..؟

قال كرم:

- لقاؤنا كان مصادفة غريبة عن الضرورة نفسها.. إنني أفهم ظنونك، مشاعرك، قطيعتك حتى لو تمّت، لكنني، حيال كل ذلك، لا أستطيع شيئاً.. لم أجنّ بعد.. أنا عاقل، مصيبتي أنني عاقل، العقل يجانب الحب، يقتله..

قالت ايرجكا:

- يا صديقي المسكين.. أنا أشفق على حالك.. وباسم هذه الشفقة أنسى كل شيء عنك، وكل ما قلته من كلمات.. وأستأذن في أن أنصرف..

قال كرم:

- ليس قبل أن أقدم لك تذكاراً، وأن أرافقك إلى بيتك.. لديّ خاتم ثمين يا ايرجكا، نادرٌ جداً، هل تقبلينه، وتضعينه في أصبعك، من صديق مرّ يوماً في حياتك؟

نظرت في ساعتها، كانت الثانية بعد منتصف الليل، قالت كمن أحس أنه تأخّر:

- إنني أستأذن.. يجب أن أعود.. أنت تتكلم كساحر أو شيطان.. أرغب في رفض هديتك، وأرغب في قبولها كتذكار.. لماذا هذا القدر من الشهوانية في عينيك؟ هيا.. هات خاتمك وسأنصرف.. لا أريد، الليلة أيضاً، أن أنساق مع نداء لا أعرف مصدره..

أعطاها الخاتم.. قبّلته. نهضت. قال لها:

- سأرافقك.

- هل ترى ذلك ضرورياً؟

- إذا لم يكن ثمة مانع لديك..

- وأيّ مانع هذا؟ أكون مسرورة.. ولكن ماذا يقول صديقك؟

- قال هادي:

- لن أقول شيئاً.. تفضلا..

أضاف مازحاً:

- أنا لست إلا ترجماناً محلّفاً.. انتهى دوري، وسألزم الصمت..

ضحكت وقالت:

- تستطيع أن تقول إن ايرجكا خطفت صديقك الكاتب بعد منتصف الليل..

- لن تكون بيروشكا سعيدة بهذا الخبر..

- ولا أصدقائي.. وهذا أفضل.. حين أريد شيئاً لا أبالي.. يستطيع المعجبون أن يضعوا رؤوسهم في ماء مثلج..

- وماذا يقول النقاد الفنيّون؟

- لا أدري، ولا أبالي.. فنانة وكاتب.! هذا خبر جيد.. لم تبق إلا الصورة..

- في المرة المقبلة نحضر كاميرا..

- أحضر معها صحفياً حشرياً يحبّ نشر الأخبار الفنية المثيرة..

- هل هذا تحدٍّ؟

- ليس لك، ولا لكرم.. للآخرين.. قال كرم إنه سيرافقني.. أنا أقول إنه سيقضي ليلته معي.. هكذا أكون أنا! خرجوا، وعند

تقاطع الطرق، قرب السفارة الفيتنامية، افترقوا.. ذهب هادي باتجاه نادي الصحفيين، وذهب كرم وايرجكا في سيارتها باتجاه «بيضا اوتسا»، وكانت نجيمات فضوليات في السماء الصيفية تتغامز.. وغنت ايرجكا، بصوت خفيض، أغنية ما، وتوقفت وسألت:

- كرم.. لوبلو ايرجكا؟.. (تحب ايرجكا)

- دا.. (نعم)..

- خراشو (جيد)..

تابعا الانطلاق.. جولة أخرى على الدانوب.. هذه عادتها، هوايتها، قبل أن تستسلم، كمنحة إلهية، إلى الرجل الذي تختاره... وفي البيت تابعاً الشرب.. شربا نبيذ توكاي. قرّر ألاّ يقترب منها إلا حين تدعوه، لكنه، عندما نامت عارية، دافئة، راضية، اغتلم إلى درجة الانخطاف.. مع ذلك ظل يفكر بالحياة الجديدة، المليئة، الصاخبة التي عليه أن يحياها، فيما لو ظل مواصلاً طريق السهر والشرب وإقامة السهرات في بيته. قال في نفسه: «قريباً أصفّ إلى جانب ادامو ونيلسون وكيرباتو.. أسهر ليلاً وأنام نهاراً، أقع بين ايرجكا وبيروشكا. أصبح طرفاً في منافسة بين امرأتين.. أعتصر ما تبقّى من قوتي لأرضي هذه وتلك. أؤجر نفسي مقابل كلمات حلوة، يبتلع الشيطان عنقي وأصير داعراً، أغوص في حمأة حياة قذرة، جنسية بحتة، خالية من أي معنى.

وفجأة نادته ايرجكا: «بماذا تفكر؟ ماذا تنتظر؟ هل أنت تعب اليوم؟»

كان عليه أن يثبت أنه ليس تعباً، ولا يمكن أن يتعب. لكنه، في صورة ابليس، تبدّت عيناه المفعمتان بالشهوة وهو ينظر إلى

جسدها الأبيض، الرخص، الممدّد، المنتظر.. وبخلاف ما كانت تتوقّع، لم يقفز إلى السرير.. فتح زجاجة توكاي أخرى، وقف وأشعل سيكارة، راح ينظر إليها وعيناه ترزّان شعاعاً حارقاً..

بعد أن نامت ايرجكا، ظل هو مسهّداً. الدم يقرض قلبه. هذا السرير الذي ينام عليه، كم نام عليه رجال قبله، ايرجكا، بعد كل شيء، فنانة، ربما كان يظلمها بأفكاره السيئة هذه. إنها محترمة، وملك قلبها، وعواطفها، وممارسة الحب، عند الإعجاب برجل ما، لا يشكل مأخذاً أخلاقياً عندها. هي لا تبيع نفسها، جرّب معها في ليلة سابقة. ليست بحاجة إلى المال، وحتى لو كانت كذلك فإنها تترفّع. الفرق بين أن يمارس الإنسان الجنس لأجل الحب، وبين أن يمارسه لأجل المال، كبير جداً. في أوروبا هكذا هي الاشياء. صحّية أكثر، في الشرق يخلطون هذا بذاك، كل حب ممنوع، كل ممارسة مرفوضة، الفنانة والعاهرة سواء.. الشرف محدد في الحوض. افعل ما شئت في السرّ.. إذا استطعت الاستتار بقيت شريفاً. نفاق اجتماعي.. المجتمع هناك منافق، لكنه يظل مجتمعنا.. ولا يستطيع المرء أن ينسلخ عن جلده.. التخلّف قائم، وتجاوزه، بالتمنيات وحدها، مستحيل، التطوّر يبدأ بالقاعدة.. الأخلاق مرتبة فوقية،.. إذا لم تتغيّر الحياة من القاعدة، يستحيل تغييرها من القمة، وهذا التغيير يتطلب جهوداً، تضحيات، نضالاً متواصلاً، وهذه الغربة جزء من النضال، أو هي بسببه، لكنك، يا كرم، انتهيت إلى «نضال «بائس» محصور في الفراش.. اللعنة عليك!.

تسلّل من السرير برفق. حمل ثيابه وخرج إلى الصّالون. هناك ارتداهابهدوء، دون إثارة أيّ نأمة. كان الفجر يوشك على الطلوع، ومن جهة الشرق، تلوّنت السماء بتوشّحات حمر.. أغلق الباب دون

ضجة.. دون صوت. آثر النزول على الدرج، فلما صار في الشارع، تنهّد بارتياح.. أنعشه هواء الصباح البارد، تمنّى أن يمضي إلى ساحة الأبطال، ومنها إلى الغابة، أو إلى المسبح القريب.. لكنه، حين بلغ «بنتزور اوتسا» وجد نفسه يتجه إلى البيت، وبحذر أدار المفتاح في الباب الخارجي، ولم يأخذ المصعد.. ارتقى الدرج حاذراً، وأول ما فعله، حين دخل بيته، أنه فتح صنبور الماء في المغطس، وخلع ثيابه وغرق في الماء الدافىء.. ولما كان اليوم أحداً، وليس لديه أيما عمل، فقد أسدل الستائر.. سدّ حتى فتحة الرسائل في الباب، وقرر أن ينام.. وأن ينسى..

- ١٢ -

كان ضياء يسعل بغير انقطاع وهو يمجّ دخان سيكارته. جسده الطويل أشبه بالهيكل العظمي، يهتز وهو يسعل، عيناه تجحظان تحت وطأة انفعال ربوي، وزوجته، سميحة، ذات السمرة الحلوة، تُعِدُّ له العشاء في المطبخ. كانت أفضل مذيعة في القسم التركي، حلاوة صوتها، رنته، الفتنة اللعوب فيه، واللهجة الاسطنبولية، تضفي عليه سحراً خاصاً. كان عليها، بسبب أنواع من الأمراض، أبرزها الربو، يعاني منها زوجها ضياء، ان تقوم بعمل إضافي، هو عمل زوجها الذي لا يستطيع أن يجلس وراء الميكرفون. لكن ضياء، الكاتب، صاحب الأسلوب الجميل، كان يقرأ آلاف الرسائل، ويردّ عليها. معظم هذه الرسائل من العمال الأتراك، المشرّدين، في كل أنحاء أوروبا، وخاصة في المانيا الغربية وفرنسا، وكانت أعمالهم من تلك التي يترفّع الأوروبيون عن مزاولتها، مثل التنظيفات، ونقل النفايات، والخدمة في الفنادق والمطاعم.

رسائل هؤلاء العمال، إلى القسم التركي في إذاعة بودابست، كانت طافحة بالشكوى من حياتهم البائسة. قصص عن شقائهم لا تنتهي، وكل واحدة تصلح لمسرحية درامية. وكان ضياء، برغم نصائح زوجته سميحة، لا يستطيع أن يكون لامبالياً، أو حيادياً،

تجاه ما يقرأ. هذا ما كان يدفعه إلى التدخين، إلى السكر، وكثيراً ما توقف عن قراءة رسالة مؤلمة، وهرع إلى مقهى الإذاعة يدخن، يشرب، يفكر بوطنه تركيا، باسطنبوله، بالذين، كما قال ناظم، يعملون ٢٤ ساعة في الـ ٢٤ ساعة وعلى جلودهم الصفراء، يلوح السلّ والاصفرار.

هذا الشقاء، من جرّاء الغربة، والرسائل، والمرض، كان يهده هدأً، لذلك كان، في السهرات، وحول مائدة الطعام، يقص بعض ما يشقيه على ولديه. لكن ابنته الصبية، المراهقة، التي عاشت في الغربة، ولم تعرف تاريخ تركيا ولا بؤسها، كانت تقول لأمها متبرمة:

- لماذا، والدي وأنت، لا تتوقفان عن رواية كل هذه القصص البائسة علينا؟

تقول الأم:

- لأنها قصص الوطن..
- وما ذنبنا نحن حتى تتسممّ حياتنا بها؟
- كي تعرفا، أخوك وأنت، في أيّ شقاء يعيش شعبنا!
- عرفنا.. يكفي ما عرفنا.. وماذا بعد، ماذا نستطيع؟
- نستطيع، حين نذكر ذلك، أن نحسّ بآلام تركيا، وطننا العزيز..

لكن الشابّين كانا يرفضان الإصغاء. وكان هذا الرفض يزيد في شقاء الوالدين، وقد قالت سميحة لكرم وهو يشرب القهوة، جالساً لصق ضياء، متألماً لحاله:

- ابننا، الذي يعيش في رفاه الحياة هنا، يقلب شفتيه، أمام إفطار مؤلف من الزبدة والمربّى.. أقول له:

اسمع يا سنان، نحن، في صغرنا، كنا لا نعرف الزبدة.. وكنا نغافل أمنا، كي نلحس قليلاً من المربّى إذا وجد.. كان الخبز الأسمر، اليابس، غذاءنا اليومي.. ولتغيير هذا الواقع السيّء، ناضل رجالنا الأتراك.. لوحقوا، سجنوا، أُعدموا.. وأنت هنا، لا تعرف شيئاً عنهم، عن الذين يذوون في سجوننا.. ولا تقرأ حتى شعر ناظم، أو قصص والدك.. أنت تطيل شعرك، وتجلس في الحديقة، في الفيء، تعزف على الغيتار.. كيف ستعرف تاريخنا إذن..؟ أتعرف، يا كرم، بماذا أجابني؟ قال:

- لا أريد أن أعرف شيئاً. ولدت في المجر.. هنا سأعيش، لن أعود إلى تركيا، في أيّ يوم..
- تعيش في مجتمع بناه سواك؟
- ولماذا لا؟
- وتنسى الوطن.. تنسى الأناضول؟
- اذكريه أنت.. أنا لن أصدع رأسي بهذا.. انظري ماذا فعل التفكير بوالدي..
- والدك رجل شريف، مناضل.. والدك تركيّ حقيقي..
- لا أحد يغصبه على ذلك.. يعيش في المجر، حسناً، ليتمتع بالحياة المرفهة المتوفرة له..

قال ضياء:

- يا صديقي كرم، زرت أمس صديقنا حسن.. تعرف أن زوجته صينية، وأن ولديه يتكلمان الصينية، ويتعلّمان المجرية في المدرسة.. لكن حسن يخصّص ساعتين كل يوم، كي يعلمهما الفارسية.. لغة الآباء كما يقول.. إنه يذكر تبريز ويبكي.. يتساءل:

ترى، تتحرّر من حكم الشاه يوماً؟ يتوقّف نهر الدماء الذي يغوص فيه شعبنا؟ وإلى متى نبقى مشرّدين، في المنافي؟.. حسن إيراني أصيل، لا يريد لولديه أن يعيشا في الغربة.. أن يتبلّدا، ويستعذبا الحياة المنعّمة هنا..

قال ذلك ويده على خدّه. دخان سيكارته التي تحترق وحده كان مشرعاً. كان ينسج، في حلقاته الرمادية المتصاعدة، شكلاً حلزونياً للألم.. كان شيء ما، يُرى ولا يعرف، كالح، مفجع، ينسرب مع الدخان، منفوثاً من شفتين مضمومتين، متّصلتين بالقلب مباشرة. كانتا سدادتين لقناة الرئة الخربة، العاملة بوهن، وسواد كثيف يغلفها. وكان ضياء، في اتكائه على الطاولة، وسيكارته التي علاها الرماد، وعينيه المسافرتين في أبعاد الأناضول، لوحة مجسمة للشقاء الإنساني، المحبط في توقه إلى خلاص البشرية. وزوجته سميحة، يرفّ على جمالها الخريفي، ظل اسحم، ونفسها المرمضة، الممزّقة بين الحزن لأجل الوطن، والحزن على الزوج العليل، تنطلق من نظراتها صرخة احتجاج خرساء، لا في عتبها على الغربة، ولا قسوة الظروف فقط، بل على الولدين اللذين جرّدتهما تسيُّبات المنفى من نبل الشعور الذي كان غذاءها، كان سندها، وكان قوام حياتها التي ترفض أن تغرق في الحسرة، وتكفّ عن النضال في سبيل ما هو أفضل.

«ضياء، أيها الأب العجوز الطيّب، ويا سميحة، يا رفيقة كفاح لا تلوح له نهاية، لننهض ونتعانق، نحن إخوة. كلنا إخوة، لا تضمّنا جامعة فكر فقط، ولا يوحد بيننا أننا نحمل صلباننا، عبر هذا العالم المعذّب، بل كذلك وثوقنا في أن دنيانا هذه، التي لا تنبت، تحت أقدامنا سوى الشوك، ستعرف أن تطلع لنا زهراً

أيضاً.. ولا بد أن يبقى، من يبقى منا بعد المعركة، كي يلبس قميصه الأبيض وفي عروته وردة حمراء».

أتت سميحة بثلاث كؤوس. شربوا.. ثمة ما يقال بعد. هناك فرح أيضاً. لنفرح قليلاً.. سيتعلّم أولادنا، على طريقتهم الخاصة، وسيفهمون، وسيذكروننا، على الأقل: «لقد فعلوا ما استطاعوا».

قال ضياء:

- إذا لم يعد ولداي إلى تركيا متّ وفي قلبي حسرة.. لا أريدهم أن يتعاطوا مع الغربة كوجبة جاهزة دسمة.. عليهم أن يروا كم هي السماء صافية، والنجوم مشعّة، في ليالي الصيف هناك..

فكر كرم: «هذا كلام يخصّني شخصياً.. لا أولاد عندي.. لكن أنا، إذا ما بقيت بعيداً عن الوطن، إذا ما استمرأت هذا العيش الهنيء، ماذا يصير بحالي؟ ترى أستطيب العيش وأبقى؟ أحيا عالة، مرتزقاً، منعّماً، في ترف المتحف، وأحضان النساء؟..»

كانت صحوة الوجدان هذه، إثر تنبيه كهذا، ولو لم يكن هو المقصود به، تسبّب له تبكيت ضمير موجعاً. لكنه لاحظ، أن هذه الصحوة، وهي كل ما بقي ليذكره بأمسه، كانت تتشمّع، كتمثال في متحف، فلا يفكر بالواجب إلا أثناءها، وبشكل يتناقص تأثيره تدريجياً.

فطن إلى أن هذه الصحوة، لم تعد مطلوبة إلا للتبرير، ليقول، في نفسه: «أنا لست كالآخرين.. إنني أفكر بالوطن» وبعد ذلك ينسى.. والمفجع بالأمر، أن مثل هذا التفكير، في المناسبات الطارئة، كان سلوكاً للآخرين أيضاً. كانوا يقولون: «اللعنة على الغربة!» ثم يستمرّون، وبأشكال من الممارسة لا تنطوي على أي

شعور بوطأة الغربة، أو بالرغبة الصادقة في وضع حدّ لها، والعودة إلى البلاد.. ثمة أعذار كثيرة. كل واحد له عذره. يخترعه إذا لم يكن موجوداً. هو أيضاً سيكون له عذره عند اللزوم، وحين يتزوج، لو تزوج، من بيروشكا أو غيرها، يصبح عذره شرعياً: إنه مرغم على العيش، حيث زوجته وأولاده..

وقد افضى بهذه الخواطر إلى صديقه جورج الذي زاره، ذلك المساء، فقال له هذا:

- أنتَ على حق، ولكن إلى متى يستمر مثل هذا الشعور؟

أضاف: وبالمناسبة، كانت السهرة جميلة امس.. كانت سهرة عربية في قلب بودابست.

قال كرم:

- نصر عازف رائع.. منذ كم من الأعوام يدرّس الموسيقى في المجر..؟

- يدرّس الموسيقى؟ إنه مسجّل لدراسة الموسيقى، لكنه لا يدرّسها.. دراسة الموسيقى تحتاج إلى جهد، إلى تمرين على العزف، إلى الجلوس ساعات أمام البيانو..

- وماذا يفعل إذن؟

- كما يفعل الآخرون.. يعيش في المجر.. ألا يكفي هذا؟ إنه على كل حال، يستفيد قليلاً من الجو الموسيقي.. أما الآخرون..

- لا يدرسون؟ قل لي.. كيف هي أحوال الطلاب هنا ؟ أنت رئيس الرابطة..

- العالم الثالث جعل من البلاد الاشتراكية مزرعة دراسية.. كان الله في عون هذه البلاد..

- أراك تشكو.. ألا تسير الأمور الدراسية على ما ينبغي..؟

كانا يجلسان على جانبي طاولة مستطيلة. تعمّد كرم أن يجلس بعيداً عن جورج، المريض بالربو، كيلا يزعجه الدخان. فتح النافذة وقال لصديقه: «اعذرني، لا أستطيع التوقف عن التدخين». قال جورج: «لا بأس، ما دامت النافذة مفتوحة»، لكنه، بعد قليل، أخرج النفاخة ونفث هواءها في فمه. كان مقلاً في الكلام. شعره أسود، على عينيه نظارتان مدختنتان، وفي جسمه رشاقة، وله رقبة قصيرة كأن رأسه قد ركب بين كتفيه مباشرة. كان يتبدى في صورة خارجية هادئة، قادرة على التفهّم، والتماسك، وعدم الشكوى، غير أن همّاً يلوح على محياه، وحين أخبره كرم أنه كان عند ضياء، قال مبتسماً:

- هل تقوم بتحقيقات عن أحوالنا اليوم.. لماذا تستعجل وجع الرأس؟.. اصبر.. «سيأتيك بالأخبار من لم تزود».. حافظ على نشوة الأمس..

قال كرم:

- نشوة الأمس راحت معه.. لجمع الحجارة وقت، ولتفريقها وقت.. أريد أن أعرف..

- لولا خوفي عليك من تلوّث السمعة لقلت لك عاشر محمد حميش قليلاً.. هذا أستاذ في فنون تيسير الغربة، وفنان في تعليم الآخرين كيف يفيدون من كل شيء..

- أريد أن أراه، وأجالسه.. لا تخف على سمعتي.. لدي أسئلة، أسئلة كثيرة يا جورج.. كنت في الصين، مررت بموسكو.. قالت لي بيروشكا أشياء، لكنك أنت، رئيس الرابطة، تعرف أكثر

من الجميع.. توفّر على تعب التجربة.. قل لي، ألست قلقاً، وقد تكون منزعجاً، من بعض التصرُّفات ؟

- منزعج؟ نعم.. ولكن ماذا يعني هذا؟ أينما كنت وحيثما ناضلت، كان عليك أن تعاني، أن تتحمّل..

- ولكنك مريض!

- ضياء مريض أكثر مني..

- أنا أشفق عليكما معاً..

- رفّه عنا إذن.. أكثر من الحفلات..

- أتمزح؟

انحنى جورج على الطاولة وقال بصوت عميق الجرس:

- استاذ كرم! لا تحاول معرفة كل شيء في أسبوع، أو شهر.. لا شيء يعلّم مثل التجربة.. جرّب بنفسك.. أنت الآن في المجر.. بهيج وهادي من أصدقائك.. سيأتي إليك الطلاب أيضاً، وفي المستقبل تتعرّف على الجميع.. ستكتشف الأشياء بنفسك..

- بدأت أكتشف.. نافذتي تطلّ على الحديقة.. رأيت ادامو الإيطالي ومظلّته، ونيلسون وكتبه الماركسية التي يقرأها وهو ينعم في الظل، وفي الشتاء يقرأها، كما أقدّر، وهو يتشمس، ثم يتفلسف، كما قال لي ضياء، حول النقاء النظري.. كذلك تعرّفت إلى كبريانو اليوناني، الذي يدّخر ما يأخذه من قطع نادر، كجزء من مرتبه، ثم يصرف الدولارات في السوق السوداء، ولديه سيارة، ويعمل لشراء بيت، والحصول على الجنسية المجرية، والبقاء في المجر نهائياً.

- تعرّف إلى محمد حميش أيضاً.. هذا نموذج للآخرين..

– قلت لك سأفعل، لكنني، منذ الآن، أعرف.. إنه يعمل في التهريب، ويشتغل في السوق السوداء..

– وله امرأة في الإتحاد السوفياتي، وقبلها امرأة في بلغاريا، وتزوّج الآن مجرية.. وبيته مخزن، من السروال النسائي، إلى أحدث أنواع المسجلات.. وهو لن يعود إلى العراق.. وكثير من الطلاب، من كل البلاد العربية، ومن البلاد الافريقية، يهرّبون، يتاجرون، يتزوّجون، ويتذرّعون بألف عذر كي لا يعودوا بلدانهم..

– ولماذا لا تطردهم المجر؟

– اسألها.

– ولكني أسألك أنت.. كن صبوراً علي.. لم يجبني أحد على هذا السؤال.. لا أسمع سوى الشكوى.. ثم ماذا؟ لتطردهم المجر.. تجعلهم عبرة للآخرين!

– وماذا تفعل بزوجاتهم وأولادهم إذا طردتهم.؟ ثم لاتنس ضرورة المحافظة على العلاقات مع بلدان العالم الثالث، ومراعاة مشاعر الأحزاب الشقيقة..

– لا أمل في عودتهم إذن.. إنهم يتنعّمون هنا.. يفضّلون الحياة في البلاد الإشتراكية..

– لا.. إنهم يشتمونها.. يعلّمون زوجاتهم أن تشتمها أيضاً.. يشكون.. لا يملون من الشكوى.. والسبب بسيط.. ليس لبعضهم سيارات مثلاً، أو لم يحصلوا على بيوت أنيقة، واسعة، برغم أزمة السكن..

قال كرم:

– يا للصورة البشعة! هل هذا معقول؟

نهض جورج واتكأ على حافة النافذة. فتح فمه كبعض الأسماك حين تخرج إلى السطح. كان ينقصه الهواء.. عبّ كمية منه. استراح قليلاً.. التفت إلى كرم وقال:

– ليس من عادتي أن أمسك فرشاة وأطلي جدار الحياة بالأسود.. لو كنت رساماً ما استعملت الأسود إلا نادراً.. لماذا، إذن، تريدني أن ألجأ إلى هذا اللون، في رسم صورة قاتمة جداً؟ منذ بدأنا الحديث وأنت مندهش، تكرّر كلمة معقول بغير توقّف.. هل تستغربُ الأشياء.؟ نعم، يا عزيزتي، ما سمعته معقول تماماً.. الطلاّب المتفوّقون، الذين حصلوا علامات عالية في البكالوريا، لا يأتون للدراسة في البلاد الإشتراكية.. يفضلون الدول الغربية، اميركا، اسبانيا على الأقل.. أما الذين حصلوا على الباكلوريا بعلامات متدنّية، وبالمساعدة، فهؤلاء وحدهم الذين يأتون للدراسة هنا.. وماذا يريدون؟ الطب، الهندسة، الألكترونيات.. هندسة البترول.. وطبعاً يرسبون، وعندئذ يتحوّلون إلى فروع أخرى، نظرية، لأنهم لا يريدون ترك الدراسة المجانية، مع الراتب، والتنبلة،.. لدينا طالب اسمه شاكر.. والده عامل.. استطاع، بمساعدة ما، أن يرسله إلى المجر.. قضى سنتين في الطب وسقط، قضى سنتين في الهندسة وسقط، كان قد تزوّج في هذه الاثناء.. ولا يريد العودة إلى سورية.. عندئذ طلب أن يدرس مكتبات.. وقس على ذلك.

– ولكن ما لا أفهمه هو التالي: كيف تتزوّج فتاة مجرية خريجة جامعة، طالباً خائباً كهذا..؟

– هو لا يقول إنه خائب.. يقول إنه طالب طب، طالب هندسة، ووالده أمير، أو ثري كبير، وأن له في الوطن، سيارته

الخاصة، وأرضه، وبيته.. والفتاة تصدّق، يكون جميلاً فتفتتن به، يغريها بالهدايا، بالوعود، يخدعها، أو تكون مستعدة للانخداع، للزواج بأيّ شكل..

– كيف هذا؟ يأتي الطالب فقيراً، ويعطى منحة على هذا الأساس، وهنا يتصرّف كبورجوازي، زاعماً أن والده وزير أو مدير..

– اسمع هذه القصة. وصل طالب من بيئة شعبية في حلب إلى بودابست، كان تقدّمياً، وكان والده، قبله، تقدمياً أيضاً، ومنذ وصل المطار وهو يقدم نفسه على أنه رفيق.. ثم تعرّف إلى الطلاّب، قالوا له: إذا ثابرت على هذا المسلك، فلن تجد من تكترث بك.. ماذا يعني أن يكون أبوك عاملاً، أو مناضلاً، أو رفيقاً؟ قل إنه صاحب معمل.. عنده مزرعة.. وإنك وريثه، وبيتكم شبيه بالقصر، ولكم فيللا ريفية أيضاً.. لقد رفض في البدء.. ثم فعل كغيره.. أصابته العدوى.. وجد نفسه يدرس مجاناً، يأخذ مرتباً، يأخذ تعويض ألبسة وكتباً.. لم يعد تحت رحى الفقر.. نسي أصله. خدع إحدى الفتيات وتزوّجها، وحين عاد، ومعه زوجته وولده، واضطر إلى السكن مع والديه، في غرفتين ضيّقتين، اكتشفت الفتاة الحقيقة، لكن بعد فوات الأوان.. ماذا تفعل عندئذ؟.. الافتراق عن الزوج سهل، ممكن في كل وقت، لكن الولد، وهي أمّ؟ فكّر في وضعها واحكم بنفسك!

– في هذه الحال، من الأفضل أن يدرس طلاّبنا في الغرب..

– هذا مبدئياً صحيح.. رجعي عربي قال: إذا أراد الإنسان أن يغيّر أفكار ابنه أو بنته، فليرسلها للدراسة في البلدان

الإشتراكية.. هناك يجدون كل شيء جاهزاً، ينسون أصلهم، يبدلّون أفكارهم.. أما في الغرب، حيث ينتظر الطالب حوالة أهله كل شهر.. ويهرب من البيت بسبب التأخر في دفع الإيجار، ويأكل، إذا أكل، لحمة قاسية كالنعل، فإنه يظل تحت مطرقة الحاجة، يفكر بالظلم والعدل..

وقف كرم دون إرادة. استفزّه ما يسمع. حسب أن جورج يبالغ. هل يتعذّب مع الطلاب ولذلك يحقد عليهم؟ إنه يفتري.. يصيح به: «أنت تفتري.. أنت تضع نظارات سوداء.. وترسم بالأسود بأكثر مما تظن؟» اقترب منه.. اقترب أكثر، قال له منفعلاً:

– هذا مخيف! مخيف جداً يا جورج! سمعت هذه الشكوى، قبل المجيء إليك، من ضياء التركي.. لكنها لم تكن بهذه المرارة.. أنت مريض.. مرضك ينعكس على مشاعرك.. ضياء..

قاطعه:

– ضياء معدن نادر، وكذلك حسن، وفهمي.. وهناك، للإنصاف، مناضلون، من كل الأجناس، وطلاب أذكياء مجتهدون، نزيهون.. المهم ألا يبقوا طويلاً هنا.. الماء، إذا استقر في بركة مدة طويلة، يفسد..

– أنت تنصحهم بالعودة إذن، أليس كذلك؟

– بالدراسة، والعودة، وبأسرع ما يمكن.. لكن تصادف أحياناً، انتهازيين مقرفين.. طالب، من إحدى الدول العربية، كان ذكياً، مجتهداً، تقدمياً، وقد جاء للدراسة على هذا الأساس، وظل كذلك حتى تخرّج طبيباً، ثم سعى لمنحة اختصاص فحصل عليها.. وعندما

اختص وتخرج انقلب.. صار يشتم المجر.. يمتدح اميركا.. حاورته، في الختام، قال لي: حرفياً: «الآن سأعود إلى بلدي. نظام الحكم فيه ضد المجر، ضد الشرق، مع الغرب، وأنا بعد هذه السنين التي قضيتها في الدراسة، وفي حياة مطمئنة، لا أريد أن أعرض نفسي للملاحقة، أو للسجن.. بعد هذا العمر، وهذا الاختصاص، ينبغي أن تكون لدي سيارة، وبيت، وثروة.. وكذلك زوجة جميلة.. من أجل ذلك لا بدّ من تبديل جلدي. أنا أبدل جلدي، وقل عني ما تريد.. لا خلاف فكرياً لدي، بل مصلحة، هذه هي الحقيقة.. إنني رجل صريح..»

– وماذا فعل بعد رجوعه..؟

– صار من زلم السلطة.. يشتم البلد الذي علّمه وأطعمه.. قطع صلته بكل العواطف الإنسانية.. إنه يكوي المرضى، يسلخ جلودهم، يجري جراحة غير ضرورية، لأجل المال..

– يا له من نذل!

– الأنذال كثيرون.. سترى الكثيرين منهم هنا، وكثيرين بعد عودتك.. أو تحسبني في المبالغين!؟ لماذا فرضت علي أن أتكلم على كل هذه الأمور السيئة؟

– ولكن هل يعقل أن يعضّ المرء اليد التي أحسنت إليه؟

– يقطعها أيضاً.. وما المانع؟ إذا كان شتم البلدان التي درس فيها، يسهل له أن يدخل الجامعة، أو الوظيفة، ويلتحق بالطبقة البروجوازية، وينام كل ليلة في حضن زوجته، فلماذا لا يفعل..؟ لماذا لا يشتم؟ لماذا لا ينافق فيزعم أنه على خلاف فكري.. أكثر الذين تظاهروا بالخلاف الفكري كانوا انتهازيين، كانوا منافقين.. وصوليين لا أكثر..

ساد الصمت بين المتحاورين. جلس جورج وكأنه تعب من الوقوف. مقرف.. هذه هي الكلمة.. مقرف سلوك المرتدّين.. جورج لا يقرف فقط، يتألم.. قال كرم في نفسه: «أنا الذي تسبّبت في ألمه.. إذا أصابته نوبة ربو أكون مسؤولاً.» راح يذهب ويجيء في الغرفة دون أن يتكلم.. اللعنة على كل شيء.. صار كل شيء ذا صلة بالقرف: متحفه، سلوكه، وهو نفسه.. الأوغاد يسترون خلافاتهم الكاذبة بورقة.. هؤلاء العراة، الزناة، الذين يبيعون أنفسهم وشهاداتهم لأجل وظيفة.. آه.. ألا يعرفونهم هنا؟ التفت إلى جورج مغضباً، سأل:

– يعرف المجريون هذه الحقائق؟

– قد لا يعرفونها كلها.. لكنهم يعرفون الكثير، هنا وفي كل البلدان الأخرى.. لكن هذا لا يحول بينهم وبين أداء واجبهم تجاه البلدان الفقيرة، المتخلفة، النامية كما نسمّيها.. تحدّثت مع أستاذ مجري، هو عميد لكلية العلوم الاقتصادية.. تعرف ماذا قال؟ اسمع: «نحن لا نعول على اعتناق الطالب مبادئنا.. هذه مسألة شخصية، هو حرّ بها.. ما يهمّنا هو مساعدة البلدان النامية.. الكلام، وحده، لا يفيد.. لأجل استغناء هذه البلدان عن كوادر غربية، رأسمالية، مشبوهة، لا بد أن يكون لها كوادرها الوطنية.. لا تستطيع أن تقول لبلد استغنِ عن خبير في الزراعة يأتيك من دولة استعمارية، قبل أن تنشيء له خبيراً من وطنه نفسه.. إذا أقمت معملاً للأقمشة، تستطيع الاستغناء عن استيراد الأقمشة الأجنبية.. هذا ينطبق أيضاً على المهندسين والأطباء والإداريين وجميع الفنّيين. إننا نربّي كوادر للبلدان النامية، ولا يهمّنا، بعد ذلك، أن يشتمونا.. المهمّ أن يستغنوا عن الآخرين.. هذا هو الطريق لبناء

الاقتصاد الوطني، للتخطيط، للتنمية، وتنفيذها.. إننا لا نعير أذنا لشتائم، حتى إذا صدرت من طلاب تخرّجوا من جامعاتنا..

قال كرم:

– ولكنه عقوق!

– وهناك وفاء أيضاً.. الأوفياء موجودون.. الخطر، كل الخطر، من الإقامة الطويلة.. تذكّر حكاية الماء الراكد.. إنه يشكل مستنقعاً لا محالة.. ولكنني تعبت من الكلام.. ما رأيك بزجاجة بيرة مبردة؟

– لا أرفض.. بل أطلبها بإلحاح.. تصدّع رأسي مما سمعت..

أحضر جورج زجاجة البيرة. كان مرتاحاً لأنه قال ما يريد، ومتألماً لأنه قاله بكل بشاعته. قال في نفسه: «النصائح موجهة إلى الكاتب العزيز أيضاً، ولكن بطريقة أخرى.. المتحف جميل، رائع، لكن هناك ما هو أروع: الكتابة.. أن يكتب عن الوطن ولأجله، لأجل الشعب والأمة.. تراه يدرك أهمية ذلك؟»

شربا نخباً أخوياً، شيء ما محبّب في جورج جعله قريباً من قلب كرم.. كان يدرس الفيزياء.. لكنه، واأسفاه، كان مريضاً بالقلب أيضاً.. وقد أجرى جراحة.. لكنه يحتاج إلى الهدوء، الراحة، البعد عن الانفعال.. وها هو في موقف لا يحسد عليه.. رئاسة الرابطة تلتهم وقته وصحته.. لكنه لا يتراجع.. يقوم بواجبه.. إضافة إلى عمل الترجمة الذي يقوم به في الإذاعة.

سأل جورج فجأة:

– ماذا تكتب لنا من جديد؟

– رواية عن الغربة..

حدثه عن «هيدجي» المجري، المفتون بالتحف، وكيف يحرم نفسه وعائلته ليقتنيها.. روى له قصة الأسباني الذي مات في الصين، ولم تأخذ زوجته سوى زهرة عن نعشه، ستحملها معها إلى الوطن، أخبره عن المرتزقة الذين أطالوا ذقونهم وحلقوها في الصين.. أكّد له أن حياته، هناك، كانت هانئة، لكنه يتطلع صوب الوطن، يريد الاقتراب منه والعودة إليه في أول فرصة..

طاب الحديث، تطاول، تفرّع، شمل الذكريات، شمل سهرة الأمس، وزيارة الأصدقاء المجريين للمتحف، وإعجاب روزيكا به إلى حدّ الجنون..

صاح جورج، وهو يفتح زجاجة بيرة أخرى:

– ايشو هاد خاي.. هل جئت لتفتن المجريات؟

تنهّد كرم، قال بنبرة أسى:

– ليس بودّي أن أفتن أحداً.. ما تغرّبت طلباً للملذات.. أنا بحكم المنفيّ.. علي أن أعمل..

وإذا كان هذا المتحف اللعين سبباً في انشغالي، فإنني مستعدّ لإعادته إلى الصناديق، إلى بيعه أو إتلافه..

قال جورج:

– ليس إلى هذه الدرجة.. أن نتسلّى قليلاً، ونحن ندرس أو نعمل، فهذا جيّد.. ما أظنّك تسمع جديداً مني.. أنت تعرف أشياء كثيرة.. لك خبرة طويلة بالحياة، وهذا يظهر في رواياتك..

– الخبرة وحدها لا تكفي.. أن نمارسها، نفيد منها في عملنا، عندئذ نقدّم خدمة ما..

– ما نريده منك أن تكتب.. هذا واجبك الأول.. ولن

تستطيع ذلك إذا اعتزلت الناس.. نحن لسنا زهاداً.. لا تشعر بذنب لأنك تتسلى قليلاً.. ثم أنت محظوظ.. وايرجكا هذه.. وبيروشكا التي هربت..

- لاحظت هروبها؟
- طبعاً!
- أنا لم أفهم تصرُّفها.. ايرجكا ليست سوى ضيفة كسائر الضيوف..
- هذا ما يمكن أن تقوله لي.. أن تقنعني به.. لكن بيروشكا تفكر على نحو آخر.. إنها تحبّك..
- وكيف عرفت بهذه السرعة؟
- من نظراتها إليك، جلستها إلى جانبك.. ثم كونك كاتباً، ولديك هذا المتحف.. وهذه الأريحية..

قال كرم:

- هذا جائز، بل هو واقع.. تحدّثنا به.. سألتني عما إذا كنت أحبّها.. لم أشأ أن أكذب..
- وماذا قلت لها؟
- صارحتها بما في نفسي.. أولاً أنا لا أحبها.. أعني لا أحبها ذلك الحب العاصف، الذي يروّض الإنسان، ويملك عليه نفسه.. ثم هناك فارق العمر.. شمسها تشرق، وشمسي إلى غياب.. فكّر بهذا يا صديقي.. الربيع والخريف لا يلتقيان..
- واقتنعت هي بهذه الحجج؟

طبعاً لا.. عرضت عليها، بعد ذلك، صداقتي.. اتفقنا على أن نكون صديقين..

- وايرجكا؟
- هذه لها قصة..

روى كرم، وهو يشرب بيرته المثلوجة، كيف التقى ايرجكا، بمحض مصادفة.. وكيف ذهب معها إلى الملهى الذي تغنّي فيه، ثم إلى بيتها، وكيف جاءت ليلة أمس لمجرّد زيارة عابرة، ووجدت نفسها، فجأة، في سهرة عربية حلوة، وكانت سعيدة، كما أظن، لأن بيروشكا لم تصمد أمامها...

- هي قالت ذلك؟
- ايرجكا لا تقول هذه الأشياء الخاصة. المرأة المجرية، كما يخيّل إلي، تمارس سعادتها وحزنها في ذاتها.. لكنني أدركت.. كل شيء فيها كان ينادي بانتصارها.. ولشدّة زهوها، استخفّت بما رأت من تحف عندي.. لم تصرخ «جونيري».. اتّصلت بالملهى وألغت فقرتها.. قالت إنها متوعكة..
- وبعد؟
- ذهبنا نطوف في الشوارع.. ثم إلى بيتها..
- وبيروشكا؟
- لا خبر لديّ عنها.. كان يجب أن أسأل، لكنني أجهل رقم هاتفها.. أجهل كل شيء، سوى أنها في كلية الآداب..

قال جورج:

- بيروشكا تحبّك كما يبدو.. لم تحتمل رؤية ايرجكا.. الغيرة نهشتها.. عرفت أنها غير قادرة على المنافسة.. ألقت سلاحها بغير قتال..
- تحسب أن قتالاً ينشب بين امرأتين لأجل عجوز مثلي؟

ـ قال جورج:

ـ هذا سؤال تعرف أنت جوابه.. لكنك تبحث عن توكيد.. أنت يا عزيزي لست عجوزاً.. أكبر من بيروشكا هذا صحيح، وحتى أكبر من ايرجكا فهذا واقع، لكنك لست عجوزاً.. بيروشكا تحبك.. ايرجكا تقوم بمغامرة معك.. الكاتب، هنا، شيء عظيم.. الفنّان يتمتّع بالحب والحياة والمال أيضاً.. ماذا تخسر ايرجكا معك؟ تربح..

ـ لكنها لا تريد شيئاً.. رفضت النقود عندما عرضتها عليها.. كادت تصفعني..

ـ وهل عرضت عليها نقوداً؟

ـ في الليلة الأولى...

ـ ارتكبت حماقة.. ايرجكا ليست بحاجة إلى نقود، ولا إلى معجبين.. ولو حضرت الأمسية الأدبية لرأيتها تلتصق بك.. وبعد زيارتك، ورؤية المتحف، ومعرفة أنك كاتب، ستظلّ على صلة بك، وقد تسرّب خبراً فنياً عن علاقتها بك.. هذا يرضيها، يزيد في شهرتها أيضاً.. أخطأت في عرض النقود.. الهدية كانت أفضل.. أن ترسل لها باقة زهر إلى البيت، إلى الملهى.. أن تُقدّم تحفة مما لديك.. هذا أوقع.. المرأة المجريّة حسّاسة جداً..

ـ فعلت شيئاً من ذلك..

ـ أحسنت، ولكن قل لي، ماذا ستفعل ببيروشكا؟

ـ ما بها بيروشكا؟

ـ هذه تحبّك حقيقة.. احرص عليها.. أسأل عنها..

ـ أين؟ في الكلية؟

ـ تعرف كليتها؟

ـ أوصلتها ليلاً.. لكنني، صدّقني، غبيّ في الجغرافيا، مثل غبائي في الحساب..

ـ سنسأل الطلاب أين تقع كلية الآداب..

ـ أكون شاكراً لو فعلت..

شربا ما تبقى في الزجاجة وافترقا.. عاد كرم إلى بيته.. وما كاد يستقر حتى قرع الباب.. كانت هذه البوابة، وكان في يدها مغلف أبيض، دفعته إليه وقالت:

ـ بيروشكا!

صاح فرحاً:

ـ بيروشكا؟

ـ ايكن.. (نعم)

ـ كوسينيم سيبين (شكراً جزيلاً)

ابتسمت البوابة ابتسامة ذات معنى.. ومضت دون أن تقول شيئاً آخر..

- ١٣ -

فعلاً كانت الرسالة من بيروشكا..

من أوصلها؟ متى أوصلها؟ هل جاءت بنفسها، وضعتها في نافذة البوابة ومضت؟ ما أرادت أن تراها، أن تقول لها شيئاً؟ أن تجعلها ترى، في مرآة الوجه، خيبة الريح في أن تهزّ غصناً، وتلعب معه؟ في أن تقف، هي التي دخلت المبنى، إلى جانبيه مزهوّة، في حالة انكسار، كزنبقة حقل طوّحت بها، قصفتها عصا رعناء، لمزارع جلف، لا يحفل من الأرض بشقائق النعمان، بشارة ربيع قادم؟

لم يسأل البوابة شيئاً. لو كانت بيروشكا عندها، في غرفتها، في المدخل، أمام المبنى، لقادته إليها، لسحبته من يده لمصالحتها. كانت تعرف. تلك التي ترصد حركة الناس، في ذهابهم وإيابهم، ومن وقع الخطى، على بلاط المدخل، ومن الضحكة، على باب المصعد، ومن تعانق اليدين، سر الحكاية بينهم، وماذا في القلوب من أشياء تفضحها الشفاه، كالعين، وما تخفي الصدور.

دخل البيت. لهفته أشعلت الضوء، يده قرأت الرسالة قبل عينيه. من داخل المغلف، وهو يفتحه، انطلقت ميجانا: «حبّوا علينا بس حبّو مثلنا». انطلقت في نغمة أسيانة، كمن يوصي وهو يبتعد، لقد هوى قمر من المودّة، تحطّم، خاب أمل، ترنّح، انفصل

عن النجم الذي علّقه بعيداً، في القبّة السليمانية، البلورية، الشفّافة، المضاءة في ليلة صيف على الدانوب.

كانت الرسالة بالمجرية. مؤسف غنات الخطّ الأنثوى هذه، كيف السبيل إلى فكّ رموزها؟ كتبت نفسها بلغتها، وجدتها أكثر مطاوعة في البوح، في النجوى، في الشكوى، في أن ترسم نفسها دموعاً على الصفحات..

ومع الرسالة كانت قصيدة، حاولت، بقدر ما لبّت اللغة، أن تترجمها إلى الفرنسية، لكنها نقشت مفردات فقط: الحزن، وقع الخطى على رصيف الشارع، وحشة الليل، وحشة النفس، يتمها، وانت، انت انت.. لماذا؟ بأيّ حق..؟ وتلك المرأة.. وداعاً.

ارتدى سترته بحركة فجائية، لا واعية. ترك الضوء مشتعلاً، النافذة مفتوحة، الصمت المتسائل، وصدى العتابا. فرّ إليها. هربت منه. هرب إليها. كان عنوانها على ظهر المغلّف. لم يتوقف عند البوابة ليستوضحها. ما عرج على جورج ليستنطقه الكلمات الغريبة. أشار إلى أول تكسي، ألقى نفسه داخل السيارة، دفع إليه بالعنوان. أشعل سيكارة.. قد تكون أوصلت الرسالة وعادت. إذا لم يجدها فسينتظرها. إذا نامت خارج الكلية سيترك لها كلمة «وقع الخطى على رصيف الشارع» والحزن أثر، خيط طويل كما في الاسطورة، كي يهتدي به، وهو، الآن، يحسّه، يضع إصبعه، كطبيب شرعي، في الجرح الغائر.. الجرح الذي بيديه، في مصادفة غريبة، أحدثه.. والدم يرعف، ولم يكن جزاراً، ولا كان يوماً ذابح عصفور أو عنقود..

أوقف السيارة على باب الكلية. لم يصرفها. إذا كانت

سيخطفها. لم يأتها على حصان عندمي ليردفها وراءه.. لا هو بالفتى، ولا لابس «قلبق».. العمر والجوّ، كلاهما لا يسعفان.. السيارة وحدها، لو رآها، ستكون أرجوحتها، في الفضاء المعلق.. وستتلاقى العيون، ويكون صمت، تقطعه ابتسامة..

جاءت بيروشكا، بعد دقائق.. منكسرة، جزعة، تصدّق، ولا تصدق، وما أن رأته حتى صاحت:

- كرم!
- بيروشكا!
- لماذا جئت..؟
- ولماذا هربت؟..
- هيا..
- إلى أين؟
- لا أدري..
- أنت لا تريدني..
- من قال هذا؟
- وايرجكا؟
- يا صغيرتي، يا بنيتي، يا مجنونتي العزيزة!

كان، حتى في كلمات النجوى هذه مكفّراً عن ذنب أكثر مما هو حب. هي تعرف هذا، تعرفه ولم تعد تخدع نفسها عنه. صديق صدوق. هذه هي الكلمة، غيرها، لعبة وهم. فوق ذلك، ايرجكا التي جاءت. لقد وافقت أن يكون صديقها لا حبيبها. قنعت بما هو أقل، على أمل أن يتبدل، أن يصبح، يوماً، لها وحدها، ثم، في مواجهة الحقيقة، كانت ضعيفة حياله، تحبّه، تحبّه ولو لم يحبّها.

الصداقة، حين تكون بحجمها، نوع من الحب، وعلى هذا النوع وطدت النفس، لكنه، حتى في هذا، يمنح نفسه للأخرى، للتي لا تريد، ولا تستطيع، أن تدخل معها في منافسة. هربها، في التفسير الذي أعطته له، وهي تتقلب على شوك سريرها ليلة أمس، كان تضحية لا عجزاً. فكرت، في لحظة تسام، أن تكون راهبة دون دير. تحبّه، لكنها، في المقابل، لا تطلب أن يحبّها، ستظل كذلك، لكنها لن تقبل صداقة الأخرى، مهما كان الابتعاد أليماً. الآن، في نوبة الارتفاع على معنى العقوق، تعطي لنفسها مدداً صوفياً، وتنشد، في الراحة التي تسعى إليها، اليأس المريح.. لكنه جاء. طلبها. انتظرها في الباب، المقاومة انهارت. مريضة هي، والطبيب في الباب.. حبة المسكن في جيبه، في كفّه، وكأس الماء جاهزة، الشفتان، والقلب، والعصب المتفتت، كل ذلك يتطلب الرحمة! إنها تحت رحمته، ومقابل مجيئه تنسى.. وقد نسيت.. الحب ينسى، يسامح، يصفح، وهي محبة، عاشقة، والإله الذي تتعبّده، قادر أن يجعلها قرباناً للذبح.. يا إبراهيم.. توقف عن ذبح ولدك.. إليك بالكبش، إنه الفدية..

قال لها:

- هيا..

ولم تقل «لا»

لم تكن تستطيع.. منومة هي، مسلوبة الإرادة.. خذني.. وأخذها.. أمسكها من يدها، وخرجا من الباب، خرجا من الدير.. الراهبة غادرت الدير.. تصرف يا إبراهيم بولدك كما تشاء.. خطفتها السيارة. «إلى أين؟» «حيث تشاء». مضت، مضت، مضت.. قناديل المدينة أضيئت.. تلوّنت الواجهات.. الأرض

استحمّت بالنور. عطر ليلة صيفية. شيء ما يصلّي. الأرض تصلّي، ترفع صلاتها إلى الأعالي.. بيروشكا التصقت بكرم. وضعت رأسها على كتفه.. شعرها تهدّل. سرقته الريح، تطاير.. ضمّها إليه. القطة الأليفة استكانت.. أعطت نفسها للطمأنينة.. هاك شعري.. الأصابع في الشعر.. ابتسامة حبيبة.. وماذا يقال، في موقف كهذا؟ هو لا يدري.. هي لا تتكلم.. صمت.. والسيارة تدرج، تصعد جبل كيللرت.. بلغت القمة.. نصب الجندي الأحمر.. القلعة العثمانية.. توقّفت.. ترجّلا «ما رأيك في سماع موسيقى السيكان؟» سألت:

- تحب الموسيقى الغجرية؟
- أحب الغجر..
- أنت لست غجرياً..
- لا.. ولكن «رأيت غجراً سعداء»..
- إذا صرت غجرية أصبح سعيدة؟
- إذا هربنا من المدينة نصبح سعداء..
- إلى أين؟
- ترين الأفق البعيد؟ إلى هناك..
- ليس في الأفق سوى الغمام الدامي..
- نصبح غماماً دامياً..
- أنت لا تضحك علي..
- أبداً..
- بودّي لو أتحوّل إلى غمامة.. غمامة تمطر، تمطر، تمطر..
- وإذا بدّدتها الريح؟.. عندئذ تصبح ذرات مائية في الجوّ..

- وأين تسقط الذرات المائية الميتة التي في الجوّ؟ ألا تعود إلى الدانوب؟.. انظر ما أجمل الدانوب.. ماؤه المنساب. جسوره الفخمة، سفنه النهرية.. تحب الدانوب يا كرم؟
- كثيراً جداً.. أحبّ بودا.. وبست، وكيللرت.. والبازلكا..
- وأنا؟
- وأنت.. أنت صديقتي الأثيرة.. أنت عزيزتي الصغيرة..
- وماذا بعد؟
- وماذا تريدين؟
- ألن أكون حبيبتك؟
- لندخل إلى القلعة.. لدينا وقت طويل جداً للكلام..
- لكنني سعيدة بالوقوف هنا، فوق كيللرت.. ومن تحتنا المدينة، يقطعها الدانوب، كمدية زرقاء.. دع الليل يهبط أكثر، يلقي علينا ثوبه الرمادي، يحجبنا عن الأنظار، يدعنا وحدنا.. وحدنا هكذا.. إلى الأبد..

فكر كرم: «هل تحلم بيروشكا وهي واقفة؟ أوقظها أم أدعها يسترسل في أمنية مستحيلة، خادعة، كالكذبة البيضاء؟ أقول لها إن هذا التوحّد الأبدي، الذي تحلم به، لن يكون أبداً.. وأن المصادقة التي جمعتنا، هي نفسها، ذات يوم ستفرقنا..؟ أعطيتها كلاماً بلا حبّ، أم حباً بلا كلام.. أنا لا أستطيع.. ما زال العقل يحكمني.. لم أجن بعد.. قد يحدث ذلك يوماً، لكنني الآن، وأنا أقف على أعلى قمة في كيللرت، أكاد أمد يدي إلى النجم، لن أجعل النجم يلعنني. لن أكذب.. لماذا تريدني أن أكذب؟ لماذا لا تكتفي بالصداقة؟..

قال لها:

– بيروشكا! تشكّين في صداقتي؟

– أبداً..

– لماذا لا تكتفين بها؟

– لأنها لا تكون بين رجل وامرأة، وتدوم..

– كيف؟

– لا أدري.. الصداقة بين الرجل والمرأة كذبة شنيعة..

– لم أفهم..

– أنت تفهم جيداً.. ليس لمثلي، أنا طالبة الآداب، أن تعلّم كاتباً مثلك.. أقول لك الصداقة بين الرجل والمرأة كذبة.. خدعة قصيرة العمر.. تتقدّم فتصبح حباً.. تصبح نهراً، كالدانوب الذي يسيل، متجهاً إلى أمام.. أو تتراجع.. وعندئذ يكون الفراق.. لا شيء ثابت.. هذا ما تعلمناه في المدرسة.. وأنت تعرفه جيداً.. دعنا ندخل القلعة.. من العَبث أن يستجدي الإنسان حب الآخر.. هذا لا يصير.. أنت لا تحبّني.. أنت لا تستطيع أن تحبني.. وكذلك لا تحبَّ ايرجكا.. تقضي وقتاً طيباً معنا.. ثم ينقضي الوقت الطيِّب.. انتهت الدورة.. لكل شيء دورة، للعمر، للحبّ، للصداقة، هذا ما يقوله أحد شعرائنا.. دورة صداقتنا ستنتهي أيضاً.. لا بأس.. لن أبكي سلفاً.. كفى ما بكيت ليلة أمس.. لنسرع إلى القلعة، أريد أن أشرب، أن أسكر، أن أغيب عن الوعي..

تقدّمته في السلالم الحجرية، في الدهاليز الضيقة، المنارة، دخلت مطعماً مضاء بالشموع.. السهرة لم تبدأ. الموسيقى لم تعزف.. لكن

الشرب ممكن.. حسناً.. هي ستشرب.. وفي آخر الليل تذهب معه إلى البيت.. ستقول له خذني.. لا تخشى أن تحمل منه.. تريد أن يحدث ذلك.. ليكن لها كرم صغير.. كرم تحدّثه يوماً عن أبيه الذي مرّ ببودا مروراً عابراً.

انتقى طاولة في زاوية. عند نهاية قوس حجري. الأتراك مرّوا من هنا أيضاً، بنوا هذه القلعة، حكموا المجر قرنين كاملين.. ثم عصفت بهم الريح.. كل شيء يمضي.. الزمن يسيل.. هذه الليلة أيضاً تسيل. لامارتين، على بحيرته، تمنّى وقوف الزمن.. الزمن سخر منه.. سال.. الدورة، كما قالت بيروشكا، ستكتمل.. عندئذ تبقى الذكريات.. صفائح أو أطيافاً.. لعل بيروشكا طيف.. لعله هو الطيف.. زمنه لم يأتِ بعد.. في الأربعين وزمنه لم يأت بعد.. حبّه الكبير، حنينه المروع، نداء الأنثى التي في القمر.. من يبلغ القمر..؟ الإنسان.. لكن القمر، عندئذ، لا يظل قمراً.. يصير جرماً مكتشفاً.. كل ما نكتشفه نألفه، كل ما نألفه نضجر منه.. الجمال في البعيد. الحب في البعيد، الحنين في البعيد.. كل شيء، إذا اقترب، انتهى.. على الأشياء أن تبقى بعيدة، لكي تظل حبيبة، عليها ألاّ تقترب..

كانت الطاولة لشخصين. عليها شمعتان، عليها صحنان وأربعة أقداح.. عليها، أيضاً، غطاء أبيض.. عليها، من الماضي البعيد، حروف غير مطبوعة، غيرمقروءة، لكنها، مع ذلك موجودة.. هو يقرأها...وبيروشكا تسأل:

– بماذا تفكّر؟

– ليس بايرجكا على كل حال؟

- بل فيها .. لو كنت معها ، كنت أسعد حالاً .. أليس كذلك؟

- لماذا ، في نظراتك ، قرار اتهام دائم؟

- لأني ضبطتك بالجرم المشهود..

- كان أفضل أن تدرسي القانون..

- حدس المرأة قانونها.. حساسيتها لا تكذبها أبداً..

- ولكنك مجربة.. متى تحصّلت لك كل هذه الخبرة ، ومن أين؟

- لن أقول لك من الكتب وحدها.. أنا طالبة جامعة.. معنى هذا لست صغيرة كما تظنّ.. كفّ عن مناداتي يا صغيرتي.. لا أرغب كثيراً في التدليل.. أفضّل عليه الاستقامة.. قد تكون فيها بعض الخشونة ، لكنها أفضل.. قل لي: تحب ايرجكا؟ كن صريحاً.. قل الحقيقة وسأصدقك..

- لنشرب أولاً.. أيها الساقي إلينا بزجاجة نبيذ مبردة ، من أجود أنواع النبيذ. أم تفضلين مشروباً آخر؟

تذكر لقاءنا الأول؟ شربنا نبيذاً.. لنشرب ، الليلة أيضاً ، نبيذاً ، لعلنا نستعيد الفرحة الأولى..

- في الشعر يقولون الفرحة البكر..

- لم أصبح شاعرة بعد.. وقد لا أصبح أبداً.. وما النفع؟ لن أكتبه؟

- جاءت زجاجة النبيذ.. تذوّقها كرم وهز برأسه موافقاً.. ملأ الساقي الكأسين.. شربا.. رجاها:

- لا تكثري.. تمهّلي في البدء.. لا تكوني مجنونة..

- وماذا يهمك أنت؟

- بيروشكا.. كوني عاقلة.. أنا لك.. صدّقيني..

- للرجل صديقة واحدة.. وكذلك للمرأة صديق واحد..

- أنت صديقتي الوحيدة..

- والأخرى.. ستقول لي إنك تعرفت إليها مصادفة.. بالمناسبة ، لماذا أنت غاوي مصادفات؟

- ذلك أن حياتي كلها مصادفات.. كنت في صغري ناحلاً إلى درجة أن أمي توقّعت موتي كل يوم.. مع ذلك عشت.. كبرت ، تشرّدت.. ذهبت إلى الصين مصادفة ، وجئت إلى المجر مصادفة ، ولقيتك مصادفة ، ولقيت ايرجكا مصادفة أيضاً..

أضاف:

- ومن ستلقى مصادفة أيضاً؟

- لا أدري ، لكن ذلك سيحدث.. وستكون المصادفة الأخيرة في حياتي.. المصادفة الأجمل ، الأقبح ، لست أدري ، لكنها ستكون الأكبر بغير شك..

- أنت لا تقول هذا لتغيظني؟

- أبداً.. أقولها لأشرح نفسي..

- اشرح لي كيف التقيت ايرجكا..

قصّ عليها مصادفته الغريبة.. تشبّث الإبهام في عينيها.. قالت:

- هذا لا يحدث في مئة سنة مرة واحدة..

- لكنه حدث..

- أنا لا أصدق..

- وأنا لا أسألك التصديق..

- أتصور اللقاء بما كان على النحو التالي: ذهبت إلى الملهى ،

سمعتها تغنّي، رأيتها جميلة جداً تحت الأنوار.. أرسلت لها زهوراً.. دعوتها إلى مائدتك.. تودّدت إليها، قلت لها إنك غريب.. ذهبت معها آخر الليل إلى بيتها. أعطيتها عنوانك.. جاءت فانبهرت.. هي فنّانة وأنت فنان.. زوجان لائقان.. ثنائي فنيّ مدهش.. كسبتها بعد أن كسبتني.. ظفرت بنا معاً.. أنت صديقها كما أنت صديقي.. هذه هي الحكاية.. لكنني، أنا، لا أريد.. إما هي وإما أنا.. أدعُ لك فرصة للتفكير والاختيار..

– سيكون علي اختيار البُعد عن الجميع.. أنا لست هنا للدخول في علاقات متشابكة.. لديَ عملي، ولديّ كتابتي.. ايرجكا لا تغار علي كما تغارين.. لا تفعل بي ما تفعلين..

– وما السبب؟ قل أنت.. من لا يغار لا يحبّ..

– والوثوق بالنفس؟

– هذا ضروري، من جهتي لا أثق بنفسي، لم أتمرن على ذلك.. أنا ضعيفة.. يرضيك هذا..؟ ضعيفة، أشك، أغار، أريدك لي وحدي، وحدي، أتفهم طلب المرأة هذا؟

– أفهمه.. الرجل يريد المرأة له وحده أيضاً.. لكن ذلك يصير في علاقة حب..

– أنا أحبك.. وأريدك أن تحبّني.. لماذا غرّرت بي.. من المسؤول؟

– الحب لا يكون من جانب واحد.. لا يكون بهذه السرعة.. لست مسؤولاً عن شكوكك وأوهامك.. صارحتك، منذ البدء، أنني لا أستطيع أن أحب.. إنني عاجز عن ذلك.. حدث هذا أم لا؟

– حدث، ولكن بعد ماذا؟ ألا تراه أمراً مخجلاً أن أطلب، أنا الفتاة الصغيرة، وأنت.. يكفي.. يكفي..

أطرق ولم يقل شيئاً، قالت ما تريد قوله.. فهمه.. أنا الفتاة، وأنت العجوز.. هذا ما أرادته لكنها لم تملك الشجاعة.. ربما اندفعت فيه بغير وعي.. ولكن الإهانة حصلت.. لا بدّ من وقف هذا الحوار.. الصداقة تحتاج إلى تضحية.. لكنها أنانية.. أنانية لأنها محبة.. ؟ماذا يبقى من الحب إذا لم يكن الحب أنانياً ؟ الأفضل أن نفترق. محال أن تفصلني على مقاسها. ضاعت لمفتي، باخت.. لن أهيجها أكثر مما فعلت.. لا تستطيع، تحت مشاعر ثائرة، أن تقدّر عواقب اندفاعها..

كان المقهى قد ازدحم الآن. تلألأت الشموع على الطاولات.. تردّدت في الجو الكهفي انغام الكمان.. هذه هي موسيقى السيكان.. موسيقى تعبّر عن القلق، الترحال، التوحُّش.. طبيعة أقرب إلى البدائية.. غرائز ساغبة، تبحث عن تحقّقها بالعنف، بالصراع مع الذات، مع الآخر.. بإخضاع الآخر بالقوة.. عواطف فطرية.. فيها حزن، فيها فرح، فيها ضجيج، فيها شهوة متفجّرة، وآلام متفجرة، كأنها هي صرخات احتجاج على شيء معاش، على واقع يعرفه الغجري، يحبه لكنه يتألم منه أشد الألم..

طلب زجاجة نبيذ أخرى.. ساد الصمت بينهما. طال. تطاول، تمطّى.. جثم على المائدة.. امتزج الحب بالكره في عينيها.. لاذ هو بلامبالاة باردة كالفولاذ.. قرّر أن يتوقّف عن الحوار الذي أصبح مماحكة.. الصداقة، بالنسبة إليه، أغلى من الحبّ، لكنها، هي لا تريد أن تفهم، ولا تقوى على التصديق.. ماذا عليه أن يفعل، في هذه الحال؟ ايرجكا كانت لطيفة. كانت صديقة. لم تطلب، لم

تشترط.. لم تطمح إلى الاستئثار.. ولن يجزي مودتها إلا ما تستحق.. قد يدَعُها، يتجنّبها، ينصرف إلى عمله.. لكن ذاك لم يحدث إرضاء لسلطة خارجية.. لن يقع لأن امرأة أخرى تريده..

طاف المغني وعازف الكمان على الموائد. رنّت ضحكات نسائية من حواليه، تصاعد الدخان وانعقد في جو القبو.. راقب الوجوه، اكتشف أن أكثرها غريب.. سيّاح من كل البلدان. لغات متعدّدة.. بعد نهار من التجوال، قصدوا القلعة الأثرية للاستمتاع.. «لم ينجح بلد كما نجحت المجر في جمع أغانيها الشعبية وتطويرها..» هذا ما قاله نصر جميل.. ذكر اسم الموسيقي الشهير بيلا بارتوك.. الفولكلور المجري الأصيل.. السيكان جزء منه.. الذين هنا جاءوا لأجله. ملّوا الهدوء.. الرتابة،، اللطف، ضجروا من التصرّف المحسوب، وفق القواعد.. جاءوا ليتحرّروا. لينعتقوا، لينطلقوا.. ليعودوا، ولو لوقت قصير، غجراً سعداء..

قالت بيروشكا لتقطع الصمت ليس إلا:

- تحب موسيقى السيكان؟
- كثيراً!
- سمعتها قبل مجيئك إلى المجر؟
- أبداً.. صديقي نصر، عازف العود، هو من لفتني إليها..
- هل أنت صامت لأنك تصغي.. أم لأنك انصرفت عني..
- أنصرف عنك؟ يمكن هذا يا بيروشكا؟ لقد فكرت قليلاً، فكرت وأنا أصغي.. هذه الموسيقى الغجرية.. هؤلاء الغجر.. وأنت.. أنت العزيزة، القلقة، النزقة.. أنت تشبهين، في تقلب

أطوارك، تقلّب هذه الموسيقى في تفجّرها، في صخبها، ووداعتها.. آه لو تقدّرين كم في صدري من معزّة لك!!

وصل المغني وعازف الكمان إلى مائدتها.. العزف يكون، يشتد، على قدر الاستجابة.. كرم استجاب.. طرب، طغى الحبور على وجهه.. ابتسم لبيروشكا.. ابتسمت له.. تصالحا.. هاما في الموسيقى.. اندغما بها.. صارا حكاية موسيقية.. والمغنّي تحمس والفتيات العاملات، بالثياب المجرية الشعبية، المطرزة، المزركشة، والمواويل على الصدور يرحن ويجئن..

وأعطى كرم.. اجزل العطاء. تكلم الغجرية عطاء. عزف، غنى، رقص.. عبر عن ذلك بما يستطيع، بما يملك.. فقالت بيروشكا:

- لاتسرف.. إنهم يعزفون للجميع، بعد كل شيء..
- لكنهم، في هذه اللحظة، يعزفون لي، لك.. لنا نحن الاثنين.. ومن خلالنا للآخرين.. وهذا جيد.. أنا لا أريدهم ملكاً خاصاً.. الفرحة، مع الجمع، تكبر.. العزف، في مقهى كهذا، أوقع في النفس مما لو كان على أسطوانة.. أحبّ الناس يا بيروشكا، أحبّهم.. وقد يكون هذا تعويضاً عن نقص، تكفيراً عن ذنب. لست أدري.. المهم أنني سعيد، سعيد بك جداً..

مدّت يدها، فوق الطاولة، وأخذت يده.. عربدت النشوة في دمه. نظر إليها. أطال النظر.. التهمها.. أكلها.. شربها خمرة معتّقة.. ودّ أن يبادلها عاطفتها الكبيرة بمثلها، لكنّه في هذه الليلة، لا يرغب أن يكون غيره في الغد.. غداً ستهبط جنّية القمر وتختطفه.. ستأتي، ومعها شعلة صغيرة، تضعها في صدره، بين ضلوعه، ومن جديد، حين تغيب، يتفجّر حنين مبهم مجهول..

تشتعل نار.. لمن؟ هذا هو سرّ القمر، سرّ جنّية القمر، التي يوماً ما، يوماً قريباً أو بعيداً، ستتجسد على شكل امرأة، ومثلما بيروشكا الآن، تتعذّب لأجله، سيتعذّب هو لأجل تلك.. لكنه سيكون عذاباً لذيذاً.. وعلى ركبتيه كالمتعبد، سيسجد للآتية من درب لم يطرقه بشر بعد..

انتصف الليل، شربا كثيراً. بيروشكا نسيت نفسها، ألقت شكوكها، همومها، غيرتها، كدرها، وكل المشاعر المغايرة للحظة الفرح في بئر اللاشعور.. عادت قطة أليفة. ولكن سكرى، طالبة ولكن امرأة... عاشقة لكنها قادرة على المسامحة، في سبيل ليلة حب غجرية كهذه الموسيقى..

دفع الحساب.. مشت أمامه مترّنحة.. أراد أن يسندها فرفضت.. قالت له:

- ضع ذراعك على كتفي.. اعتصرني قليلاً.. قبّلني هنا، في دهاليز هذه القلعة، قبّلني عندما نخرج، حين نصير قبالة الدانوب.. ثم خذني.. خذني حيث شئت.. فقط لا تُعدني إلى الجامعة.. لا أريد العودة إلى الجامعة..

- ١٤ -

لم تعد، تلك الليلة، إلى الجامعة، تعذّر عليه إقناعها بأن تفعل. حين خرجا من القلعة، طلبت أن تمشي قليلاً في الليل. كان راغباً في إرضائها، لو سألته أن تلعب بنجمة، لحاول، مع وعيه باستحالة ذلك، أن يأتيها بها. كان يسير، وهي تلقي برأسها على كتفه، والريح الطيّبة، المسحورة، التي تأتي لتلعب مع القلعة، تمرّ بالشعر الجميل، وتعبث به، وتلفح بشلاله، وجهه وعنقه. من عجب أنه كان في ذروة صحوه، كأنه لم يشرب خمراً، مجرّد وجودها معه، في جلباب الليل، استنفر وعيه لحراستها، كان يتلفت، وهما يسيران، حذر أن تحدق به عينان عذولتان. أن يقف رجل أو امرأة، وكلام يقال، عن أب وابنته. كان شرقياً.. رجلاً شرقياً. لم يقوَ على دفع شعور بأن شيئاً ما، بينهما، يبدو نشازاً. وكان، في سره، يلعن هذا الشيء، هذا الشعور بفارق العمر، بينما هي تلتصق به، تلتحم، محتمية من خطر، راغبة في اتحاد أقوى، أقوى، كأنها تتدفأ في صدره، تحت ذراعه الملقاة على كتفيها، أو كأن خشية تراودها من تركها في الجبل، والاختفاء، كشبح، مثلما، ذلك اليوم، ظهر في المقهى، إلى جانبها، كشبح أيضاً.

وقفا على حدّ الجبل. كان ثمة، في ما يلي الطريق، حاجز

اسمنتي، وتحته الهاوية. تحته منحدر من أشجار، وبيوت مزروعة بينها، تنتهي إلى الطريق الممتدّ على ضفة الدانوب، حيث تتفتح ورود من نار، في خط من السيارات لا ينتهي. وعلى الجسور الخمسة، تتفتح ورود أخرى، منعكسة في الماء، سابحة مع تياره. والسفن النهريـة، الطويلـة، المسطحـة، تمرّ من تحت الجسور، والأخرى، الراسية، الشبيهة بالعوامات على النيل، ترسو على الضفتين، تشع منها أنوار ملونة، ألوان مصابيح، مطاعم، ملاهٍ، اتخذت من هذه السفن مقاراً لها.

رفعت رأسها وأعطته شفتيها، كانتا حارّتين، عذبتين، وعلى صدره، أحس بنهديها، وهي تضغط، وما تفتأ تطلب المزيد، هامسة: «قبّلني أكثر.. أعنف.. أريدك.. أشتهيك.. أشتهيك بجنون» وفجأة تسأله كأنما لتطمئن:

- أنت لن تعيدني إلى الجامعة هذه الليلة؟
- لن أعيدك..
- وستأخذني إلى بيتك؟
- سآخذك إلى بيتي..
- وماذا تقول البوابة عني؟ عاهرة؟
- لن تقول أيّا شيء سيّئ.. هي تعرف..
- وإذا جاءت ايرجكا؟
- لن تأتي ايرجكا..
- أنا أقول إذا جاءت..
- لكنها لن تأتي..
- لا اليوم ولا بعده ولا بعده؟
- لن أدعها تأتي أبداً..

- أنت لا تضحك مني.. أليس كذلك؟
- لا أضحك أبداً..
- ولا تحسبني سكرى؟
- أنت في صحو كامل..
- ليس تماماً.. لكنني أفضل..
- هذا بفضل الهواء المنعش..
- هل كنت لطيفة الليلة؟
- أنت دائماً لطيفة..
- ولم تغضب لأنني تكلمت على ايرجكا؟
- ولماذا أغضب؟ كان يجب أن نتصارح..
- لكنك تحبها..
- أنا لا أحبها.. هي صديقة لا أكثر..
- لا تقل هذا.. الصديقة في عرفنا، تعني...
- الصديقة، عندنا، تعني صديقة فقط.. ما رأيك أن نمضي إلى البيت؟
- أنت تتهرب من أسئلتي..
- الليلة لا أسئلة.. شيء من الموسيقى.. ثم نوم.. هيّا..

في الصباح كانت لديه مشكلة صغيرة.. بيروشكا، التي أجهدت نفسها كثيراً، لا تريد أن تستيقظ. كان قد ألبسها، نزولا عند رغبتها، منامة صينية، وحين أفاق، كان نوع من حنان قد شاع في نفسه، وهو ينظر إليها، مستغرقة في النوم، كدمية صينية، هادئة، وادعة، مستسلمة، وشعرها منفلش على الوسادة. أشفق عليها. رغب في أن يَدعها نائمة ويذهب إلى الجامعة، لكنه يعلم أن عليها أن تذهب، هي الأخرى، إلى كليّتها، هذا ما يجب، لأن عليها أن

تنجح، وعليه ألا يتسبَّب في رسوبها. كان يستشعر في هذه النقطة، مسؤولية لا يقبل نقاشاً حولها.. أعدّ القهوة. حاول إيقاظها. ناداها، قبّلها وهي نائمة، كرّر المحاولات، لم تستجب، كانت لا مبـالية، تريد أن تنام، وترجوه أن يدعها، وأن يبتعد عنها. لكنه أصرّ. أيقظها برغمها، حملها على أن تنهض، وأن تغتسل، وأعد إفطاراً بسيطاً، وعندما، في آخر الأمر، خرجا من البيت، وبلغا الكلية، أحس براحة، وما إن أنهى دروسه في الجامعة، حتى عاد إلى البيت، واستغرق في النوم، ولم يردّ على الهاتف، ولا على قرع الباب..

وفي المساء ذهب إلى نادي الصحفيين، فتناول عشاءه، وعاد يسمّر نفسه على الكرسي، أمام المكتب، في محاولة للعمل.. محاولة كانت فاشلة، ككل محاولاته في الغربة، وهكذا نقم على نفسه. عاقبها بالإصرار على عدم الخروج. ظل يقرأ إلى منتصف الليل، لم يكن سعيداً، كان خائباً، أشدّ الخيبات هي خيبة الفشل في العمل، عبثاً حاول التعزي. نام كدراً، ولا يعرف متى أغفى، لكنه استيقظ على جرس الباب، وكانت الساعة قد قاربت الثانية. ذعر للوهلة الأولى. من الطارق في وقت كهذا؟ أتكون ايرجكا؟ جورج؟ ضياء؟ حدث حادث لضياء، هذا المريض الذي ينوس كسراج على وشك الانطفاء، تحامل ومضى إلى الباب. سأل قبل أن يفتح:

- من؟

وجاءه صوت ادهشه:

- أنا بيروشكا.. افتح..

فتح، كان واجماً، في نظراته تساؤل، عتب، وبعض من غضب أيضاً. قالت بيروشكا:

- ألا تريد أن تستقبلني؟

- كيف لا؟ تفضّلي.. ولكن مابك.. كيف جئت.. من فتح لك باب البناية؟

- لم أستطع النوم، حاولت ولم أستطع، كنت بحاجة إليك.. شوقي غلبني.. ارتديت ثيابي، تسلّلت، هربت، أوقفت أول تكسي.. ولما صرت على باب البناية تردّدت. كان الباب مقفلاً.. ماذا أفعل؟ أنا لن أعود بعد هربي من الحديقة.. لم يبق إلا أن أضغط على زرّ الجرس، وبقوة، ولعدة مرات، حتى أفاقت البوابة.. وعندما فتحت تملّكتها الدهشة.. لكن وجهي كان ينم عن قلقي، اعتذاري، وابتسمت لي.. لم تقل شيئاً.. هي تعرف.. كانت فتاة وتعرف.. أخلت لي الطريق.. هذه هي الحكاية.

- ما كان يجب أن تهربي.. لقد أثرت فضيحتين: في الكلية، وفي هذا المبنى..

- إذا كنت لا تريدني فسأذهب..

- بعد ماذا يا بيروشكا؟ لقد فات أوان الرجوع..

- بالنسبة إلي كل شيء ممكن.. لو كنت أعرف أنك ستقابلني بهذا البرود..

- آه يا بيروشكا، يا عزيزتي.. عن أي برود تتحدثين؟ إنني أريدك.. أرديك حقاً، لكن هربك، بعد منتصف الليل، من الكلية، عمل طائش، عمل لا يُدافع عنه..

- مهما يكن.. هربت وانتهى الأمر.. كفّ عن هذا التقريع.. لاطفني قليلاً حتى أستردّ أنفاسي..

- أعدّ لك فنجاناً من القهوة التركية؟

- لا.. أرغب في شيء بارد.. ماء، بيرة إذا أكانت موجودة. أو عصير..

- لدي كل شيء.. لنشرب شيئاً من البيرة.. هل أنت جائعة؟

- قليلاً.. حبست نفسي في غرفتي طوال اليوم.. لم أحضر الدروس.. لم آكل.. ولم أستطع التركيز حينما حاولت القراءة.. لا أدري ما بي..

- هذا ما يسمونه جنوناً..

- قل عنه ما شئت.. كان يجب أن آتي، وأتيت.. أنت السبب..

- وماذا كان عليَّ أن أفعل؟

- لا شيء.. لكن لا تعبس في وجهي..

- أفرح لأنك توشكين على إضاعة مستقبلك؟

- لا أبالي بضياع أيّما شيء.. أريد أن أبقى إلى جانبك..

- إلى جانبي؟ هيا لنعدّ شيئاً من طعام.. ساعديني..

- ليس قبل أن أرتدي المنامة الصينية.. يجب أن استعيد ليلة أمس.. أنتشي حين يلامس الحرير جسدي..

- كما ترغبين.. أنت لست إلا قطّة لطيفة، لكنها تخرمش أحياناً..

أعدّ بعض الطعام. جاء بزجاجة بيرة وقدحين، راح ينظر إليها في منامتها الحريرية: بدت صينية حقيقية، لولا أنها طويلة قليلاً، وشعرها السبل مسترسل.. وكان في هدوء ملامحها شيء محيّر، فهي آمنة، مستسلمة، لا تعاني من ندم أو قلق.. وتطلب منه أن يتحدث، أن يقول أي شيء، وهو يرنو إليها مشفقاً، يفكر، متأملاً أن يكون سبباً في ما يجري، متسائلاً عما إذا كان من الأفضل، لمستقبل بيروشكا نفسها، قطع الصلة القائمة بينهما، متحمّلاً عذاب

الفراق، ناهضاً بتضحية صغيرة كي لا يضيع العام الدراسي عليها. العام الذي يبدأ مع بداية الخريف هذا..

قالت بيروشكا:

- أنت لن تعاقبني، أليس كذلك؟

- إذا تكرّر ما فعلت اليوم، كان عقابك شديداً..

- تقطع علاقتك بي؟

- من السابق لأوانه الكلام عن نوع العقاب، لكنني أنذرك..

- وأنا أرفض الإنذار.. تجاوزت سنّ الرشد.. ليس لأحد أن يقيم وصاية علي..

- كوني عاقلة إذن.. ما الذي دفعك إلى الهرب في هذا الوقت؟

- الشوق.. دفعني شوقي إليك..

- هذا نصف الحقيقة..

- ونصفها الآخر؟

- أقول بصراحة؟

- بكامل الصراحة..

- نصفها الآخر أنك جئت لتري ما إذا أكانت ايرجكا عندي..

فوجئت بأنه سبر غورها. قالت:

- لنفرض أن هذا صحيح، أليس من حقي؟ ألست صديقي؟ أريد أن اطمئن..

- والآن.. أنت ترين أنني وحيد.. ولا أكذب عليك.. كوني مطمئنة بعد اليوم..

- أعدك بذلك..

- وعداً قاطعاً..؟

- أعِدك.. ألا تريد أن تصدّقني؟

لم يصدّقها.. ولم تفِ هي بالوعد.. ظلت تهرب من الكلية ليلاً ونهاراً، أهملت دروسها. خرجت على النظام الداخلي للكلية. خرقته خرقاً فاضحاً. راجت الإشاعات حولها. كانت هي مصدر هذه الشائعات. تحدّثت عن حبها لكاتب عربي، كاتب فنان، له بيت، عنده متحف، يدرّس في الجامعة، وأنه سيتزوّجها، وستذهب معه إلى بلاده، بلاد ألف ليلة وليلة، بلاد الشمس المشرقة.. مضت في تغذية أحلامها، تزويقها، تنويعها، وتصديقها أيضاً. شكتها الناظرة إلى إدارة الكليـة، اتّهمتها بالهرب، الفساد، إهمال الدروس، إشاعة جوّ غير لائق بين زميلاتها.. وبعد شهر استدعاها المدير، طالباً منها تقديم إيضاح عن تصرّفاتها الطائشة، بعد أن واجهها بالوقائع، وبشهادات الناظرة والطالبات.. لكنه، هذه المرة، اكتفى بالإنذار، وبتهديدها.. وأبلغ كرم، عن طريق الجامعة، أنه يسلك طريقاً حرجاً في علاقته ببيروشكا، وينبغي له، بدل إغوائها، أن يساعدها على الانضباط والدراسة. ثم سئل، بكثير من اللباقة، عما إذ أكان سيتزوّجها، كما تقول، مع التأكيد، سلفاً، أن هذا أمر خاصّ، خاصّ جداً.

عجز كرم، هنا أيضاً، عن شرح نفسه. ما كان ملزماً أن يقدم تقريراً عن سلوكه للعميد الذي استقبله، مع ألبوش، بكثير من المودة. اعتذر عن حديث، ليس للجامعة أيّما علاقة به، لكنه من باب الاستعانة به، على إقناع بيروشكا بعدم الانقطاع عن دروسها، رغب أن يلفت نظره لفتاً مهذّباً. كرم لم ينزعج من الحديث. أكبر العميد، أكبر تقاليد الحرية الشخصية، تمنّى، في ذاته، أن تترسّخ هذه التقاليد في بلده الذي لا يستطيع فيه أن يقيم علاقة حب صحية

إلا بإذن من القانون، أو بمغامرة قد تكلّفه، وتكلف الفتاة خاصة، كثيراً من الأذى، لكن ماذا يستطيع بعد كل شيء، أن يفعل بعلاقة غير متكافئة كعلاقته ببيروشكا؟ إنه ليس زميلاً لها، أو طالباً مثلها، أو شاباً في مثل سنّها، عليه، هنا، أن يتصرف بمسؤولية، أن يبتعد عما يعطي سلوكه طابع مراهقة فات أوانها، ومنذ زمن بعيد. الصداقة مفهومة، ومرغوبة، والفنان، في أي سن، تكون له معجبات، صديقات، وهذا مفهوم، مقدّر، ولو قال إن ما بينه وبين بيروشكا نوع من صداقة، بأيّ عمق كان، بأية صفة كانت، لكان قوله موضع احترام، سواء انتهت هذه الصداقة بزواج، أو ظلت مجرد علاقة جنسية، أو علاقة عابرة، لكنه سيكون غير مفهوم إذا أنكر أنه يحبها، وأنه يحنّ إلى مجهول، امرأة لم توجد، أو لا يعرف اين ستوجد، وقد لا تكون إلا نسيج أسطورة سرقته، سحرته، كما تفعل جنيّة القمر..

قال للعميد:

- ما جئت إلى المجر، ولست في المجر، لأجل أشياء كهذه، صدّقني.. أحترم بيروشكا، أعزها، لكنني أريد خيرها.. وسأعمل كل ما في وسعي، حتى لو بلغ ذلك قطع علاقتي بها، كي يستقيم أمرها، وتستقيم دراستها..

قال العميد:

- يسرّني أن يكون المرء نبيلاً.. هذه نبالة منك.. اعتبرني صديقك، ولسوف أزورك، سأفعل هذا من كل بد.. يقال إن لديك متحفاً رائعاً..

- ليس متحفاً بمعنى الكلمة.. مجموعة تحف من الصين..

- مجموعة ثمينة.. هذا ما سمعته، وقد أثارني.. الأشياء الشرقية

بالنسبة إلينا نحن الأوروبيين، تبقى مثيرة دائماً..

– يسعدني أن نلتقي إذن.. سيكون شرفاً لي أن تزورني في بيتي..

ولكن اليوش، عندما غادر العميد، أبدى هذه الملاحظة:

– يا له من ثور، عميدنا هذا.. ما دخله في أمورك الشخصية؟ ثم هذا المتحف.. اسمع يا كرم، بعد شهرة متحفك بتّ أخاف عليه من شيئين: اللصوص ودائرة الآثار..

وقال كرم ضاحكاً:

– اللعنة على هذا المتحف، كم سبّب لي من وجع رأس.

– أنت لن تقول لبيروشكا شيئاً، أليس كذلك؟

– ماذا ترى أنت؟

– استمرّ في علاقتك بها.. هذا طبيعي بين رجل وامرأة..

– لا أريد أن أتسبّب في ضياع مستقبلها..

– ولماذا تظن أن مستقبلها سيضيع.. لمجرد أن هذا الثور تدخّل فيما لا يعنيه؟

– ليس هذا.. لا أتوقف عند ملاحظاته، رغم احترامي لها.. بيروشكا طائشة.. ذات اندفاعات غريبة..

– مها يكن.. العلاقات، حتى الجنسية منها، موجودة بين كل الرجال والنساء.. في الجامعة وخارجها، بالزواج أو دونه.. لا تستشعر ذنباً من هذه الناحية..

افترقا، كان أليوش يضحك: «اسمع يا صديقي، لو كان عندي متحف كما عندك.. » قاطعه كرم: «لكنّ لديك شباباً لو كان لي.. » قال اليوش: «الشباب وحده لا يكفي، الفتاة تريد الشهرة.. أن يكون حبيبها مشهوراً.. أن تكون له مكانة فنية أدبية،

اجتماعية.. أيّ شيء، من هذا النوع، ثم أن تكون له سيارة، أو متحف، وأن يكون ثرياً.. أما العمر فيأتي، مجرّدا، في آخر القائمة.. الشعر الأبيض، الآن، موضة، لا يضايقك أن شعرك أبيض قليلا، ليت لي، أنا أيضاً، بعض الشعرات البيض.. ومعها، كما تعلم بعض التحف».

في المساء اتصلت بيروشكا هاتفياً. اعتذر عن استقبالها. أكّد لها أنه مشغول جداً، وأنه مدعو إلى العشاء.. وفي الصباح التالي اتصلت أيضاً، طلبت موعداً.. تذرّع بالدروس، والكتابة.. هدّدها، إذا جاءت ليلا، ألاّ يفتح لها الباب، وسمع، عبر الهاتف صوت بكائها، غير أنه لم يبال.. قرّر أن يكون حازماً. غير أنه بعد أيام، تلقّى هاتفاً من جورج، قال له إن بيروشكا عنده، وأنها رجته أن يتوسّط عنده لاستقبالها، وأنها تبكي.. تبكي كطفلة صغيرة..

كان ذلك في نحو الساعة العاشرة ليلاً، وبعد قليل صعد جورج وبيروشكا، وجاء هادي، ولم يمكثا سوى ساعة واحدة، شربوا خلالها كأساً من الويسكي. وقال هادي، بناء على رجاء من كرم، إن على بيروشكا أن تعود إلى كليتها.. تكلما بالمجرية، اشترك جورج في الحوار. جلس كرم ينتظر النتيجة.. وكان هادي، في حواره البطيء، الطويل، يوتّر أعصابه.. ثم لا يبالي، حتى خيّل إلى كرم أن صديقه نسي نفسه، غير أن هذا استمهله قليلا، وقال وهو ينهض:

– بيروشكا باقية.. قالت إنها لن تذهب ولو استعنت بالبوليس.. لديها ما تقوله لك.. دعْها تبت عندك..

وقال جورج:

– هذا أفضل.. إنها ستعود إلى كليتها صباحاً.. تقضي الليل

معك فقط.. لا تكن قاسياً.. إنها تحبّك.. ألا تعرف الحب أنت؟ أم تكتبه في قصصك فقط؟

اشترط كرم:

– الليلة فقط.. تذهب صباحاً، ثم لا تأتي إلا يوم السبت..

وقال هادي:

– ليلة السبت ستكون لدينا سهرة.. اتفقت مع نصر جيل عليها.. وسيكون ضيوفنا بعض أعضاء لجنة الشبيبة.. لقد حدّثتهم عن متحفك.. وعن لياليها الشرقية..

– سنتكلم في هذا غداً.. أنا موافق من حيث المبدأ، ما دمت قد اتفقت مع نصر.. ووعدت الضيوف..

قال جورج:

– ما هي «الكوتا» المخصصة لنا؟

– أنت وصديقتك.. أجاب هادي.

– هناك بعض الأصدقاء أيضاً.. وسّعوا الحلقة قليلاً..

قال كرم:

– لا دخل لي في الأمر.. القائمة مع هادي..

– أنا، قال هادي، لست من أنصار زيادة العدد، خاصة عدد النساء.. لا نريد تشويشاً في الحفلة..

قالت بيروشكا:

– أنا مدعوّة أيضاً.. أليس كذلك يا كرم؟

– اسألي هادي.. أقول لكِ القائمة بيده..

وقال هادي ضاحكاً

– هذا يتوقف على سلوكك خلال الأسبوع.. إذا داومت على الدراسة..

قالت:

– سأداوم.. أعدكم بذلك..

وقال جورج وهو يخرج:

– يا لها من بيروشكا رائعة هذه.. انظروا كم هي مطيعة.. محظوظ أنت يا كرم!

بعد خروج جورج وهادي، ألقت بيروشكا بنفسها بين أحضان كرم.. كانت عاتبة: «أنت سيّىء يا كرم، قالت، أنت لا تريدني.. تتهرب مني» قال كرم: «هذا لمصلحتك.. أنا مسؤول عن نجاحك» «ومن وضع هذه المسؤولية عليك؟» «لا أحد، وضعتها بنفسي» «هذا لأنك لا تحبّني» «أنا فعلاً لا أحبك» «لكنني، أنا، أحبّك.. أنت جعلتني أحبك.. أنت سيّىء يا كرم.. قبّلني». قبّلها.. بكت على صدره.. بكت دون سبب. كانت مستعدة لمسامحته، وقد سامحته، وقالت فرحة:

– لن أضايقك.. سأحضر كتبي معي بعد اليوم.. وقد تعلّمت، من زميلاتي، صنع طبق لذيذ، هل لديك لحم؟

– في الثلاجة

– و«جن»؟

– في البار..

– انصرف إلى عملك أنت.. دعني أهيّئ الطبق، وسيكون جاهزاً خلال نصف ساعة..

لكنها، بعد ساعة كاملة لم تفعل سوى إضاعة اللحم والجن.. كانت التجربة فاشلة.. وقالت معتذرة وهي تقف أمامه:

– شاينوش كرم (آسفة يا كرم) أضعت لك «الجن»

– لا تأسفي على شيء.. هيا.. لنأكل أيّ شيء.. ثم ننام، وغداً صباحاً إلى الكلية.

- غداً صباحاً إلى القرية.. لزيارة والدي.. أخذت أذناً من الكلية..

- وماذا أعددت كهدايا..؟

- لا شيء..

- يا لك من فتاة مهملة.. كلي ونامي الآن.. نامي جيداً، وغداً صباحاً أصحبك إلى السوق، ثم محطة القطار.

- أنت لطيف يا كرم، لطيف جداً يا حبيبي.. سنصنع الحب الليلة.. أليس كذلك؟ أنت لن تعاقبني.

ولم يعاقبها.. لكنه، في الصباح، كان عليه أن يعيد الكرة، ويبذل مجهوداً لإيقاظها، ومجهوداً آخر لتعجيل خروجها من البيت، قبل أن يفوتها موعد القطار.. وفي الطريق عرجا على السوق فاشترى بعض الهدايا، وبعض الفواكه المستوردة، مثل الموز والبرتقال، واشترى تذكرة القطار، وقال لها، وهو يودّعها على باب القطار:

- فيسونت لاتاشرا بيروشكا (إلى اللقاء بيروشكا).

- إلى اللقاء..

- انتبهي.. كوني لطيفة.. كوني سعيدة أيضاً

- وأنت، كرم، كن عاقلاً في غيابي.. سأعود بعد يومين.. انتظرني.. لا تنسَ.. لا تذهب إلى ايرجكا.. تَعِدني بذلك؟

- لا تكوني مجنونة.. لن أغادر البيت إلا إلى الجامعة..

- وإذا جاءت هي إليك؟

وتحرك القطار وهي تعيد السؤال:

- إذا جاءت هي إليك؟

ولما لم تسمع جواباً صاحت:

- لا تفتح لها الباب.. لا تَخُنّي يا حبيبي!!

- ١٥ -

قرَّر أن يحفظ وصيتها، بل قرر أن يحفظ نفسه في وصيتها. تذكّر الذي طرد الصيارفة من بيت أبيه. هذا معبد وليس مغارة، ليس كهفاً، ولن يجعله كهفاً. أراده شيئاً إلى الطهارة ينتسب، إلى الفن، الثقافة، والمودّات. لكنه انزلق به إلى الدناسة. لعل الكلمة أن تكون أكبر من حجمها. هو لم يدنّس متحفه تماماً، لكنه لم يَصُنْه كما ينبغي. جاءت روزيكا وخطيبها، جاءت، بعد ذلك، دون خطيبها، جاء آخرون، أخريات، وكان عليه، أمام الزائرين، أن يعرض أشياءه. يتحدّث عنها، عن صنعها تاريخها، قيمتها الفنية، ويستجيب لطلبات ملحاحة، في رؤية كل اللوحات الجدارية. هذا يعني أن ينشر اللفافات، ثم يعيد لفها، ربطها، توضيبها. وكان عليه، أيضاً، أن يخرج قطع البورسلين الصيني، الأزرق والأبيض، والمنحوتات الخشبية، وينثرها في كل أرجاء البيت، فإذا غادر الزائرون أعادها إلى أماكنها.

كل هذا كان محتملاً على نحو ما. كان يتلبّسه شعور العامل في متحف، فعليه أن يسرّ بكثرة الزائرين، وعليه أن يستفيض في الشرح، وأن يكون مهذّباً، لطيفاً، لا يضيق بالأسئلة، وبتكرارها أحياناً. وإذا افتقد السرور، كان عليه أن يصطنعه، فإذا عجز

وجب عليه ألاّ يظهر الانزعاج. كل هذا ارتضاه، إلا أن رؤية الثياب الصينية، وارتداءها، وانتظار أن تمل منها الزائرة وتنزعها، قبل التقاط صورة أو بعدها، كان يستنفد صبره، يخلق فيه قابلية الملل، التبرّم، الانفجار، إلا أنه يراكم كل ذلك، ويرهق أعصابه يوماً بعد يوم.

وإذا كان عزاؤه في كثرة الزوار، أنه يتعرف من خلالهم على الناس، وأنه يخالط، بسبب من ذلك، أوساطاً اجتماعية مختلفة، فإن طول مكوث بعضهم، وتقلّب أمزجة البعض الآخر، وتكرار الزيارة، واندياح دائرتها، والهواتف التي لا تنقطع، واضطراره إلى الردّ، وإلى سماع رجاءات، وضرب مواعيد، وتقديم القهوة، وقبول الدعوات، وتلبيتها، كان يستهلك وقته، يُضني صحته، يحول بينه وبين أن يختلي بنفسه، وأن يقرأ، ويمارس عادته في تأمل الطبيعة، من نافذته، أو الذهاب إليها، في الغابة، أو على شاطىء الدانوب، وزيارة المتاحف، ومعارض اللوحات، وقبل كل شيء، التحدّث إلى ضياء وحسن وجورج، والتمتّع بصحبة الطلاب الذين اتسعت دائرة معارفه بينهم، وكانوا يأنسون إليه، ويروون له ألواناً من قصصهم ومشاكلهم فيعجب لما فيها من صور اجتماعية.

إضافة إلى ذلك، كانت تنشأ، خلل الزيارات، بعض الروابط، كانت هذه الزائرة أو تلك، ترغب في أن تقيم علاقة معه. كان قوس هذه العلاقة، واسعاً، يتراوح بين الصداقة، المودّة، الجنس، الحبّ. ومهما حاول الابتعاد، الاعتصام، التعفّف، فإن بعض الإغراءات كانت توقعه في شباكها، وهكذا يجد نفسه منساقاً إلى ضروب من اللهو، والممارسة، وتشابك العلاقات المربك، الذي يزيد متاعبه، ويشوه البهاء الثقافي للمتحف في نظره.

أليوش كان يسر بذلك. يضحك من نفوره غير المبرّر من هذه العلاقات. يقول له «لا تكن شرقياً متزمتاً. جرّب أن تتقبّل الغرب وتفهم روحه. هنا مجتمع جديد يُبنى. كيف تفهم هذا المجتمع إذا لم تختلط بالناس؟ علاقتك بالمثقفين ضرورية. تعرّف إلى الحياة الأدبية. أكثر من السهر في نادي الصحفيين» وإذا ردّ كرم بأن حياة الوسط الثقافي متعبة، تتطلب السهر، والشرب، واللهو، أجاب أليوش: «يا أخي! هناك أدباء جادّون أيضاً. هناك موسيقيون كبار. رسامون، فنانون، لماذا تريد أن تترهّب لأجل بيروشكاك هذه؟ تقول إنك على علاقة صداقة بها. صداقة لا أكثر، ولنفرض أنه حب أيضاً، ماذا يعني ذلك؟ هيا.. لنخرج.. ثمة أمسية أدبية اليوم، حفلة موسيقية، تصوير فيلم، مسرحية بالية..»

وجاءه ذات يوم، باقتراح: «لنذهب إلى مجمّع صناعي، لديّ مهمة هناك. مكلّف بتحقيق إذاعي مع العمال.. ما رأيك؟».. وافق من فوره، كانت المدينة الصناعية تقوم على الدانوب، في منطقة أثرية جميلة، وكانت مشهورة بشيئين: الصناعة وحساء السمك. وكان كرم، خلال الرحلة كلها، على بهجة قلما عرفها في حياته. لقد أتيح له أخيراً أن يتحدث إلى العمال. أن يسمع بعضاً من ذكرياتهم عن الماضي وبعضاً من انطباعاتهم عن الحاضر، وأن يلمس الفارق، ويختبر نمط السلوك، وكيفية العيش، ويتفهّم حقائق مهمّة عن النموّ الصناعي، وحقوق العمال، ومجمّعات سكنهم، ودخلهم، وأمنهم، وظروفهم الصحية، ويتقبل بعض الكؤوس في نواديهم، وفي منازلهم أحياناً.

كانت المداخن، قبّعات العمال، سكاكينهم وهي تقطع شرائح الخبز والشحم، الأبنية الضخمة، الآلات، الصهاريج البخارية،

المدير، وورشات العمل النشطة كالخلايا، تستوقفه، تشدّه، تدفعه إلى نوع من الدهش، نوع من الغبطة، وإلى شيء من التأمّل الصامت، فيه مباركة، وإعجاب، وفيه أيضاً مقارنة، بين حياته الخاملة وحياة هؤلاء العمال النابضة بالفرح والقوة.

وفي مدارس أبناء العمال استعاد طفولته، أنشد الطلاب بعض الأغاني تحية له. شرحت معلّمة الموسيقى برنامج التدريب على الغناء منذ الصغر. رأى إلى الوجوه المعافاة، الثياب النظيفة، البناء المشمس، الحدائق، الأشجار، الزهور، وتذكّر ماضيه.. قبوه المعتم الذي تعلّم فيه مبادىء القراءة والكتابة، وقال لأليوش: «كدت أبكي» سأله: «لماذا؟ ألم تكن مسروراً؟» أجاب: «نعم. كنت مسروراً.. رأيت.. لكنني تذكرت .. كان صعباً ألا أتذكر، وألا يمتزج سروري بأساي.. لقد صار في الدنيا شيء جديد، جديد حقاً».

غير أنه، في متحف المدينة، وجد نفسه بشكل ما. كان اليوش يقوم بالترجمة بينه وبين الدليل. الآثار الرومانية لم تكن غريبة عليه. وكان الدليل يجهد ليؤكد الصلات القديمة بين المجر وسورية. كان الرومان، الذين يقاتلون في سورية، يستعينون بأبناء القبائل المجرية الأشداء، وهكذا حلوا معهم من حمص بعض الأواني والنقوش. جندي مجري، حارب مع الرومان، لكنه تزوج امرأة سورية، انضم إلى السوريين. قال كرم ضاحكاً: «تأييدكم لنا قديم إذن» قال أليوش الذي وجد فرصته: «نحن نفهمكم أكثر من شعوب أوروبا الأخرى، عرفنا الاحتلال العثماني، ثم الاحتلال الألماني.. ناضلنا طويلاً، وتعلّمنا، يا أخي، أن نقدّر نضال الآخرين في سبيل حريتهم.. صدّقني.. إننا معكم.. ألم تسمع ما قاله العمال؟»

استشعر كرم بعد هذه الزيارة عافية نفسية. حتى أن المتحف غدا أجمل في نظره. لقد خرج من إطاره. كان يخشى أن يظل محدوداً بعالمه، فلا يعرف من حياة المجر سوى المثقفين الذين يزورونه، وسوى بعض النساء وبعض الشباب، الآن يستطيع أن يقول إنني أعرف أكثر. خالط، في بودابست، نفسها، بعض الأوساط، دخل بعض البيوت. كانت دعوات زواره المقابلة، تنضح بالكرم والكياسة، وكان يتحدث ويسمع، وتترحب دائرة اطلاعه وتختلف زوايا النظر، ودرجتها. وجد المجريين منفتحين، يعملون ويعيشون، وتتراوح آراؤهم في العمل والعيش، لكنها لا تنكر أن ثمة أشياء جيدة، وأن هناك تقدماً، وأن الرغبة في الهجرة تتدنّى، والذين هاجروا، يطلبون، ويلحّون في العودة، والسلطات تتساهل، وتتقبّل توبة وعودة حتى الذين وقفوا ضدها في الثورة، والذين أشهروا السلاح، وكانوا مضلّلين. وفي المجمّع الصناعي، قال له عامل نصف، ممتلىء، قوي البنيان، وهو يجلس أمامه على طاولة خشبية، ويشرب أقداح النبيذ وهو يتلمظ: «إنني عضو في الحزب، وعضو في مجلس النقابة.. حسناً! معنى هذا أنهم يثقون بي وبرأيي. هذه الثقة لم تأت بتوصية. أنظر (فتح كفيه أمامه) هذه العقد في الأصابع، إنها من العمل، أنا ميكانيكي، وقد شاركت في بناء وتركيب مصانع كثيرة، أعطيت برهاني. زوج أختي يعرف هذا. ومن فرنسا كتب إلي، بعد هجرته إثر الثورة المضادة، طالباً أن أسعى له في العودة. راجعت بشأنه. وافقوا على عودته. كتبت إليه، حضر، لم أقل له شيئاً، لست من أنصار الوعظ، تركت له أن يختبر الحياة، يكتشفها بنفسه. بعد تسوية أوضاعه عاد إلى العمل.. مضى على ذلك عامان، جاءني قائلاً: «يا قريبي، أريد السفر إلى

ايطاليا مع زوجتي في هذا الصيف، لكنني، كما تعرف، لست موضع ثقة، أنت تعرف موقفي.. ظني أنهم لن يسمحوا بخروجي من الوطن ثانية.. أرجوك، قل شيئاً طيباً عني، اكفلني «وفكّرت في الأمر، تحدّثت مع بعض معارفي، قالوا لي ليتقدم بأوراقه، فإذا واجه عقبة ما تساعدك.. أبلغته ذلك، نصحته أن يطلب جواز سفر وإذناً لقضاء إجازته في إيطاليا، وعدته خيراً. لكنني لم أتدخل.. منذ أسبوع عاد إلي ضاحكاً.. «ماذا؟» سألته، قال: «منحوني جواز السفر وتأشيرة خروج، وقال لي الموظف المختص: نحن نعرف من أنت. لكننا نمنحك جوازاً حسب الأصول. هذا حقك كمواطن بعد مضيّ عامين على عودتك.. تستطيع أن تسافر مع زوجتك، وأن تأخذ حصتك من القطع النادر، ويمكنك أيضاً، ألاّ تعود.. نحن لا نريد إمساك الناس بالقوة» سألت قريبي: «وأنت صارحني، ستعود؟ فأجابني: «لا شكّ في ذلك.. وسأكون عند حسن الظن». أضاف العامل بعد أن شرب آخر ما تبقّى من الزجاجة، ومسح شاربه الكثّ بقفا يده: «نحن نضحك عندما يطبّلون في الغرب ويزمّرون لهرب مجريّ.. لرغبته في الهجرة.. أنا أسألك: لو فتحنا باب المجر لمن يريد الهجرة من البلدان الرأسمالية إليها، أتظن أن المجر كانت تتسع للراغبين عندئذ؟ هذه هي الحكاية.. تعلّمنا أن نثق بأنفسنا، بنظامنا، بمواطنينا.. لماذا نضطرهم إلى الهرب.. ليذهبوا بجوازات رسمية ويجرّبوا.. هذا أفضل».

بعد أسبوع كان كرم يتذكر كلام هذا العامل. سافر لمدة يومين إلى النمسا.. هناك لازمه إحساس بالضياع. فقدت إنسانيته بعض ركائزها.. خفّ وزنه كإنسان.. ولم يسترجع شعور الاطمئنان إلا وهو يجتاز الحدود المجرية في طريق العودة. وعندما قص ذلك على

ضياء، قال هذا: «دوغري أوغلم (صحيح يا ولدي) أنا أيضاً مررت بهذه التجربة.. قلت في نفسي: يا ضياء، أيها الرجل الكاتب، أنت لا تعرف الغرب.. ينبغي إذن أن تذهب، أن ترى وتجرّب.. والنتيجة؟ كدت أقبّل تراب المجر وأنا أعود.. كرم! هل تحسب أن هناك شبهاً بين أرض تركيا وأرض المجر؟».

وقال كرم في نفسه وهو يذهب ويجيء في غرفته: «يخيّل إلي أن ضياء هذا مجبول من الطيبة.. أرجو أن يكون قد عرف، في الغرب، امرأة، أو صادق فتاة ما. لتكون تجربته كاملة..» ثم تصوّره، هو الطويل، ذو الانحناءة، والسترة الواسعة، ورباط الرقبة المحلول دائماً، يقع بين يدي النساء.. في حي ما من أحياء روما أو باريس، وضحك، إذ تذكر غوركي، وكيف تعرض لمثل هذه التجربة، وكيف تمزقت سترته، وقال في نفسه: «لماذا لا تتطوّع امرأة ما وتحبّ صديقي ضياء؟».

فجأة رن جرس الهاتف. كان المتكلم هو الميتر، في الملهى الذي تعمل فيه ايرجكا، قال له: «تعال، ايرجكا بحاجة إليك.. إنها بانتظارك..!» رغب في الاعتذار، قال له: «لا أستطيع الليلة.. إنني أعمل.. بلغها تحيتي». لكن الهاتف رن من جديد، وقال الميتر: «ايرجكا لا تقبل اعتذاراً... إذا لم تأت أنت جاءت هي».

أعدّ قهوته وشربها بنزق. أشعل سيكارة. ذهب وأتى. وقف إلى النافذة، استدعى نسمة عابرة.. كانت طراوة الليل منعشة، رتل من النجوم معلّق فوق، يشعّ كحبّات ماس فوق مخمل سماوي. جاءت أشجار الحديقة، اقتربت، اقتربت، استشعر ألفة معها. رغب أن يمشي على الليل، يطأ هذا البساط العتمي ويمضي بعيداً، يمضي إلى المجهول هرباً من الانغماس، ثانية، في حياة عنكبوتية، لزجة، تلفّ

نسيجها حوله، حتى ليحس بقطنية هذا النسيج تملأ عينيه وفمه وأنفه، وتسدّ مجرى الهواء عن رئتيه.

رنّ جرس الهاتف للمرة الثالثة. بلغه صوت الميتر يسأل: «ألن تأتي؟» أجاب: «سآتي» لكنه، في داخله، اعتزم أن يضع حداً لكل هذا.. هو لا ينكر أن العلاقة، حتى في الإفراط الذي صارت إليه، ما تزال إنسانية. وأنها، بالنسبة لكاتب، مبررة، لولا أن هذا «الكاتب» ينغمس في لهو يحول بينه وبين تحقيق ذاته الإبداعية. إنه لا يمارس حباً. يكذب على نفسه حتى في علاقته ببيروشكا. يلعب دور الذكر مع أنثى. لم يخلص لايرجكا، ولا حدّد نوع صلته بها، كان يجب أن يصطفيها، أن يبادلها عاطفة بعاطفة، لكنه لم يستطع، لأن له علاقة ببيروشكا، ولم يستطع الوفاء لهذه، لأنه على علاقة بايرجكا، ثم ماذا؟

أمس أوصته بيروشكا، وهي تطلّ من نافذة القطار، ألاّ يخونها مع أية امرأة، لكنه خانها مع روزيكا، وها هي ايرجكا تدعوه، وهو لا يستطيع، كما قال اليوش، أن يترهبن.. المهم ألاّ يفرط أكثر، وأن يضع حداً للزيارات، ويواصل حياته الاجتماعية على نحو ما فعل في زيارة المجمّع الصناعي واللقاء بالعمال.

كانت ايرجكا في أغنيتها الأولى عندما دخل. رأته. أرسلت له قبلة في الهواء. صدح صوتها. صار أكثر حياة، أشدّ حماسة وحناناً.. صفّق الحاضرون. صفّق هو أيضاً.. أدرك أنها تغنّي له.. لم يفهم كلمات الأغنية. لغته المجرية بسيطة، لا زهر يرسله لها، ليس إلا الخمر، وماذا، في تكريم فنانة، يفعل الخمر؟ لا بأس بتكريم العازفين.. أرسل زجاجة ويسكي. أحنى عازف الكمان رأسه

شاكراً. لاحظت هي.. التحية وصلت، التكريم تم. «يحسن التصرف» قالت في نفسها.. وحين أقبلت، في ثوب أنيق، أعطته يدها فقبّلها، وجلست وهي تبتسم.. تذكرت أنه هرب وهي نائمة، كان في هروبه شيء، من ندم. فكرت: «هل يفضل تلك الفتاة الصغيرة بيروشكا عليّ؟»

جاء الميتر مبتسماً:

ماذا يريد أن يشرب السيد؟

– ماذا تود ايرجكا العزيزة؟

قالت ايرجكا:

– أنا صاحبة الدعوة الليلة..

قال الميتر:

– أوصت على زجاجة شامبانيا مبرّدة، مع بعض المقبلات..

– حسناً، لنتذوق الشمبانيا المجرية..

– ولكنها شمبانيا فرنسية.. ايرجكا هي التي انتقتها..

– في هذه الحال تنتظرني متعة بالغة.. «كوسونيم سبين» ايرجكا (شكراً جزيلاً يا ايرجكا)

– كيريم سيبين (عفواً كثيراً)

وسألته ايرجكا فيما الميتر يملأ القدحين:

– تعلّمت المجرية؟

– قليلاً..

– نستطيع أن نتفاهم دونما حاجة إلى ترجمة إذن؟

– أحسب ذلك..

– اين كنت طوال هذه المدة؟

– في البيت، في الجامعة، ومع بعض الأصدقاء..

- كتبت جيداً؟
- لم أكتب جيداً.. بل لم أكتب أبداً..
- خسارة!
- بل خسارة كبيرة.. لا أدري ما بي.. يجب أن أعود إلى الوطن..
- تعتقد أن عودتك تحلّ الأزمة؟
- ربما..
- قلت لي، في المرة الماضية، إنك لا تحب.. إنك غير قادر على الحب.. أليس كذلك
- نعم.. أذكر أني قلت ذلك..
- هل كنت صادقاً؟
- كل الصدق..
- ما سبب هذا؟
- لا أعرف.. لا أستطيع أن أحب، أن أحب بعمق، بجنون.. لعل مثل هذا الحب قد فاتني، أو لعلّه لم يأت بعد.. إنني في أزمة.

قالت ايرجكا:

- لاحظت ذلك. فكرت فيه.. أنت، في هذه الحال، مريض نفسياً، الحب، كما تعلم، مرض أيضاً، لكنه يشفي من مرض آخر، هو عدم القدرة على الحب.. لقد كنت صادقاً معي. كنت كريماً. وأرغب في مساعدتك.. لذلك قرّرتُ أن أدعك لبيروشكا.. عساك معها، تنفتح قليلاً، تنحلّ عقدتك..
- لكنني لست معقداً كما تتصوّرين.. لست مريضاً تماماً.. الحب ألوان.. إنني أحبّ الناس، الوطن، القضية..
- لن أسألك أية قضية هذه.. أنا لست معنية بقضايا الآخرين،

لكن الحب، على ألوانه، ينبع من مصدر واحد، هو حب المرأة.. إذا كنت عاجزاً عن حب المرأة فأنت عاجز عن حب كل شيء..

هتف كرم:

- هذه مبالغة! أنت تتّهمينني في هذه الحال..
- الآن، حان موعد أغنيتي الأخيرة.. بعدها سنشرب بقية زجاجة الشامبانيا ونذهب إلى البيت.. إنسَ ما قلته لك.. قد أكون مخطئة.. إنني أجهل أشياء كثيرة، مع أنني خريجة جامعة.. هذا لا يهم.. كن لطيفاً، أرجوك.. هذه الأغنية لك.. لا ترسل أيّا تحية.. يكفي.. أعرف قلبك.. إنني لست فتاة ملهى، وأنت لست زبوناً..

غادرته وهو غارق في بؤسه العاطفي. ايرجكا فهمته، ليس مثل المرأة من يفهم الرجل.. بكلمات قليلة كشفت عن جذور أزمته، صيّرته صاحب أزمة، قبلاً كان يعيشها ولا يحسّ بها، الآن صار مريضاً يعرف أنه مريض، هذا الإسراف الجنسي ليس إلا تعويضاً، يحاول، من خلاله، أن يبلغ الارتواء العاطفي، لكنه، بعد عملية الجنس، يعود إلى الفراغ.. إلى فراغ رهيب في نفسه، إلى ظمأ شيدي.. إلى جوع حقيقي لخبز هي التي قالت اسمه: الحب!

غنّت ايرجكا، كان صوتها صافياً، دافئاً، ينادي، في غير ما أمل، حبيباً بعيداً، وكانت الموسيقى، رائعة، والجوّ الذي كان، خلال الرقص، يضج بصخب الشباب، عاد الآن، مع الصوت المفرد، إلى نوع من ابتهال داخلي، كأنما جاءت اللحظة التي ينبغي لكل إنسان أن يستعيد خلالها، في ومضة استرجاع، ذكريات هوى قديم..

نادى الميتر وسأله: «ماذا تقول الأغنية؟» ابتسم الميتر.. الشعر لا يترجم.. كيف يقول!؟ ألحّ كرم: «أرجوك، ما هو عنوانها،

مطلعها، الكلمات الأولى فيها؟» قال الميتر: «هذه أغنية مشهورة، للشاعر اندريه أدي، تقول: «في عينيّ، يراك الناس أيتها المرأة».
قال كرم: «شكراً، فهمت» وقال في نفسه: «ليس في عينيّ أية امرأة.. عيناي فارغتان. العين تمتح من القلب. قلبي بئر فارغة.. وعيني بؤرة فارغة.. عرفت الآن سبب إخفاقي في الكتابة..»

غاض الرواء في قسماته، شعر بأنه مذنب، وحيد، مهجور، وأن قلباً ما، في هذا الكون، لا يخفق مع قلبه، لأنه عجز عن أن يجعل قلبه يخفق مع قلب أية امرأة في هذا الوجود..

شربا من جديد.. وفي آخر الليل ذهب برفقة ايرجكا.. كان يظن أنها ليلته الأخيرة معها.. هي أيضاً ظنّت أنها ليلتها الأخيرة معه.. في الغد ستسافر.. ستبقى شهوراً في الخارج، وحين تعود، ربّما لن تجده، وقد لا يجدها، فهي لن تعود إلى الملهى نفسه، وليس من سبب يدعو إلى اللقاء، طالما أن الحب، بينهما لم يوجد، ولن يوجد أبداً..

جنس فقط.. هذا كل ما يستطيع أن يمنحه.. وتقبّلت المنحة برضى، صديقين كانا، امرأة ورجلاً كانا، وحين انحلّ الجسدان بعد اتّحاد شبقي، قبّلها، قبّلها كلّها.. عارية كانت وقبّلها كلّها.. وقبل ظهر اليوم التالي أرسل لها باقة قرنفل أحمر.

- ١٦ -

فيما كان كرم يهبط الدرج، في طريقه إلى حمام سيتشيني، في الصباح الباكر، رأى شاباً يدخل البناية وفي يده حقيبة. الشاب لم يره، لكنه سمع وقع أقدامه بغير شك، فلطى في زاوية ما، أو دخل غرفة في الطابق الأرضي.

كرم لم يأبه، ولم يجد ما يلفته أو يعنيه، وهكذا غادر المبنى، وفي يده حقيبته الصغيرة التي تضم منشفة ومايو للسباحة.

وفي آخر الرواق من الناحية الشرقية، قرع الباب ثلاث قرعات متواصلة، ثم تبعتها، بعد فاصل، قرعة رابعة مفردة. أفاق محمد حيش وفرك عينيه. أزاح ستارة النافذة. قال في نفسه: «لقد جاء، إنه هو: نديم الجمل. تعلم أخيراً أن يتقيّد بالمواعيد. هذا لابد منه. الانضباط، في مثل أحوالنا، ضروري. لكم تعبت لكي أجعله إنضباطياً». وعلى الباب تكرّرت المحاولة. ثلاث قرعات متواصلة، وبعد فاصل، قرعة مفردة، وصاح محمد من الداخل:

- طيب! طيب! سمعت.. لماذا أنت مستعجل إلى هذا الحد؟

قال نديم وهو يحشر جسمه، مع الحقيبة الكبيرة التي يحملها، داخل الباب:

- أمازلت نائماً..؟ أعرفك دقيقاً.. كنت أحسبك تنتظرني في المجاز..

– هذا ما كان يجب.. لكنني سهرت إلى ساعة متأخرة.. شربت كثيراً وغرقت في النوم..

وبعد أن أغلق الباب أضاف:

– أدخل.. لا داعي للعجلة.. أنت لا تحمل أفيوناً حتى تحتاط هذا الاحتياط..

– ولكن الحقيبة ملأى بالسكائر الأجنبية والوسكي.. ماذا لو اشتبه بي أحد؟

– وماذا يضيرك؟ تقول: هذا لاستعمالي الشخصي..

– أنا الطالب أدخّن كل هذه السيكارات وأشرب كل هذه الويسكي..؟ من يصدّق ذلك؟ وعلى فرض أنهم صدّقوا، سيسألونني من أين أتيت بها.. وعندئذ؟

– لا تكن جباناً.. أولاً لن يسألك أحد.. ثانياً تقول إنها وصلتك من أهلك في سورية..

– أنا الفقير، الذي يدرس الاقتصاد السياسي بمنحة من الحكومة المجرية، يرسل له أهله كلّ هذه الهدايا الفاخرة؟

– ولماذا لا؟ الحصول على منحة شيء، والفقر أو الغنى شيء آخر.. أكثر الذين يدرسون هنا حصلوا على منحة مع أن أهلهم ليسوا فقراء..

أضاف، بنبرة آمرة:

– إذهب واصنع لي فنجاناً من القهوة، ريثما أفتح هذه الحقيبة، وأرتّب ما فيها من بضاعة.

انصاع نديم للأمر. كان المطبخ يلي الغرفة التي ينام فيها محمد. الغرفة الثانية، على يمين المدخل، للزوجة التي لا تزال نائمة. مشى

حذراً، كي لا يوقظها، هو يعرف البيت كما يعرف غرفته في قلعة الصيادين، هناك حيث بيوت الطلبة. إنه ينام مع زميل آخر، إذ لا قدرة له على استئجار بيت، مع أنه يتشوّق إلى ذلك، ومحمد يمنيه بالوعود: «سيكون لك بيت مستقل يا نديم» «ومتى يصير هذا يا حبيش؟» «هذا متوقّف على نشاطك» «لكنني أبذل جهدي» هذا ليس كافياً بعد..» وقال في نفسه: «لو ملكت رأسمالاً لعملت لحسابي.. أخاطر بنفسي، بدراستي، بمستقبلي في المجر، ومحمد يأخذ البيضة وقشرتها.. إنه داهية.. خُلق ليكون مهرّباً لا طالباً.. على كل قات أوان دراسته.. مسألة الدراسة هذه حجّة.. حصل على منحة. مدّد المنحة.. مدّدها ثانية، ثالثة، كيف، يا ربي، يتوصّل إلى هذا؟ وكيف، في حركة بارعة، خفيّة، يحصل على هذا البيت؟ ظل يسعى حتى أصبح مترجماً في الإذاعة.. يترجم نشرة الأخبار للقسم العربي.. فعل ذلك ريثما حصل على هذا البيت.. ثم انقطع.. زعم أن العمل على القطعة لا يؤاتيه.. إما أن يصبح موظفاً كاملاً أو يترك.. ترك الترجمة والإذاعة واحتفظ بالبيت.. من يستطيع إخراجه منه؟ في المجر لا يلقون الناس في الشارع.. إنه يعرف القوانين جيّداً، يستفيد من الحقوق دون الواجبات، يقول إن له حقاً.. أما الواجب فيضحك: «مرحباً واجب..» يقول أيضاً: «الشاطر يدبّر رأسه، أنا دبّرت رأسي، وسأدبّرك يا نديم.. لا تكن لجوجاً..» لكن نديم تساءل وهو يطهو القهوة: «متى يدبّرني هذا الشيطان الذي استجرّني إلى هذه الورطة؟ أكاد أضيع دراستي. إنه لا يبالي بهذه الدراسة. يقول: «كن مثلي. أنا مسجّل للدراسة، لكنني أعمل شيئاً آخر، أكثر فائدة».. ربما كان هذا ملائماً له، لكنني أنا أكاد أضيع المنحة، إذا لم أنجح، طُردت من المجر.. أنا لا

أعرف كيف أدبّر أمري.. وهو يقول: «لا تَخَفْ.. منحتك ستُمدَّد.. هذه عليّ.. لا تتدخّل أنت في شغلي، ولا تقلق، نفّذ ما أقوله لك.. عملنا يحتاج إلى شيئين: «عدم المناقشة، ودقّة التنفيذ».

أحضر القهوة وفي نفسه حنق.. حيش ينام هانئاً إلى الضحى، بعد سكرة لعينة إلى الصباح، وهو يرتجف في وقفة مريبة، في زاوية شارع خلفي، ريثما يتسلّم البضاعة ويأتي بها إلى هنا..، وبعد ذلك يلقي عليه حيش مواعظ في رباطة الجأش، وعدم الخوف. لا يرى أيّا خطر حتى ولو قبضوا عليه.. إنه يهوّن الأمر، يرى المسألة بسيطة: «هـذا لاستهلاكي الشخصي!» حقيبـة من السكائر والويسكي، وعلى إقناعهم أنها لاستهلاكي الشخصي، وأنها مرسلة إلي من سورية.. هذا الوغد، يحسب أنهم بلهاء حتى يصدقوا مثل هذا التلفيق.. وماذا يعنيه صدقوا أم لا.. إذا وقعتُ فإنه سينكر معرفته بي، يزعم أنني أفتري عليه، في محاولة لإيقاعه.. أنا لن أستمرّ في هذا الانحراف، لن أعيش مرتعد الأوصال، على أن انقذ نفسي منه. أهرب من وجهه. أقطع كل صلة لي به.. وفي حالة كهذه فقط أطمئن.. وفي جو الاطمئنان وحده أستطيع الدراسة.

كان حيش ما يزال جالساً على حافة السرير، البضاعة أمامه فوق طاولة مستطيلة. كان متورّم العينين بشكل ظاهر، يبدو من فتحة الفانيلا شعر أسود كثيف في صدره. رأسه صغير، والقسم الأعلى من جذعه ضيق، بخلاف القسم الأسفل، العريض، الممتلئ إلى درجة السمنة، كأنما تشكّل قوامه على شكل هرم، فيه إفراط في الوسط، وضمور مع استطالة تبلغ الرأس ذي العينين الرجراجتين.

تناول القهوة دون أن ينظر في عيني نديم الذي أعدّها له،

ترشّفها متمهّلاً، أشعل سيكارة. سحب منها أنفاساً نهمة. قال بلهجته الصارمة نفسها:

- الزبائن لن يأتوا إلاّ في الليل.. هذه البضاعة ستنفق كلّها، وعلينا، بعد ظهر اليوم، أن نجد كمية منها من مصدر آخر. دَعْ هذا الأمر عليّ.. دورك، في صباح الغد، أن تتسلّم البضاعة في المكان الذي أحدّده لك.. وسأكون، عند وصولك، صاحياً.. لا تقلق.. أما الآن فسننصرف إلى شغلنا اليومي المعتاد، هاك كمية من النقود المجرية، هذه مئة ألف من الفورنتات.. لدينا مجالات كثيرة لمبادلتها بعملات أجنبية.. هناك المقاهي والفنادق، حيث يتواجد عرب أو أجانب جاءوا للسياحة. إنهم ينتظرون أن نقدم لهم خدماتنا.. فورنتات مقابل دولارات أو ماركات غربية.. ولا بأس بالفرنك الفرنسي والسويسري أيضاً.. الأفضل هي الدولارات.. تدفع أكثر في سبيل الحصول عليها.. أيّ مجال تختار لعملك: المقاهي أم الفنادق؟

قال نديم:

- سأذهب إلى الجامعة اليوم.. منذ أسبوع لم أحضر درساً واحداً.. فاتتني محاضرات مهمة.. لابدّ من التعويض كي أنجح.. إنني قلق جداً.. شغلة التهريب هذه تضعني أمام مصيرين: السجن، أو الطرد من المجر..

أشعل حيش سيكارة جديدة.. كان يسمع لامبالياً.. الذبابة التي وقعت في شبكة العنكبوت لن تنفلت من نسيجه الدبق بالسهولة التي تظنّ.. بعد العمل معه لا يجوز الانفصال عنه.. هذا تصرّف غير لائق من جهة، وخطر من جهة أخرى. من يُقدم على ذلك

يعرّض نفسه للانتقام.. وهو، حيش، له أساليب كثيرة للانتقام، بينها السجن، والطرد الفوري من المجر.. وعلى هذا فليس من سبب للانزعاج.. ليدع نديم يفشّ خلقه.. يعبر عن صحوة ضمير لم يمت كما يجب بعد.. المهم أن ما يطلبه سينفذ.. وعلى نديم أن يختار: المقاهي أم الفنادق.

قال وهو يخرج الدخان من فتحتي أنفه المفلطح:

– هذا اللغو الذي لا فائدة منه صار مقرفاً.. اشرب قهوتك.. إليك بسيجارة.. سنأكل شيئاً الآن، ثم نخرج إلى الشغل.. اذهب إلى مقهى «أم كي». هناك تجد جوجا بانتظارك.. إجلس معها. قدّم لها ما تطلب من مشروب. هي تنتظر زبائن، ونحن ننتظر زبائن.. الموقف واحد إذن، والتعاون جيّد، لمصلحة الطرفين.. تستطيع أن تسحب زبونك إلى غرفتها، هناك تبدّل له العملة. وهناك تقدّم له جوجا جسدها.. العربي زبون أفضل.. محروم أكثر.. يريد امرأة بأي شكل.. تستفيد من تبديل عملته ومن مكافأة تقديم جوجا إليه.

– لتذهب جوجا إلى الجحيم.. صيّرتني مهرباً وقوّاداً.. أنا لا أستطيع الاحتمال أو الصبر أكثر.. لن أجلس في المدخل بينما يكون الزبون مع جوجا في التخت.. أعصابي لا تتحمل..

– أعصابك ستتحمل.. ستعتاد.. وستعرف اللذة في المستقبل.. القوّاد (وأنا لا أحب هذه الكلمة.. أفضّل عليها كلمة الوسيط) القوّاد له لذّته أيضاً... يرى، يسمع، يستمتع.. في بريطانيا كان رجال بارزون، يدفعون مبالغ لعارضة أزياء شهيرة.. كي يروا من فجوة في الجدار، إلى ممارسة الجنس أمامهم.

– هؤلاء شاذّون..

– وما هو السيئ في الشذوذ؟.. نصف أوروبا شاذّة.. اللذة، في حال كهذه، تتضاعف..

– ولكنني سأذهب إلى الكلية كما قلت لك..

– لماذا؟ كي تنجح؟ وماذا يعني النجاح؟ شهادة.. وما هي الشهادة؟ وسيلة عمل.. وها أنت تعمل، تربح أكثر.. وتبقى في المجر غانماً متنعّماً.. أليس هذا أفضل من العودة إلى بلادك حيث البطالة ووجع الرأس؟ أم تظن أن العمل ينتظرك على الحدود؟

– مهما يكن، مهما يكن أريد أن أنجح.. إذا سقطت هذا العام طردوني..

– لن يطردك أحد.. هداياي لها فعل السحر.. ستنتقل إلى كلية أخرى.. تبقى في المجر ما شئت.. تفعل مثلي.. لو أردت النجاح لحققته منذ زمن بعيد..

– لكنك نجحت في الديبلوم..

– وأمامي الدكتوراه.. هذه ستطول.. أنت أيضاً ستنجح في الديبلوم، وعليّ تدبير منحة الدكتوراه.. وبعد ذلك يكون لك بيت، وزوجة، وتبقى في المجر إلى ما شاء الله..

– هذه مغريات.. وعود كاذبة.. أهلي أرسلوني للدراسة والعودة بأسرع ما يمكن..

– أهلك متخلّفون.. الذي يعيش في المجر مثل الذي يعيش في سورية؟ فكّر أنت..

– ولكنهم ينتظرون عودتي لمساعدتهم..

– سأجعلك تساعدهم.. لا تستعجل..

– لكنك تضعني في طريق خطرة.. إنني خائف.. دعني أكن صريحاً معك.. إنني خائف..

– الخوف شيء طبيعي، خاصة في البدء.. لقد أعددت لك مفاجأة..

– ما هي مفاجأتك هذه..؟ تهريبة جديدة؟

– اتفقت مع جوجا أن تكون لك الليلة.. خذ النقود واذهب إليها.. بمجرّد أن ينتهي عملكما تكون لك.. ستبقى عندها إلى الصباح.. حين تفرغ من زبائنها تكون لك.. رتّبت معها كل شيء..

أضاف بعد صمت:

– الآن حان وقت الخروج.. أنا سأرتدي ثيابي، أما أنت فاسبقني إلى المقهى..

كانت مع نديم حقيبة يد صغيرة. أفرغ محتوياتها على الطاولة، رتّب نصف الأوراق النقدية وحشرها فيها. لم يبق مجال لعلبة السجائر. وضعها في ساق جرابه تحت البنطال. تفقّد الهوية الجامعية، حلق ذقنه، أصلح ملابسه. كان يرتدي سترة قضفاضة، صيفية، وضع ما تبقّى من الأوراق النقدية في جيوبها الداخلية، تطلّع في المرآة، له وجه طالب، شاب صغير وطالب. لم يترك السهر والسكر آثاره على وجهه كما فعل مع حيش. يستطيع الآن أن يخرج هادئاً، مطمئناً، فليس معه أيّ شيء مهرب. علبة سكائره فقط كانت مارلبورو. هذه جزء من عدة الشغل، يضعها على الطاولة، وفوقها الولاعة الغازية من نوع رونسون.. شارباه الأسودان، إضافة إلى لونه الأسمر، يدخلان في مواصفات الشغل. صارت له، بحكم الممارسة، فراسة في الأشخاص، في وسعه تمييز الغريب من دخوله من تردّده، من اختياره الكرسي، من تلفّته. يراقبه من بعيد. إذا كان الجوّ خالياً، يمكن أن يذهب إلى طاولته، في حال الاشتباه بوجود مراقبة، ينتظر حتى يخرج من المقهى فيتبعه. لكل حالٍ

موقف. هو لن يخاطر بودّه أن يقوم بعمله دون أن يخاطر. قيل له إنه أصبح مشبوهاً، لكن البوليس المجري لم يوقفه ولا مرة بعد. إنه غير مراقب حتى الآن، وجلوسه مع جوجا، ثم خروجهما معاً، يصرف النظر عن مهمته الحقيقية، جوجا مشبوهة جنسياً، يحسبونه على علاقة جنسية بها. في هذا المجال الاهتمام أقلّ. المراقبة غير شديدة. في مسألة الجنس تساهلٌ إلى حدّ ما.. حيش يتقن عمله. له زبائن كثيرون. له كذلك صديقات.. في كل مقهى، في كل فندق، له عاهرة، لكنه لا يكشف اللواتي يتعامل معهن. عرّفه بجوجا فقط. جوجا جميلة، شقراء، فارعة، مغرية ومثيرة. إنها فخ صالح.. دور هذا الفخّ، بالنسبة إليه، تصريف العملة فقط. القوادة بعيدة عن ممارساته. يكره أن ينحدر إلى هذا الدرك. لن يبحث عن زبائن يريدون الجنس. هذه مهمتها هي، هو سيحصر اهتمامه بالذين يريدون تبديل نقودهم.. وماذا في هذا؟ في كل سفارة موظّفون يقومون بالعمل نفسه.. هؤلاء، موظّفو السفارات، وحتى الكبار منهم، يزاحمونه مزاحمة شديدة، ما إن يصل وفد، حتى يهمسوا في آذان أعضائه أنهم في خدمتهم.. ويفهم أعضاء الوفد.. في السفارات، في الفنادق التي ينزلون فيها، يجري تبديل العملة باطمئنان. هؤلاء لديهم حصانة. لا أحد يسألهم، في وسعهم، إذا سئلوا، أن يقولوا إنهم يقدّمون مساعدة لمواطنيهم، لكن أحداً لا يسألهم.. لو سألوا موظفي السفارات، ولاحقوا عمليات التهريب التي يقومون بها، لاضطروا إلى طرد أعداد كبيرة منهم.. ليس من سفارة يمكن أن تَسْلَم في هذه الحال.. حيش قال ذلك وهو يعرف، وكذلك يعرف نديم.. ولو كان موظفاً في سفارة، لعمل مطمئناً، وحقّق صفقات دون أن يتعرض إلى أيّ خطر.

خرج من البناية ١٩ في بنتزور أوتسا ، سار في شارع بيضا أوتسا إلى نادي الصحفيين ، هناك انتظر الباص رقم واحد ، وعند تقاطع شارع الجمهورية بشارع لينين نزل من الباص وركب الترام ، وبعد دقائق كان في مقهى « أم كي » . لم يدخل رأساً . سار على الرصيف متمهّلاً ، راقب محيط المقهى ، تفرّس من وراء الزجاج بالجالسين في الداخل ، جوجا لم تأتِ بعد . قد يكون لديها زبون . في هذه الحال تتأخّر . العمل في صالات الاستقبال ، في الفنادق ، أسهل ، تعرف القادم من حقائبه . تعرف الغريب من لباسه ، تعرفه أيضاً من كلامه مع العاملين في الاستعلامات . حيش يرابط هناك . يختار الأماكن الأسهل ، لكنها الأخطر أيضاً ، رجال الأمن ، هناك كثيرون ، الرقابة شديدة ، لكنهم لا يستطيعون التدخّل ، خاصة حين يكون النزيل عربياً ، ويتقدم حيش عارضاً خدماته ، من الترجمة مع موظفي الفندق إلى المرافقة للتسوّق في هذه الحال لا يستطيع البوليس أن يشتبه مواطنان من بلد واحد ، وقد يكونان صديقين ، فكيف يمنع أن يتحدث أحدهما إلى الآخر ؟ كيف يمنعهما من الخروج إلى السوق ، إلى النزهة ، إلى المقهى ، إلى المطعم معاً ؟ حين يصير لك رأسمال يا نديم ستَرابط هناك ، في أبهاء الفنادق . أما الآن فانت محكوم . حيش معلّمك ، ويريدك أن ترابط في الـ « أم كي » ، وها أنت فيها . . ادخل إذن . اشرب قهوة ، راقب الباب ، افتح عينيك وأذنيك ، وحين تصل جوجا اشرب معها قدحاً من البيرة . . وستكون ، ما دامت معك ، مجلبة للنظر . . المهم أن يفتح الله عليك بزبون مليء . . زبون يحمل مبلغاً طيباً ، ويريد أن ينفق ، أن يستمتع ويتسوّق .

دخل المقهى حذراً ، كانت النباتات الخضر ، في المساكب قرب الجدران الزجاجية ، وفي آنية أشبه بالبراميل ، تعطي المقهى جواً

ربيعياً ، يتناقض والسطوع الصيفي ، لحرارة غير مألوفة ، في الخارج . وكانت الموائد ، والكراسي ، وزجاجات المشروب . وشراشف الطاولات ، كلّها تعطي انطباعاً حلواً ، فيه غبطة . لكن نديم ما كان قادراً أن يغتبط ، كان الغلاف الخارجي لقلبه قد بدأ يتكلّس ، الرفض الداخلي ، للمهنة القذرة ، والاضطرار الخارجي ، للمهنة ذاتها ، للسقطة التي اندفع إليها ، وكل الوضاعة المتولّدة عن مهنة بشعة ، تحجّر كبده ، تزيده سواداً حتى يصبح ، يوماً بعد آخر ، فحمة قُدّت من ليل .

جلس في زاوية مقابل الباب ، أحس أنه عاهر ، وأن جلسته ، في ترصّد زبون ما زال مجهولا ، جلسة عاهرة ، وتمنّى أن تأتي جوجا بسرعة ، شريكته في العهر ، ليجد فيها صورة لنفسه ، ويتخلّص من وحدته ، من وحشته المسوّرة بإحساس مهين إلى درجة اللعنة . لكنه ، وهو يمارس شعوره بالذلّ هذا لمح رجلاً يدخل المقهى . توقف الرجل عند الباب ، تطلع في الجهات الأربع للمقهى ، واتجه إلى طاولة في الزاوية .

ارتعش نديم للمصادفة الحميدة . ها هو زبون ، زبون مغرٍ كما يبدو من وجاهته . إنه صيده المنتظر ، عليه أن يراقبه عن بعد . يتريّث في النهوض والدوران حوله . ربما كان على موعد مع أحد الطلاب ، عندئذ تصبح مهمته أصعب . مهما الحظّ فإنه لن يجرؤ ، أمام طالب يدرس مثله في بودابست ، أن يعرض خدماته بشكل سافر . إمتدت يده إلى الولاعة . أمسكها بأصابع متوترة . أخفاها في جيبه ، انتظر قليلا . لم يأت أحد ، ظل الرجل وحيداً ، . . نهض متمهّلاً ، مرّ أمامه دون أن يتوقف ، تفرّس فيه ، إنه سوري أو لبناني ، هذا ما استنتجه من هيئته غاب دقائق ورجع ، كانت الآن

سيكارة في يده. اقترب من الطاولة متردّداً. وحين رآه الرجل وبيده سيكارة، حسب أنه يطلب ولعة. دنا وقد وضع السيكارة في فمه. قال بالعربية:

- عفواً.. لا أحمل كبريتاً..

قال الرجل وهو يشعل له السيكارة:

- تفضّل..

أضاف:

- هل أنت عربي؟
- نعم، عربي من سورية، أدرس في المجر.. وأنت؟
- من سورية أيضاً..
- تشرّفنا.. قلبي خفق لمرآك.. يا ريحة الوطن..
- أضاف: هل من خدمة؟

قال الرجل:

- شكراً.. تفضل إجلس.. إشرب قهوة معي..

جلس.. شرب القهوة. تحدّث عن بودابست. امتدح ما فيها من أشياء جميلة، بالغ في المديح، وفي ذكر الأماكن التي يمكن أن يزورها السائح.. ثم سأله:

- تريد أن تتسوّق ولا شك..

فكّر كرم قبل أن يجيب:

- أريد طبعاً.. هل هناك أشياء جيّدة يشتريها الزائر؟
- هناك أشياء كثيرة.. مصنوعات يدوية، خشبية، ومعدنية، تذكارات، أقمشة.. و..
- ماذا أيضاً..
- الفرو.. فرو الفيزون.. إنه رخيص، بنصف ثمنه في الغرب..

- وبأية عملة أدفع؟
- بالفورنت.. العملة المجرية.

أضاف:

- أستطيع أن أخدمك في هذا المجال..

سأل كرم:

- تخدمني بأيّ شيء..؟ بالترجمة؟

قال نديم:

- بالترجمة وتبديل العملة؟

تفرس كرم في وجه الشاب، دقّق أكثر، نظر إلى ثيابه، وعندئذ تذكّر الشابّ الذي رآه يدخل باب البناية في بانتزوراوتسا وبيده حقيبة كبيرة. قال:

- لكنني إذا أردت شراء الفراء، احتاج إلى مبلغ كبير..
- المبلغ، مهما يكن كبيراً.. موجود.. إنني مستعد.. قال كرم في نفسه: «هذا واحد منهم..» وبقرف وسخط، سأله:
- تقدّم هذه الخدمة لي أم للجميع؟ سمعت عن الذين يعملون في السوق السوداء، وعن تواجدهم في كل فندق ومقهى، وفي هذا المقهى بالذات، لكنني ما كنت أتوقع أن يتعاطى طالب سوري هذه المهنة.. ألا تعمل مع محمد حيش؟
- ومن هو حيش هذا؟
- تتجاهل؟ تمتهن مهنته وتتجاهل؟
- وماذا أعمل؟.. أنا محتاج..
- والمنحة؟
- لا تكفي..
- كيف تكفي الآخرين؟

- الغريب لا يستطيع تقدير وضعنا هنا.. هذا البلد اللعين، ماذا أقول..؟ أودّ جمع أجرة السفر للفرار إلى الغرب..

قال كرم ساخراً:

- هكذا إذن!.. تشرب من البئر وترمي فيه حجراً.. تشتمه أيضاً.. وربما تتجسّس عليه.. اسمع: أنت قذر، ولو لم تكن عربياً، وسورياً على الأخص، لقبضت عليك وسلمتك للبوليس.. ألا تخجل من هذا السلوك؟ هيا، انهض عن هذه الطاولة. أخرج من المقهى كله.. لا أريد أن أرى هذا الوجه ثانية.

وقف نديم والعرق يبلل جبهته.. لقد صادف أناساً رفضوا عرضه مراراً، لكنهم لم يقرعوه على هذا النحو. الذي يتكلم ليس زائراً عادياً، ليس سائحاً، لا بد أنه صديق للمجر ويعرفها جيّداً.. لا بأس.. إنها بداية سيئة.. ليخرج قليلاً.. ليتوارَ، ثم ليَعُدْ، حين ينصرف..

طاف في الحارات القريبة، أحس أن الرجل صفعه، ركله على قفاه.. لعن حميش في سرّه، مهنة المهرب كمهنة القوّاد.. عار.. إنه مسربل بالعار.. طالب جامعي ومهرّب؟ اما كان من الأفضل لو درس بجد وحصل على شهادته وعاد؟.. ما أتفه حياته! كيف يستمرّ فيها؟ وهذه الكمية من النقود في حقيبته وجيوب سترته.. يعود إلى حميش ويُلقيها في وجهه؟ يقول له: «أنا أقلعت عن العمل معك يتوب..؟ ولكنه مدين لحميش، والسنة الجامعية ضاعت.. إذا لم يَسْعَ له حميش في التمديد طرد من المجر.. يا لها من ورطة!. إنه يغوص في مستنقع نتن.

حين عاد إلى المقهى كان كرم قد انصرف، كانت جوجا هناك، تجلس وحدها على طاولة تراقب منها المارة على الرصيف. اقترب

وحيّاها. جلس صامتاً، كان يمضغ ذلّه، كان عاجزاً عن «العمل» هذا اليوم، لكن جوجا أخبرته أنها بانتظار زبون عربي من لبنان، وأنه يريد تبديل كمية من الدولارات بعملة مجرية.. قالت إنها متفاهمة مع حميش على كل شيء.. وحالما يأتي الزبون يذهبون ثلاثتهم إلى غرفتها.

لم يقل نديم شيئاً، ظل واجماً مرتبكاً، منكسراً. سألته جوجا عما إذا كان حادث ما قد وقع له، أو أن أحداً يراقبه، فأجاب سلباً. طلبت له فنجاناً من القهوة، وراحت تسرّي عنه بانتظار الزبون الموعود، الذي تأخر قليلا..

حوالي الظهر كانوا ثلاثة ينحدرون باتجاه تقاطع شارع لينين مع شارع الجمهورية.

قام نديم بدور الترجمان بين جوجا وصاحبها، لم يقل له هذا شيئاً، لكنه عامله كقوّاد.. كانت نظرته إليه تنطوي على احتقار. أغضى نديم على هذه المعاملة، أطرق وهو يسير.. وعند تقاطع الشارعين ركبوا سيارة أجرة انطلقت بهم إلى حي قديم في بودابست.. وهناك صعدوا درجاً معتماً، فلما انتهوا إلى غرفة في الطابق الثالث، تقدّمت جوجا وفتحت الباب، فتأخر حتى دخلا، وتلفّت حواليه، وأطل من بسطة الدرج ليرى ما إذا كان ثمة من يراقبهم.

كان بيت جوجا مؤلفاً من غرفة، ومجاز صغير، ضيّق، يقوم مقام الصالون، وكان الزبون تاجراً للأجبان، في الأربعينات، واسمه مصطفى. كان مستعجلا، وكان مغتلماً، ولايصدّق أن جوجا تصل إلى ذراعيه. لكن هذه لم تكن مستعجلة. خلعت جاكتتها الصيفية.

فاندفع إليها وعانقها. لم ترفض. قبلته بدورها. ولما طلب منها أن تخفّف أكثر فعلت. بقيت بالشلحة، وجلسا على خوان، أمامه طاولة واطئة، وقام نديم بخدمتها. جلب لهما، كما طلبت جوجا، زجاجة نبيذ. فتح بعض المعلبات. حل بعض ما في الثلاجة من طعام، وعندئذ دعته جوجا، التي كانت تجلس في حضن زبونها الآن، عارية الفخذين، أن يشرب كأساً معها. تكلم معها بالمجرية. قال إنه يريد تبديل العملة للرجل والانصراف. سألته كم يحمل من الفورنتات فلم يجبها صراحة. قالت إنها تريد مبلغاً كبيراً، وأنها تعطي نفسها مقابل ذلك دون أن تحدّد وقتاً.

ترجم نديم ما قالته.. طلب منه أن يدفع سلفاً، لكن مصطفى كان يريد أن يضاجعها أولا.. وَعَدَ أن يدفع أي مبلغ تطلبه إذا كانت لطيفة وأرضته. قالت لنديم: انتظرني إذن، سأجعله يدفع كثيراً، ثم دخلت غرفة النوم، ودخل مصطفى وراءها، وأغلقا الباب. بقي نديم في الخارج.. بقي في وضع قواد وجلسته. كان يسمع.. كان يشعر بالعار والقهر ويتمنّى أن ينتهي كل شيء بسرعة.. ولم تتحقق أمنيته، فقد طالت العملية الجنسية، وكانت جوجا تتصرف بغير حياء.. تتأوّه، تصرخ، تضحك بصوت عال، وتتفنن في إرضاء زبونها، غير آبهة بنديم الذي تعرف أنه خارج الباب، وربما كان ينظر من ثقبه.. لكن نديم ظل جالساً لا يحس بلذّة القواد التي حدّثها عنه حبيش.

أخيراً فتح الباب. خرجت جوجا عارية تماماً. غمزته وهي تمرّ به في طريقها إلى الحمام. بقي الرجل في الداخل يرتدي ثيابه، تنفّس نديم الصعداء. اقتربت اللحظة التي تبدأ فيها مهمّته بتبديل النقود.. لكن جوجا، حين عادا إلى الجلوس على الخوان، طلبت

أجرتها دولارات.. قبضت ٢٠٠ دولار. كان المبلغ كبيراً، لم تحصل على مثله من أيّا زبون سابق، لكن مصطفى كان راضياً، لقد أمتعته جوجا، وسألها، بواسطة نديم، عما إذا كانت تستقبله مساء أيضاً، وأن ترضى بقضاء الليل معه، فقالت وهي تضحك:

– أوكي.. أنا رهن اشارتك مادمت تدفع جيداً..

أضافت:

–جادفع إلى نديم شيئاً ما..

فدفع، وسألته «ألا تريد تبديل دولاراتك بفورنتات..؟ يجب أن تكون معك عملة مجرية، أودّ السهر معك الليلة، في أحد المطاعم، وبعد ذلك نأتي معاً لنمارس الحب هنا».

سأل:

– ومن يبدّل لي؟

– أسأل نديم.. أطلب منه أن يساعدك..

قال الرجل:

– بودّي تبديل كمية من الدولارات.. هل تساعدني في ذلك يا نديم؟

– لا أعرف من يقوم بهذا العمل.. لكنني، لأجل خاطرك، مستعدّ أن أقوم بخدمتك بنفسي.. ظنّي أنني أحل مبلغاً يكفي.. كم تريد..؟

– كم تدفع مقابل الدولار؟

– ٣٥ فورنتاً..

كان مصطفى يعرف، مما سمع، أن الدولار يساوي ٤٠ فورنتا في السوق السوداء، لكن نديم أصرّ على ٣٥ فورنتاً فقط فرفض الرجل التبديل، وبعد مساومة دفع نديم ٣٨ فورنتاً، وأخرج من حقيبته

وجيب سترته كمية كبيرة من فئة المئة فورنت، وراح يعدّ، والرجل يعدّ معه فلما بلغ العدّ عشرة آلاف فورنت، قال:

- كفى، لا أحتاج أكثر..

- ولكنك ستحتاج لدفع حساب الفندق، والمطعم.. وشراء الهدايا.. ولن تجد بسهولة من يخدمك مثلي.. في بودابست فروٌ جيد.. فرو الفيزون، ثمنه مضاعف في الخارج.. أنصحك.. تستطيع أن تربح ضعف ثمنه.. وستكون السيدة زوجتك مسرورة جداً بهدية كهذه لو قدّمتها لها.

- وكم تقدر ثمن معطف الفرو؟

- لا أدري.. قد يصل إلى عشرين ألف فورنت.. لكنه تحفة، تحفة نادرة يا عم مصطفى.. أنا مستعدّ لخدمتك في شرائه أيضاً.

تفرّس هذا في وجه نديم الذي لاح فيه الشَرَهُ الآن، وقال ساخراً:

- قوّاد.. تريد أن تشلّحني فلوسي كلها؟.. أخذت أجرة القوادة. وفرق تبديل العملة، وتريد أن تخدعني في مسألة الفرو.. تحسب أنني أجهل مقاصدك؟ قلت لك إنني تاجر أجبان.. معنى هذا أنني أعرف الجبن، ولي فيها عملاء.. ولا علاقة لي بالفرو.. إنني لا أفهم فيه.. هيا.. اجمع فلوسك وانصرف.. دعني وجوجا وحيدين.

- أنا لا أسمح لك..

صاح مصطفى محتدّاً:

- اخرس!

تبدّلت سحنة نديم تبدلاً كاملاً. امتقعت. احمرّت أذناه

وحدها.. يبس الكلام على شفتيه. فكر لحظة في العراك. لكن مصطفى كان يسمّره بنظرات أحدثتْ ثقوباً في جلده. لم يذب من الخجل. ما كان مادّة قابلة للذوبان. لكنه استشعر انكساراً جديداً، تضاءل معه جسده داخل جلده. ظلّت كلمة «قوّاد» ترنّ في أذنيه، وبقي يحاول ابتلاعها دقائق، فلما انصرف عنه مصطفى إلى تقبيل جوجا، وجد فرصته ليجمع ما دفعه له، وما تبقّى من عملته المجرية الملقاة على الطاولة، وحين وضع كل أشيائه في جيوب سترته، نهض حاملاً حقيبة اليد وقال لجوجا:

- أنا ذاهب..

غير أنه، قبل أن يتخطّى العتبة، سألها:

- ستكونين مشغولة الليلة؟

- لماذا؟

- حيش قال..

- ماذا قال؟ وضحكت بفجور..

أجابها:

- لا شيء.. لا شيء..

أغلق الباب وراءه منحدراً على السلّم الحجري، وهو يتنفّس ارتياحاً. لقد كسب اليوم شيئاً ما، شيئاً محرزاً. لكنه، فجأة، تسمّر.. استدار ليرجع، فإذا رجل الأمن يصيح به:

- لا تتحرّك.

حاول القفز لكن فوهة مسدس ضغطت على ظهره، وقال له رجل أمن آخر:

- هيّا معنا!

- إلى أين؟

- ألا تعرف؟؟

وقال في نفسه: «عملها حيش معي؟» غير أن حيش كان قد سبقه إلى دائرة البوليس أيضاً، وبعد قليل دخلت جوجا التي قبض عليها وعلى مصطفى، وبقي الثلاثة رهن التوقيف.. إلا جوجا فقد أُخرجت من باب خلفي.. وقال لها رئيس القسم:

- لعبت دورك بشكل جيد.. معلوماتك كانت صحيحة.. من أجل ذلك نَدَعُك تذهبين.. لكن حذارِ من المراوغة.. لا تنسي أنك تحت المراقبة أيضاً.. وأنك طعم في صنّارتنا..

وقالت وهي تتناول حقيبة يدها وتنصرف:

- أعرف كل شيء وأحفظ كل شيء.. إنني مجريّة مخلصة، مجريّة طيبة، برغم سمعتي السيئة.

- ١٧ -

عادت بيروشكا من قريتها، أحضرت له معها بعض الفواكه والزهور، سألته كيف أمضى الأيام في غيابها. من جاء إليه؟ إلى أين ذهب؟ مَنْ قابل؟ كانت النضارة تشعّ منها. شعرها فقط يحتاج إلى تسريح. لكنه، في التبعثر الذي صار إليه، بدا أخّاذاً أكثر. هو لا يميل إلى الأشياء المصقولة. يهيم بالطبيعة، ليس في الطبيعة ما هو مصقول. وحشية الكائنات، في الصورة التي أعطيت لها، في الشكل الذي اتخذته، في التعبير البدائي، كانت تفتنه، وكان على مكتبه، تمثال من خشب، احتفظ بكل الصفات الطبيعية للشجرة التي صُنع منها. ولقد ارتاح إلى بيروشكا، لخصلتين بارزتين فيها، الطيبة والدهش. جمالها، مع هاتين الميزتين، يعطي تأثيراً أكبر، يخلف انطباعاً بأنها لا تتعمد، لا تنتقي، لا تتكلف، في السلوك والكلام والاعجاب، وأنها، حين تحبّ، يكون حبها نابعاً من قلب بريء، تغدقه بغير تردّد، بغير حساب، كأنه المعجزة التي صنعت ذاتها، وأنها، في استجابتها لهذه المعجزة، تتصرّف بعفوية كاملة.

لم يقل لها إنه استقبل روزيكا هي لا تعرف روزيكا، ولا سبب يدعو للكلام عنها، ما دامت تجهلها. قصتها صارت من الماضي. لقد قرّر ألا يراها بعد، ولا يستقبلها، وسيتعذر للبارمان فيرانتس إذا

حدّثه عنه، أو جرّب أن يكون أداة اتصال بينهما، كذلك لم يقل إنه ذهب إلى ايرجكا. انتهت العلاقة بهذه أيضاً، اتفقا، بغير كلام، على إنهاء ما بينهما. هو لن ينسى نباهتها، صداقتها، عاطفتها النبيلة، قدرتها على النفاذ إلى الأعماق، كلماتها الحقيقية عن أزمته، لكنه لن يذهب إليها، وإذا ما اتصلت به بعد العودة من السفر فسيكون لبقاً، وسيعتذر بأدب، ويقول لها صراحة إن له صديقة، وإنه يريد أن يخلص لها، كل شيء كان حسناً حتى الآن، اللذين عرفهم، من النساء، أعطينه انطباعاً جيّداً عن المرأة المجرية، هذه التي تتصرف بحرية، باستقلال، بإرادة في أن تحب، تصادق، تمارس الجنس، دون رخص وفي جوّ صحي، جوّ اجتماعي له من أوروبا هذه الحرية في التعامل، لكنه يفترق عنها في أن الحرية الممارسة تجانب الابتذال، وبيع الجسد، والقبول بالقسر، تحت أية ذريعة، ومهما كانت الظروف. وليس معنى هذا أن بودابست ليس فيها فتاة تقدم على تصرّف مغاير، لكن عدد اللواتي يقبلن الارتهان للمال قليل، وعدد البغايا أقلّ، في بلد، في عاصمة، كانت قبل التحرير، كما قال أليوش، تضم مئات الألوف من العاهرات والمتسولين.

تناولا الغداء في نادي الصحفيين القريب. كان حذراً وهو يدخله، لشعوره العصيّ على القهر، بأنه كهل، وصديقته شابة صغيرة. خلافاً لذلك كانت بيروشكا مزهوة، راغبة في أن تعرض صديقها الكاتب، وأن تفاخر به. وقد أكسبها هذا الإحساس حالة من التشوف، وأضفى على تصرفها مرحاً زائداً، وجسارة في أن تتولى هي طلب الشراب والطعام، وأن تقترب منه حتى تكاد تلتصق به، وتأخذ يده أمام كل من حولها، غير هيابة ولا مقتصدة.

وخلال الطعام، سألها عن القرية، عن الريف المجري، عن الحياة

هناك، الحياة التي لابد أن تختلف كثيراً عنها في المدينة، في العاصمة خاصة. قال إنه لاحظ، وهو قادم إلى بودابست في القطار، أن الريف المجري جميل جداً، ونظيف، وعلى درجة من الرقي لم يعرفها في الأرياف الأخرى، وسألها عما إذا كان هذا صحيحاً، وأن الريف قد تطوّر بعد التحرير، وكيف تجري عملية الإنتاج، والتعاون، والتطبيق الاشتراكي في الزراعة، وقد أجابته عن كل ذلك بصدق.. لم تعط صورة كاملة، لا نقص فيها ولا عيب، لكنهاصورة مشرقة، قياساً إلى الماضي، يوم كان الفلاح أجيراً، لا يملك أرضاً ولا بيتاً، وكان الريف فقيراً، بائساً، متخلّفاً أيضاً.

ثم ضحكت وهي تقول:

- انتبه يا كرم. لا أريد أن أغشّك. إنني أتكلّم من موقع الإيجاب، أعني من وجهة نظر مؤيدة، فأنا، كما ينبغي أن تعرف، عضو في الشبيبة، ووالدي، قبلي، كان في الحزب، ومن مناضلي الريف القدامى.

قال كرم ضاحكاً أيضاً:

- شهادتك، إذن، مطعون فيها..

- أنا أقول الصدق، وبقدر ما أعرف، ولك أن تأخذ كلامي على الوجه الذي تريد.. وقد آن الأوان لأن تعرف أفكاري، وآمل ألاّ تختلف، إذا كانت لك أفكار مغايرة.

- أفكار مغايرة تماماً.. أنا إقطاعي، ولا أريد أيّة كلمة عن التقدّم..

قالها وضحك. شرب نخب بيروشكا باعتبارها رفيقة فكر، فوق أنها صديقة. ودّ، في هذه اللحظة، أن تكون أقرب إليه. أن يجنّ بها كي يحبّها ويتزوّجها.

قالت بيروشكا:

- أنا لا أصدق أنك إقطاعي، أو عدوّ للتقدم.. وإلا فما الذي حملك إلى الصين؟

- ومتحفي؟

- هذا كنز ثقافي.. الثقافة ليست ضد التقدم بل معه. ثم ماذا يعني هذا؟ نحن أيضاً، في المجر، يملك الفرد بيتاً أنيقاً، وسيارة، وقد تكون له فيلا ريفية، وقطعة أرض لإنتاجه الخاص، يستطيعُ أن يبيعه للمستهلكين.. الحكومة لا تتدخَّل في هذا الأمر..

- كم هو جميل أن يتحقَّق الحلم يا بيروشكا.

- أي حلم تقصد؟

- حلم الحياة.. حياتنا هناك، في الوطن..

- أنت؟

- نعم.. وإلا لماذا هذه الغربة؟ لماذا هذا التشرُّد؟

- اسمح لي، في هذه الحال، أن أشرب نخباً كبيراً..

قال كرم:

- بودّي لو أذهب إلى الريف معك.. ولكن ماذا يقول والدك؟

- لا شيء.. وسيكون مسروراً أن يعرف أنك تشاركه أفكاره.

- لا شكّ أنه سعيد الآن..

- ليس تماماً.. يقول إن السعادة ستكتمل في المستقبل.. سعادته، الآن، في البناء، في التسريع لبلوغ هذا المستقبل..

- هل تعذّب كثيراً في حياته؟

- كثيراً.. اشترك، أيضاً، في مقاومة النازيين المحتلين.. وبعد ذلك ناضل لبناء التعاونيات الزراعية.. ولكم تعذب لأجلها. كان يعمل ليلاً نهاراً، ويتألم كثيراً.

قال كرم مستغرباً:

- يا إلهي يكون التحرير ويظلّ الألم قائماً؟

- والدي يقول إنه تعذّب بعد التحرير أضعاف ما تعذّبه قبله.. كان إنشاء التعاونيات صعباً جداً، فالفلاح الذي حصل على قطعة أرض بعد انتظار طويل، حرص، في البدء، على الاحتفاظ بها.

- وهذا حقّه..

- لكن والدي يقول: ليس من مصلحته.. لا بدّ أن ينضم إلى الحياة التعاونية، وقد رفض الفلاحون ذلك، فقام الذين من أمثال والدي، بإنشاء تعاونية، اثنتين، ثلاث، وبعد التجربة أدرك الفلاحون أن العمل التعاوني أكثر فائدة وأفضل مردوداً، وهكذا انقلب الوضع.. في البدء كانت الحكومة تدعوهم للانضمام إلى التعاونيات، وبعد ذلك صاروا يقبلون عليها بكثرة، وصارت الدولة تعتذر وترجوهم أن ينتظروا قليلا...

قالتها وهتفت:

- ولكن كفى.. لماذا هذا الإلحاح في طلب المعلومات، هل تنوي كتابة بحث عن المشكلة الزراعية..

- طبعاً لا.. لكنني كنت أحسب أن الأمور استقامت بعد التحرير مباشرة.

- بعد التحرير كان كل شيء متهدّماً.. كان أنقاضاً.. ثم جاءت الثورة المضادة، وأنت سمعت بها ولا شك..

- سمعت.. حدّثني أليوش.

- إذن أنت لن تكرهني بسبب أفكاري..

- بالعكس.. كان بودّي أن أحبّك..

- ولكنك تحبني.. أليس كذلك؟

– أحبك.. أنا أعني حباً آخر.. مثل حب روميو وجولييت..

– أنا لا أتمنّى مصيرهما..

– ولا أنا.. هيّا ننصرف.. لدينا سهرة في المساء.. نسيت أن اليوم هو السبت؟

– لا أحبُّ السبت بسبب هذه السهرات.. تذكر السهرة الماضية؟

– أذكر هَرَبك يا قطتي الصغيرة..

– هل ستأتي ايرجكا الليلة أيضاً؟

– ايرجكا لن تأتي.. لن تأتي مطلقاً..

– والنساء الأخريات..

– لكل امرأة صديقها..

– وأنت؟

– صديقك فقط..

– لا أصدق.. أحس أن لك علاقات أخرى.. هذا المتحف اللعين..

– سنرسله إلى جهنم..

– بل نعيده إلى الصناديق يا حبيبي..

– سنفكر في هذا مستقبلا..

في البيت أعدَّ لها فنجاناً من القهوة. كانت القهوة سائغة. شربتها بتلذّذ، لكنها رفضت التدخين، كرم وحده دخّن بنهم. كان الشراب يزيد في شراهته إلى السيكارة، وكانت بيروشكا تراقبه مشفقة. تخاف على رئتيه.. قال لها: «لا تخافي.. لن أعيش طويلا، ولا أريد ذلك.. لست يائساً، ولكن لا أريد أن أصير عجوزاً..» «تخاف الشيخوخة؟» ليست الشيخوخة، بل مطاردة الحياة.. حتى

الآن، أنا من يطارد، ولا أريد أن نتبادل الأدوار «ماذا تخشى؟» «لا شيء، ولكنني أرغب، في وقت ما، أن أقول للحياة وداعاً.. أن أقول لها شكراً.. انتهت الدورة» «يا حبيبي، يا كرمي العزيز.. أية أفكار ينطوي عليها هذا الرأس الجميل؟.. أنت لا تقول هذا لتحزنني.. أليس كذلك؟ أريدك، الآن، سعيداً،.. أريدك أن تحبّني، أن تقبّلني، وأن تمارس معي الجنس.. إنني بشوق إليك.. أنت تعرف ذلك.. مضت أيام ولم أرك.. كنت، في القرية، أفكر بك.. أفعل ذلك في النهار، وفي الليل، وحين أستلقي في الفراش، كان النوم يجفوني.. لماذا، يا حبيبي، أنا مجنونة بك إلى هذا الحد؟..»

قال كرم:

– أنت مجنونة لأنك غير مأزومة..

– كلامك مبهم.. أوضح إذا أردت..

– لا أستطيع.. بل لا أقدر.. أنت لست معقدة، هذا ما أردت قوله..

– وأنت؟

– لنتكلم في شيء آخر.. ما رأيك، بقليل من الوسكي..

– أنت لا تريدني سكرى..

– أريدك، كما أريد نفسي، خارج دائرة التفكير الملعون.. لقد تكلمنا، في النادي، بما يكفي.. كدنا نصير خبيرين في الزراعة.. الآن، ينبغي أن نضع التفكير جانباً.. لا أقول ننساه.. نحن لا ننسى، ويجب ألاّ ننسى، لكن شاعرنا قال: «لكل أمر في حينه خطب» أي نستطيع أن نتكلم، وحتى أن نخطب، حول أي موضوع، في وقت هذا الموضوع، أما الآن، وأنت لدي، في بيتي،

فأريدك أن تكوني غير ما كنت في النادي، ولهذا أقترح أن نشرب قليلاً، قليلاً جداً، مادمنا في انسجام مع أنفسنا..

– أنت رائع يا كرم، يا حبيبي، أنا لم أكن أعرف أنك إنسان بهذا الشكل.

– الآن عرفت.. لا أريد أن أستغلّ هذه المعرفة.. لعلّها، بالنسبة إلي، أن تكون ثقلاً في وجداني، لكنني صادق مع نفسي، الآن، يا بيروشكا، صرت عزيزة أكثر، عزيزة إلى درجة تفرض عليّ أن أكف عن علاقتي بك، فهذه العلاقة لن تثمر أبداً..

– ولماذا لن تثمر أبداً؟ أنت لا تحاول تخويفي، أليس كذلك؟ أنت لن تنفصل عني.. قل إنك لن تنفصل..

– أتمنّى ذلك.. ولكن انظري، والدك يبني مجتمعه، وأنا، هل أكون جديراً بحبك، إذا عشت في مجتمع لم أسهم في بنائه.. أنا أيضاً يجب أن أبني مجتمعي، ولكن متى؟ هذا ما أجهله الآن، لكني، بكل تأكيد، سأفعل.. ولأنني سأفعل فإن علاقتي بك، في الصدق الذي أريده، لا يمكن أن تستمرّ.. أنا لن أرضى بأن أخدع أحداً، وخاصة بيروشكا.. لندع هذا اللغو، فهو سابق لأوانه. تريدين شيئاً من الموسيقى؟

– أريد بالطبع، كما أريد جوّاً رومانتيكياً، كالذي كان، في تلك السهرة التي هربت منها.. لنُرخِ الستائر، نغلق الباب، نشعل الأضواء الملونة، نشرب، نشرب، دون أن نحسب حساباً لأحد.. نعيش لحظتنا كاملة.. موافق؟

– تصرّفي كما تشائين..

تصرّفت.. أغلقت الباب بالمفتاح. أغلقت النافذة. أشعلت

الأضواء الملونة، انتقت ما تريد من الموسيقى وجاءت إليه قائلة «الآن أنا لك، أفعل بي ما تريد.. خذ روحي.. تمتّع بجسدي، بكلّ جسدي.. كن لطيفاً أو عنيفاً، بل كن عنيفاً.. أرجوك.. أريد أن أموت، أن أموت في هذه اللحظة، ودون أسف على شيء».

شربا.. شربا أكثر. قال في نفسه: «يا صديقي هيدجي «عندنا مثلا» أنت كنت صادقاً. الذي عندكم ليس عند غيركم. عندكم الأشياء تحلو، الأرض، الناس، النبيذ، الطعام، والنساء، كل شيء غيره في هذا الكون.. «عندنا مثلا» أشهد، أنني كنت عندكم ورأيت.. ايرجكا كانت رائعة. كانت فنانة، كانت إنسانة، وحتى روزيكا، المتمرّدة، كان تمرّدها قشراً، أما قلبها فكان ياقوتة.. وبيروشكا هذه.. بيروشكا التي كانت تخاف أن نفترق بسبب الأفكار.. عزّزت الأفكار ما بيننا.. وفيرانتس اللعين، هذا البارمان الرائع أوصاني ألاّ أكون غجرياً.. ولكن يا صديقي، كل نسائكم، كل نساء الدنيا، تريد من الرجل أن يكون غجرياً.. لماذا إذن تريد أن تجعل مني حضرياً لطيفاً؟

خلعت بيروشكا سترتها. خلعت بلوزتها أيضاً. بان الكتفان، بانت رمانتا الكتفين، بان الصدر، توهّج البياض المورّد، وقع النظر على مجرى النور، عند الجذرين الناهدين، عند الذروتين الأعلى في الذرى. تشهّى اللهب الشبقي، صرخ، من العنق، صوت مندّى بشهوة حمراء: «قبّلني» لم تكن، هي، تسمع ما يصدر عن العنق من هتاف. كانت مصدر الهتاف، كانت الأداء، وكان هو المتلقي، وكانت تجهل ما ينبغي، في تلك اللحظات التي يومض فيها شوق مجنون، ويرف كطائر النار في كل ذرة، كل بقعة، كل مسام، في الجسد الفتي، الناضج، كخوخة صفراء تنادي: كلوني!

رغبت أن تمضي في إلقاء ما عليها من ثياب، قطعة قطعة. أوقفها. «لا تعرضي كنزك اللعين دفعة واحدة» قال لها.. في واجهة المعبد البوذي يقوم جدار.. في مدخل هذا البيت توجد ستارة. أن يزال الجدار، أن تسقط الستارة، تقتحم العين كل المفاتن، يحدث امتلاء مفاجىء.. شبع يطامن الجوع في النسغ الجحيمي. لا، ليس هذا ما يجب. اعرضي، هذا البهاء، جزءاً جزءاً، دعي النظر يوقف لهاثه المحموم، وهو يندفع، بسرعة برق، بين البؤبؤين ومرمى الرؤية. تمهّلي، أرجوك، عند الشعر، الجبين، الشفتين، العنق، فلك الأزرار، ربوتي الكتفين، وبعد ذلك، أتيحي له أن يسقط قليلاً قليلا، من الصدر إلى السرّة، إلى الحوض، إلى العمودين المكلثمين اللذين يرتكز عليها، إلى الفخذين المستديرين، والساقين، والقدمين، وهكذا يتملّى الآخر، الناظر، المتأمل، كل مكامن اللذة التي تضج في الإهاب الغض لامرأة في ربيع العمر.

قالت بيروشكا وقد سقط الشريط الليلكي عن أحد كتفيها:

- ولكن ما تقوله شعر..
- كلا، هذا نثر يغار من الشعر.. بجسده..
- إذن أنت سعيد يا كرم؟
- جداً يا بيروشكا، يا عزيزتي، يا بيروشكاي، يا فتاتي الحلوة..
- ماذا أفعل أيضاً؟
- لا شيء.. ابقي هكذا.. لا تتحرّكي، او تحرّكي، استديري، أقبلي، أدبري، دعيني أنظر، أتشهّى، وأشرب، أشرب حتى انخطف معك ونستحيل إلى غمامة بيضاء..
- أنت تهذي..
- شيء من هذا..

- هكذا تكتب؟
- لا، ليس هكذا. أكتب بصورة رديئة. أكتب نفسي حروفاً، لكنني، الآن، أكتبك كلاماً.. اجلسي..

جلست. رفعت القميص عن الفخذين. عرضتها للنور. قدمتها، على مائدة الشراب، شريحتي سمك أبيض، مكتنز، يتبقع عليه رداء معتم. ماذا يقول الفخذان العاريان للكأس الحالم؟ كيف تبحر الرؤية على ملاسة البشرة المشربة بماء الورد؟ كيف يأتي الكأس وينتحر كسراً على مرمر عمودين من لحم؟

- لنشرب يا بيروشكا..
- ولكنك تكثر من الشراب يا كرم.. أنت تخيفني اليوم. لم تعد كرم الذي أعرفه..
- ماذا تغيّر في؟
- عيناك..
- ماذا في عينيّ؟
- لا أدري.. شيء لامع، مخيف.. له أسنان.. أسنان أحسّها تنشب في لحمي.. ضحك كرم.
- الذي ينهش اللحم هو القرش..
- في عينيك قرش إذن..
- احذري إذن.. قد يأكلك..
- بودّي لو يفعل.. دعه يأكلني مرة وإلى الأبد.. عندئذ أستريح..
- تعبة أنتِ؟
- ليس التعب الذي نعرفه عادة.. بي شوق يحرق أعصابي..
- تريدينه أن ينتهي؟

- ليس سريعاً .. أحب أن أبقى هكذا .. هذا الخدر في جسدي، وهذه الرعشة .. هل هي بفعل الشراب ..؟
- وشيء آخر ..
- ما هو؟
- لا اسم له ..
- لا اسم له؟ هل هناك أشياء لا أسماء لها؟
- كل الأشياء التي نحسّها بعمق تبقى بلا أسماء .. الأسماء، يا بيروشكا، تحدّد الأشياء، تجعلها .. كيف أقول؟ هل هناك اسم للحظة الكبرى؟
- أية لحظة؟
- اللحظة التي نموت فيها دون أن نموت .. تلك التي تأتي بداية ونهاية معاً؟.
- كرم ... يا عزيزي .. أنا لا أفهم .. لا تكن سوريالياً .. قبّلني، الأفضل أن تقبّلني .. عندئذ يكون التعبير مفهوماً، يصبح له اسم: اللذة .. أليس كذلك؟

نهض واحتواها. قبّلها في خدّها، في عنقها، في شفتيها. غمغم. فتح فمه كأنه يريد أن يأكل فمها المشقوق عن أسنان بيض، جميلة، منسقة، خافت وأبعدت فمها ..

- أنت لست قرشاً يا كرم .. تذكّر أنك لست قرشاً ..
- كرم صار قرشاً .. أنت صيّرته قرشاً ..
- كن لطيفاً إذن .. أرجوك ..
- لا تخافي، أحاول تقليد القرش، لكنني لا أبلغ ذلك .. أنا لست إلا حيواناً ناطقاً مسكيناً ..
- أنت مجنون .. لم أعرفك شهوانياً إلى هذه الدرجة .. خذني إلى الفراش .. تعال .. لا أطيق الصبر أكثر ..

نزعت قميصها، ساعدها في نزع ما تبقّى. فتح الخوان الذي استحال إلى سرير .. استلقت عليه: قطعة بشرية متمدّدة، مستعدة، متفتحة، ومثلث تحت غابة من شعر خرنوبي، وتاجا فخذين، ونهدان نافران، متباعدان، كأنهما على جفاء، رغم القرب والمنبت المشترك، وحلمتان ورديتان، مثل كرزتين في تباشير النضج ..

- تعال! (صاحت) لم أعد أطيق الانتظار .. خذني ..
- ألا تخافين؟
- ليس قبل أن أموت .. أما قلت إننا، الآن، سنموت ..
- يا بيروشكا (قال لها وهو يفترعها) يا صغيرتي .. بودّي أن أكون لطيفاً .. ألاّ أجعلك تتألمين .. هل تحسين بألم ..؟ لا تصيحي، نحن في النهار .. عضّي على شفتيك، تقبّليني كما ينبغي، هل كل شيء على ما يرام؟
- على ما يرام يا حبيبي .. على ما يرام تماماً .. أنت بارع ..
- ألست غجرياً ..؟
- أحبك ولو كنت غجرياً .. أهكذا يفعل الغجر؟ أهذا ما يسمونه معزوفة غجرية ..؟ اضغط أكثر .. أريدك كلك .. كلك. لا تخف علي .. لا تخف ..
- ولكنك تئنين .. أهذا من ألم ..؟ اهمسي في أذني .. تأوهي في أذني .. لا تصرخي، أرجوك ..

ولم تستطع إلا أن تصرخ. وتصاعدت، على مدى دقائق، غمغمات مشتركة، ومرّقوسٌ شديد الصلابة شديد الطراوة، على مجرى قيثارة غضة الملمس، وكانت حركة، حركة متوافقة، ايقاعية، وقالت بالفرنسية Maintenant (الآن)، وظلّت تردد الكلمة، بإيقاع متسارع، متسارع، إلى أن تقطّع، وتبعثر، وتناثر حروفاً متباعدة، لم تلبث أن خفتت، وتلاشت تدريجياً ..

- ١٨ -

كانت سهرة السبت موفّقة. ضمّت وجوهاً جديدة. أعطى الساهرون أنفسهم للبهجة. عود نصر جميل متح الآهات من الأعماق. ردّد ضياء كلمته التقليدية «مُحكم» وسجد حسن أمام العود، وهو يتصاعد، أعلى فأعلى، في تقسيم من نغم عجم عشيران. كان يصيح: «باه! باه!»، ويطوح برأسه يميناً ويساراً، والدمع يتحيّر في مآقيه حنيناً إلى تبريز.. وأليوش المعجب بالمقدمة الموسيقية لأغنية «أنت عمري» يصيح: «جميل والله يا أخي، جميل» وفتاة مجرية، فتنها الجوّ الشرقي، خلعت حذاءها وجلست أرضاً. بعد ذلك غنّوا «يا بنات اسكندرية»، وغناها ضياء بالتركية، ووقف وهتف: «اسطنبول! آمان جانم، اسطنبول مُحكم، بالله مُحكم» وعندما عزف نصر مقطوعة رقص «الهوانم» لسامي الشوا، رقصت فتاة عربية، وأنزل جورج عصا المينغ الأثرية وقدّمها لها.. وعلا التصفيق، وجُنّ القوم..

في ختام السهرة رفضت بيروشكا العودة إلى الكلية. قالت إنها مجازة. أقسمت أن هذه آخر ليلة تبيت فيها خارج الجامعة. رضخ كرم لتوسلاتها. قرّر، في نفسه، أن تكون هذه آخر سهرة تحضرها. أمسى الآن أكثر حرصاً عليها. لقد وعد عميد الكلية ألاّ يشغلها عن

الدراسة. أن يحملها على الانتظام، ويوقف انسياقها وراء لهو قد تدفع ثمنه عاماً دراسياً كاملا. زاد في تقبّله للواقع أنه غداً صباحاً في العاشرة تماماً، سيصطحبها معه إلى قرية «كود» على الدانوب، تلبية لدعوة أليوش..

كانت بيروشكا، في ذروة سعادتها. لعبت، الليلة، دور سيدة البيت بإتقان. كان هادي، طوال الوقت، يهمس في أذن كرم:

- أنظُر كم هي أليفة.. لن تستطيع الآنفصال عن هذه الجنونة.

وكان بهيج، الموكل بالمطبخ، وضبط النظام، يكشر عن أسنانه الكبيرة وهو يضحك:

- أنت، يا بيروشكا، مثل رائع للفوضى.. لولا كرم لشطبنا اسمك من اللائحة.

وجاءت إلى كرم محتجّة:

- بهيج يهدّدني..
- يمزح معك..
- ألست راضياً عن عملي؟
- كل الرضا.. فقط لا تستهلكي «الجن» في صنع أيّما طبق لعين، كما فعلت في الماضي..
- ولكن هادي يقول أطباقي فاخرة..
- هو كذلك.. ولكن لا تجهدي نفسك.. دعي الأخريات يعاونّك..
- لا أحتاج إلى معاونة.. ليس للأخريات علاقة بالمطبخ..
- وما الضرر، يا عزيزتي؟
- أنت لا تعرف.. الضيفة، إذا دخلت المطبخ، عدّت نفسها من أهل البيت..

- فهمت.. أنت تخافين..
- لا أخاف.. ولكن لا أريد.. لتحافظ على مسافة مع الجميع.. هذا أفضل.. أليس كذلك؟
- هو كذلك.. أنا لن أكون صديقاً لأحد سواك.. أنت صديقتي الوحيدة.. اطمئني..
- ولن تعطي موعداً لأي واحدة من الموجودات؟
- لن أعطي مواعيد بعد اليوم..

وقال هادي، الذي كان يراقب ويسمع:
- هذه المجنونة ستلحق بك إلى جزر واق الواق..
- سأضع حداً لجنونها، في الوقت المناسب..
- أشك في أنك تستطيع..
- أنت لا تعرف عنادي، حين أعتزم أمراً..
- ولماذا تعتزم مثل هذا الأمر؟ نادراً ما رأيت امرأة بهذا الإخلاص.

قال كرم وهو يهز برأسه:
- هذا ما يخيفني.. ليتها لم تكن مخلصة، أو ليتها لا تبقى مخلصة يا هادي..

هذه الكلمات الصادقة في أسفها، ظلت تعيش في ذاته الليل كله. وعندما، في الصباح، أفاق وهي نائمة، وادعة، استعادها من جديد. «لماذا يربكنا الآخرون بإخلاصهم الذي لا نتطلبه»؟ كان النهدان وهي مستلقية، قد وجدا مطلعهما من القميص الداخلي، بحمالتيه الرقيقتين، والدانتيلا ذات التخاريم تستريح على الصدر والفخذين، كأنما لتعذّبه، أكثر، لتفجّر فيه رغبة لا ترتوي، لكنها،

في نقص الإخلاص، تبعث شعوراً أسيفاً، فهي رغبة محدودة بمدى الجسم، مسوّرة بالشهوة لا بالحب العظيم.

أفطرا جيّداً، كانا جائعين. أخرج من الخزانة بلوزة حريرية مشغولة بالأويا، وقال لها: «هذه هدية من المتحف». تقبّلتها شاكرة. لكن سؤالاً داخلياً أزعجها: «لماذا يضعني في غربة عن متحفه؟ أليس المتحف لنا نحن الاثنين؟ كلما شعرت أن المسافة بيننا انمحت، أعادها بحركة، لفتة، إيماءة، كأنما يريد أن يذكرني بالحقيقة، الحقيقة التي تشعرني بأنه لن يكون لي، أو لن يكون لي إلى الأبد؟»

جاء أليوش بسيارته الصغيرة. قال إن عليهم أن يقضوا نهاراً كاملاً في القرية. وأن هناك بعض الضيوف أيضاً، وأن الفيللا، أو الأرض الخاصة، التي يملكها والد زوجته، تقع على الدانوب مباشرة، وثمة بيت، وكوخ، وبستان، ويمكن أن يسبحوا في الدانوب، بل يجب أن يسبحوا، ولهذا يستحسن أخذ ثياب للسباحة. لكن هذه الثياب لم تكن متوفّرة، ولا سبيل إلى شرائها واليوم أحد، فقال كرم:
- من جهتي يكفيني أن أكون على مقربة من النهر هذه المرة.

قال أليوش:
- بل يمكن أن نكون على سطحه.. لدينا قارب صغير.. هل تحسن التجديف؟

قالت بيروشكا:
- أنا سأكون ضيفة.. لكنني أخاف التيار.. هل هو سريع جداً، هناك؟
- إذا نزلنا النهر، ومضينا مع التيار، تصل بودابست في ساعة

واحدة.. الصعوبة تكمن في التصعيد، في الذهاب ضد التيار..

وقال كرم:

– سنرى كل شيء على الطبيعة.. لنمض..

اخترقت السيارة بهم قلب بودابست. انتهت إلى الضواحي، مرّت بأحواض بناء السفن.. خرجت إلى الفلاة.. كان اليوم صحواً.. الشمس تلاحقهم باسمة، والخضرة، عن الجانبين، والبيوت الريفية بقرميدها الأحمر.. والسيارات، والدراجات النارية. كانت المدينة تخرج من جلدها، والناس يتّجهون، من جهات مختلفة، نحو الطبيعة، والدانوب، عن يمين الطريق، يسيل في مجراه العريض، والسفن، صاعدة هابطة والسابحون، على الضفاف، والذين تعرّوا، معرضين جسومهم للشمس، والاستراحات، على الجانبين.. وفُتن كرم.. تمنّى أن تخفّف السيارة سرعتها، أو أن يترجلوا ويسيروا.. لكن أليوش ضحك.. «دع الرومانتيكية يا أخي.. هناك ينتظروننا، وينبغي ألاّ نتأخر».

كانت قطعة الأرض الخاصة التي يملكونها مستطيلة. ضيقة ومستطيلة.. وحين دخل كرم من بابها المطلّ على الطريق، حسب أنها لا تزيد عن عشرات من الأمتار طولا. لكن الأرض كانت، بخلاف ما يبدو على واجهتها، طويلة جداً، تنتهي على ضفّة الدانوب، في منحدر ذي درج حجري، ومن حواليه الأشجار المثمرة. وكانت ثمة، في مواجهة هذه الملكية الخاصة، أرض واسعة، مزروعة بالبندورة. كان الموسم في أوجه، وأقراص البندورة الحمراء تتدلّى، وتترامى على الأرض، دون أن يقطفها أحد. قال اليوش: «هذه الأرض ستظلّ مشاعاً. ليس من أيدٍ عاملة لقطافها.»

قال كرم:

– كيف هذا..؟ أرض مزروعة وليس من يجنيها؟

– لا تعجب.. مئات الألوف من أشجار الكرز، والبندق، تظل دون قطاف.. مباحة لمن يريد.. هذا بسبب نقص اليد العاملة.

لم يصدّق كرم. وجد الكلام غريباً. خضار، ثمار، وليس من يجني؟ كيف هذا؟ لكنه، عندما دخل المزرعة الصغيرة، ووجد، عند بوابتها، شجرة ضخمة من التوت الأسود، والثمر يتساقط على الأرض، دهش..

قال أليوش:

– هذا الثمر يسمّونه، بالمجرية «أيير»..

تقدّم أيضاً. كان المشمش، الخوخ، الدراق، يملأ الأرض، تحت الأشجار، وقال أليوش:

– عندنا أيضاً، ليس من يقطف..

– لكنكم تزرعون.. من يزرع يحصد..

– نحن لا نستطيع أن نجمع كل هذا الثمر.. وهذه مشكلة..

رحّب العم، والد الزوجة، بكرم وبيبروشكا. كان في الداخل، أمام باحة البيت، ضيوف آخرون، وكانت الباحة تطل على الدانوب.. وكانت ثمة، في الباحة، طاولة، وعليها زجاجات النبيذ، البيرة، البالنكا.. ومن عادة المجريين، أن يستقبلوا ضيفهم بالخمر.. وبالزهر.. وكانت في الحديقة، أنواع من الورود، وتذكر هيدجي Chez Nous Par Exemple (عندنا مثلا) وقال بيروشكا:

– هل أنت سعيد يا كرم؟

– جداً يا بيروشكا.. ما كنت أصدّق.. ما رأيك في أن نمضي إلى الدانوب..؟

- أنا أفضّل أن تدخل هذا الكوخ.. دعنا نكتشف ما فيه..

كان في الكوخ سرير. طاولة. مرآة جدارية صغيرة.. أغلقت الباب:

- قبّلني!
- ولكنهم هناك، في الباحة..
- أعرف.. إنهم يقدرون.. أنا صديقتك.. ومن حقّي أن أختلي بك.. للناس حريتهم، حتى في المدينة، كيف إذن في الريف..؟

قبّلها عجلاً، خائفاً. كان الرجل الشرقي في ثيابه. ضحكت بيروشكا «لو نمنا الليلة هنا، لأعطونا هذا الكوخ.. ما رأيك في أن تنام؟»

قال كرم:

- لا أدري.. هذا ما نقرّره في ما بعد.. لنخرج الآن.. أحس عيونا تحدق فيّ من الجدران..

خرجا.. لم تكن ثمة عيون.. كانت الأشجار، الخضرة، وكومة كبيرة من الأخشاب والأحطاب.. كان الكوخ منعزلاً، وكانا قادرين، على المكوث فيه، لكن كرم كان غريباً على الجوّ، ووجد اليوش يتحدث إلى ضيوفه، ولم يلحظ حتى غيابها، فاطمأن، وحاول، بغير شعور، أن يبعد الريبة عن نفسه، فقال:

- ما أجمل هذا الكوخ الضائع بين الأشجار!

قال اليوش:

- يمكن أن تستريحا فيه بعد الغداء..
- وهل يمكن هذا؟

وضحك اليوش:

- لماذا لا يا أخي؟ الناس في المجر، لا ينظرون من ثقب الباب.. لا يراقب بعضهم بعضا.. تصرّف بحرية.. تريد لباساً للسباحة؟ هيّا إلى الدانوب..

كانت هناك، على الشاطئ، شجرة كبيرة قديمة، جذرها في الضفة، وغصونها تمتدّ فوق الماء.. وكانت فيها أرجوحة، وكان الناس يسيرون حفاة، على حافة الماء، فخلع حذاءه، وفعلت مثله بيروشكا، وسارا، بينا توقف اليوش، ينتظر دوره ليتأرجح..

قالت بيروشكا، في نبرة تمنّ:

- ليتك، يا كرم، كنت مجرياً..

قال كرم:

- لن أقول لا، ولن أقول نعم أيضاً.. لست آسفاً، ولا هارباً من المكان أو الزمان..
- أما أنا فآسفة.. ليتك تقيم في المجرّ وينتهي الأمر.. تقيم لأجلي على الأقل..
- كم كان هذا بودّي يا بيروشكا.. لكنني لن أفعل.. هناك شيء ينتظرني..
- وطنك؟
- وشيء آخر.. لا أدري ما هو.. لكنه ينتظرني.. وستنقلب حياتي، عندئذ، إلى درجة مخيفة..
- تصير شخصية كبيرة؟ مسؤولاً كبيراً؟!
- لا أفكر بهذا.. ما أريده، شيء آخر، بعيدٌ عن هذه التصوّرات.. أن أقول ما أريد.. أن أكتب.. أن أصير كاتباً.. ربما هذا.
- وماذا ينقصك هنا؟

- الجنون.. أن أتخلى عن عقلي قليلاً..
- ولكنك مجنون على نحوٍ ما.. أعني لست كسائر الناس.. تتصرّف وكأنك تبحث عن شيء..
- لكنني لا أعرف ما هو هذا الشيء..
- أليس هذا جنوناً؟
- قد يكون كذلك، لكنّه، في الغربة جنون عقيم..
- تراه يثمر هناك، في بلدك؟
- لندع هذا يا بيروشكا.. في هذه اللحظة، وهذا الداتوب، وذلك البستان، والكوخ والسرير في الكوخ.. ماذا يحتاج الإنسان أكثر؟
- أنت رومانتيكي لعين يا كرم..
- كنت أظن أنني عكس ذلك.. حسبت نفسي واقعياً..
- تصرّفك يقترب من البوهيمية..
- هذه قشرة خارجية.. من الداخل أتألم.. أعيش واقع الغربة بأعمق ما تكون الغربة.. أتألم وحيداً، صامتاً..

حدّثها، بعد ذلك، عن الإيطالي الذي لم يبق له من عمل سوى تبديل أمكنة المظلة، وعن نلسون الذي يقرأ الماركسية في الفيء صيفاً، ويقرأها وهو يتشمّس شتاءً، وعن الناس الذين أضاعتهم الغربة، والذين، في الغربة، فسدت أخلاقهم، وقال لها: «لا أريد لنفسي هذا المصير.. يجب أن ينتهي هذا الترف كله..»

حين عادا، ظهراً، إلى المزرعة، اقترح كرم أن يأكلوا على الطريقة المنغولية. لم يفهم الحاضرون ماذا يقصد. قال لهم: «أليوش يريد أن نأكل لحماً مشوياً في الفرن.. أنا سأطعمكم لحماً مشوياً خارج الفرن، وكل ما أحتاجه بعض الأسياخ.. هل لديكم أسياخ هنا؟

«قال اليوش: «لدينا في المزرعة أسلاك، تستطيع أن تصنع منها أسياخاً.. إذا كان هذا هو المطلوب».

صنعوا الأسياخ. أتى كرم باللحم وقطعه إلى شقف صغيرة. أشعل ناراً، ناراً كبيرة، من حطب المشمش.. شكّ اللحم بالأسياخ.. أتى بزجاجات البيرة والنبيذ.. قال: «سنأكل حول النار. نشوي اللحم، وحين ينضج نمسك السيخ من طرفيه، ونقضم اللحم منه، ونشرب من الزجاجات، هذا ما يسمّونه الطريقة المنغولية».
صاحت حماة أليوش:
- يوزش ماريو (يا يسوع ابن مريم، ورسمت الصليب على وجهها نعود إلى الهمجية؟
وهتفت الصبايا:
- نعود، نعود.. مللنا الشوكة والسكين..
قالت بيروشكا:
- ها أنت مجنون يا كرم.. هذا الغداء لا ينقصه الجنون..
وقال اليوش هامساً:
- ولكنك، بألاعيبك الغريبة هذه، تفتن هؤلاء الفتيات.. كل هذا تعلّمته من الشرق الأقصى؟ اللعنة على أوروبا.. لابدّ أن أسافر إلى هناك، أنا أيضاً، وسأعود ساحراً بلحية هندية.

نجح الغداء بأكثر مما توقّع كرم. كانوا يرون، في الأفلام، كيف تشوي الطريدة على السفّود.. كان ذلك في الغابات.. هنا البستان يقوم مقام الغابة. وهنا النهر، والنساء.. والخمور.. كانوا يرفعون زجاجات البيرة ويتبارون.. من ينزلها عن فمه فارغة.. وبالأوراق الخضراء كانوا يمسكون السيخ الساخن، وينهشون اللحم.. كان المشهد طريفاً، ورغبوا في التقاط الصور.. تهجّوا.. داروا حول

النار، وحتى العجوز التي نادت يسوعها متشفّعة فعلت مثل الآخرين، وكانت مسرورة، لكنها لم تفلح، ولا مرة، في إفراغ زجاجة بيرة دفعة واحدة.. وهذا ما أسفت لأجله.

بعد الغداء قالت بيروشكا:

- لنذهب إلى ذلك الكوخ.. إنني على ما يرام.. على ما يرام تماماً.. أريد أن أكون معك، على ذلك السرير..

قالتها ومضت. كانت راغبة. ولم يجرؤ كرم على اللحاق بها. كان ذلك فوق طاقته على تحدّي المشاعر من حوله. لكن اليوش الذي كان يضحك، مغشياً، صاح به:

- ماذا تنتظر، ألا تريد أن تستريح؟

وقال حوه وقد تعتعه السكر:

- اذهب واسترح على صدر عاهرتك الصغيرة.. لقد سبقتك..

قهقه الآخرون. ارتبك كرم. لكن البذاءة التي أدخلت السرور على القلوب، دفعت العم إلى الاسترسال في الإقذاع. قال وهو يفتح رجليه:

- إنها الآن تستلقي على ظهرها.. لا تدعها تنتظر طويلاً، سيتعب فخذاها..

وقالت زوجة العجوز:

- هذا كثير يا أشتفان.. لا يليق..

- ما هو الذي لا يليق؟ إنني أتكلم لغة عصرية تماماً.. هيا.. سأجعلك ترفعين ساقيك أنت أيضاً..

غطت العجوز عينيها بيدها، بينا صاح صوت:

- لكنك عجوز أيها الأب اشتفان.. عجوز جداً..

- ليس كما تتصوّرون.. ثم إنني أخذت حبوباً هذا الصباح، حبوباً مجريّة..

صفق الحاضرون.. كان الضحك عاماً الآن، اندفع العجوز بأغنية فلحقه الآخرون.. كانت أغنية جماعية، صاخبة، مرحة، وقد عجب كرم، من كثرة الأغاني الجماعية في المجر، ومن شعبيتها، واندفاع المجريين في غنائها كلما طاب لهم ذلك، وراح العجوز، في اندفاعة السكر والمرح، يلقي بعض الأشعار، كأنه أحد أبطال شكسبير، وختم حفلته الشخصية بخلع قميصه، وراح بسروال الشورت، ينحدر على الدرج حتى بلغ شاطىء الدانوب وألقى بنفسه في الماء.

لم يحاول أيّ من الموجودين منعه، أو ايقافه. كانت زوجته تضحك، وكذلك اليوش.. قال لكرم:

- شف، يا أخي، كم هو قويّ الأب اشتفان.. الآن سيبترد في الدانوب، سيصحو من سكرته، وهذا أفضل علاج له. إنه يعمل في مزرعته الخاصة في عطلة نهاية الأسبوع، وينهض باكراً، في الفجر، فيقطع الدانوب سباحة، وقد احتفلنا، هذا العام، بعيد ميلاده السبعين، ورقص حتى ساعة متأخرة من الليل، رقصاً عنيفاً، متواصلاً، كأنه في الخمسين.. هذا نموذج لجيل من المجريين، كافح طويلا، واستطاع التلاؤم مع النظام الجديد، بل كان من بناته..

قال كرم:

- إنني سعيد يا اليوش بهذه النزهة، سعيد بأكثر مما تعبّر الكلمات. القرية، المزرعة الخاصة، الدانوب، وهذا الغداء على الطريقة المنغولية، والغناء.. يخيل إلي أنني أتفهّم الروح المجرية.

إنني أقترب من فهم الشعب المجري، وهذا ما أريده.. أن يعيش المرء، ليس كمن يسمع.. بودّي أن أقضي عطلة نهاية الأسبوع في الريف، في رحلات على الدانوب، في الذهاب إلى بحيرة «البلاتون»، في معاشرة الناس، في التعرُّف إليهم، وعلى هذا النحو فقط، أستطيع القول إنني عشت في المجر وعرفتها.

– إذن ستخرج من المتحف؟

– اللعنة على المتحف.. إنني مللت، مللت.. خمس سنوات في الصين ولم أعرف الشعب الصيني، لم أدخل بيتاً صينياً. هنا اختلف الحال، لكن انظر.. انني لم أعرف، حتى الآن سوى بعض النساء..

– هذا جيد، في البدء، كي تتعلّم اللغة المجرية.. اللغة لا يمكن تعلُّمها من المدرسة أو الجامعة وحدها،... من المرأة أيضاً..

– لكنك تعرف، من رواياتي على الأقل، أن عليّ واجباً..

– أعرف ذلك وأقدره.. أنا أيضاً.. كيف أقول؟ كنت أهمّ بأن أفضي إليك بخبر مفرح: انتهيت من جمع الوثائق اللازمة لوضع كتاب عن إسرائيل.. سأشرح كل شيء، يجب أن يطلع القارئ المجري على الحقيقة. أن يفهم عدالة القضية العربية..

– آه أيها العزيز اليوش.. (هتف كرم) إنك تقدم مناصرة طيّبة لقضيتنا بكتابك هذا.. إنني مستعد لمساعدتك، لديّ بعض المراجع، وإذا خطر لك أن تستفسر عن شيء.. تعالَ إليّ في كل وقت.. لا تتردّد أبداً..

– سأفعل يا أخي.. أعرف أن بعضهم سيحاربني لأجل هذا الكتاب، لكنني لا أبالي.. أنا عضو في الشبيبة..

– هذا جيّد، جيّد جداً.. إنني أشعر، أمام قرارك هذا، بتقصيري.. تقصيري الشديد..

قال اليوش:

– الشهور التي أمضيتها في المجر، كانت مفيدة.. لم يكن ممكناً، ولا ضرورياً، أن تعتزل لأجل الكتابة.. كان يجب أن تعرف المجر أولاً..

– هذا ما كان يجب.. لكنني..

في هذه اللحظة خرجت بيروشكا من الكوخ. كانت قد نامت قليلاً، لم تحقّق مما كانت تصبو إليه، لكنها نامت قليلاً، تمطّت، ردّت شعرها الذي ذرّته الريح على وجهها. نادت كرم إليها، كانت غنّة صوتها ما تزال رطبة بذلك السائل الشبقي الذي دخلت به الكوخ. لقد خابت أمنيتها. ما أشدّ فجيعة المرأة، حين تحلم بوليمة جنسية، وينتهي حلمها إلى لا شيء؟ في هذه الحال تحتاج إلى قوة إرادة كي تقهر شعورها الجنسي المتوفز، كي تخدعه، أو ترغمه على الخمور، كي تلقي به إلى اللاشعور، وتظهر، من جديد، أنها غير مبالية، وأنها قادرة على أن تتماسك..

طلبت ماء بارداً. اقترح اليوش فنجاناً من القهوة. سألت عن العجوز، وما إذا كان قد نام، قال كرم: «تصوّري يا بيروشكا. قطع الدانوب سباحة وهو على تلك الحال من السكر. ظنّي أن الماء البارد نفعه. غطس، في البدء، عدة مرات. ابترد رأسه. تبخّرت الخمر من مسامه. يا للجسم الصلب المطواع! هذه ميزة جيرة الدانوب. بستان أخضر، يانع الخضرة، وضفّة وارفة الظلال، وعمل في الأرض، حتى يعرق الجسم، ثم سباحة في الدانوب، ونوم عميق. إن جسداً يتشكل من رياضة متتابعة الحلقات كهذه، حريّ به أن يقاوم.. لقد قاوم العجوز. شرب كثور، وكحوت غطس في

الماء، وبعد أن قطع الدانوب جيئة وذهوباً، خرج وقام ببعض الألعاب السويدية، ثم نام..

شربوا القهوة. كانت لذيذة جداً. وكانت الشمس، قد تعلّقت برؤوس الأشجار، من خلال أشعتها الذهبية الغاربة. إنه الأصيل. وقالت بيروشكا:

– ما رأيك، يا كرم، لوعدنا إلى بودابست بالباخرة.

– وهل يمكن هذا ؟ ما رأيك يا عزيزي أليوش؟

– يمكن، شريطة أن تقطعا الدانوب إلى الضفة الأخرى، حيث مرسى السفن النهرية مقابلنا تماماً..

– ولكننا لن نقطع الدانوب سباحة..

قال أليوش:

– بعضهم يفعل هذا.. هنا لا حرج من ركوب السفن بثياب السباحة.. لكنني سأوفر لكما قارباً صغيراً تقطعان به الدانوب إلى الضفة الأخرى.. انتظراني.. لديّ قريب هنا، نسيب لحماتي، وهو شاب قوي، ولديه قارب، ويمكن أن يجتاز بكما الدانوب بسهولة..

جمعا حوائجهما. ودّعا بعض الذين تذوّقوا معهما «الوجبة المنغولية». كان القارب ينتظر عند نهاية السلم الحجري، وعندما نزل فيه وابتعد بهما، لوّحا بالأيدي لأليوش الواقف على الضفة، فلوّح لهما بدوره، وانساب القارب بفعل ضربات مجذافين قويين للفتى الذي تطوّع بحملهما إلى الضفة الأخرى.

كانت الشمس، الآن، قد توارت، ذهبت إلى موعدها، في طرف الأفق البعيد، حيث يمتد الدانوب الأزرق، وكانت سفينة الركاب الصغيرة، الجميلة، الملأى، بل المزدحمة بالركاب، تنحدر مع التيار

باتجاه المدينة، وكان كرم وبيروشكا يقفان على حاجز السفينة. كانا صامتين، مفعمين بشعور قدسي من المهابة والإعجاب، وكان الماء يصطفق على جوانب السفينة بتؤدة، والريح منعشة، والغروب بهي، ووضع كرم كفه على يد بيروشكا فوق الحاجز، وقال في نشوة:

– بيروشكا، يا عزيزتي، ما أروع هذه الرحلة.

- ١٩ -

وصل هيدجي عائداً من الصين. كان يعرف أن كرم في بودابست، برغم أن هذا لم يكتب إليه أيّما رسالة. وذات مساء، عند الغروب، قرع الباب عليه، كان كرم، في لحظة «الاختطاف» هذه، كما كان يسمّيها، لا يعطي أية مواعيد. كان حريصاً أن يشهد تلك الدقائق وحيداً، متكئاً على حاجز النافذة، متابعاً بمزيج من شغف وحنان، بقايا ذهبية تلملم نفسها عن الذرى، فيما العصافير، بزقزقة نشطة، جماعية، متداخلة، يودّع بعضها بعضاً قبل المبيت، والهدوء مهيب، والنظر يركز، في عدسة شديدة الحساسية، كل المنظر المفتوح، للحدائق الخلفية، ذات الخضرة الحورية، وفي هذه الحديقة أو تلك، ملاعب أطفال خالية، ومقاعد فارغة، تعمر في الصباح وبعد الظهر، من قبل مستحمّين بالشمس أو مقيلين من العجائز.

كانت المرأة، بالنسبة لكرم، طبيعة، وكانت الطبيعة امرأة. وكان يتمنّى، في شعور مضمر وملحاح، أن يأكل المرأة والطبيعة ويستريح. يستشعر، حيال كل منهما، برغبة نهمة، ويتعب من رغبته النهمة، ويغمض عينيه، وهو أمام الأشجار العالية، وأسطحة القرميد الحمر، مستعيداً صورة قرية ما، في مكان ما من جبل

لبنان، وناقوس دير للراهبات، ونشيداً ابتهالياً: «اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب، واستريحي من عناء الفكر فالفكر رهيب». وكان في وحدته هذه، يلوذ بالصمت، مستمتعاً بوقته، مستجماً على طريقته، والروح المنعتقة ترفّ على النور المودّع وتغرب معه في بحر لا يسوّره مدى.

هذا التوحّد أضرّ به قرع الجرس. أحدث نوعاً من صدمة في مشاعره. عادت الروح الهائمة إلى قفصها الصدري. هربت الرؤى، استعاد، في ومضة استرجاع، واقعه، فتحوّل عن النافذة وذهب إلى الباب يفتحه.

- سرفوس! (مرحباً) صاح هيدجي الواقف على الباب..

وهتف كرم:

- سرفوس. أخرجها ممطوطة، حارّة، على طريقة المجريين. أضاف وهو يعانقه: «هوج فوج» (كيف الحال)؟

قال هيدجي وفي عينيه الزجاجيتين الزرقاوين التاع فرح مبلّل:

- يا صديقي.. يا كرم.. ها أنا أجدك أخيراً.. وأين؟ في بودابست. لا أصدّق!

قال كرم وهو في غمرة فرحة عارمة:

- نعم في بودابست.. تأمّل «عندنا مثلا» اعترف.. عندكم أشياء رائعة.. رائعة أكثر من كل ما رأيت..

- والأروع أنك تتكلّم المجرية.. متى تعلّمتها؟ كيف؟.. وماذا تعمل.. تكلّم.. تكلّم كثيراً..

- سأتكلم.. ولكن ليس قبل أن نشرب كأسين من «الماوتاي»

- «ماوتاي»؟.. غير معقول! وهذا المتحف.. حدّثني حسن..

فهمي هو الذي أعطاني عنوانك.. قالا لي أشياء كثيرة.. صوّراك بصورة أمير من الشرق!

- يبالغان.. كل من حولي يبالغ.. ها أنت تراني وحيداً..

- لكنه ليس وقت الفراش بعد.. جئت باكراً كيلا أزعجك.. اسمح لي، اسمح لي.. دعني ألقِ نظرة على المتحف...

وحين صبّت الماوتاي صاح:

- كأسك.. إنني أشرب نخب صديقي العزيز..

أضاف فجأة:

- اسمع يا كرم.. أنت على موعد الليلة؟

- ليس تماماً.. لماذا؟

- سنخرج معاً إلى أحدى حانات النبيذ.. هناك، وسط الرائحة الزكية، والدخان، ونماذج الشاربين، وثرثرتهم، نتحدّث.. هناك سنجد بودابست.. هل ذهبت إلى إحدى هذه الحانات..؟

- ليس بعد..

- ماذا رأيت من بودابست إذن؟

- بعض الأشياء.. بودابست كزهرة اللوتس الصينية.. تتفتّح على مهل..

- ألديك كثير من هذا الماوتاي؟

- ليس كثيراً.. إنه لا يقدّم إلا لصديق عزيز جداً، وبكمية محدودة.. لديّ نبيذ مبرّد..

- هاته.. وتعالَ حدثني.. لكم أنا مشوق لسماعك..

حدّثه كرم عن كل شيء وبتفصيل. كانت ابتسامة سمينة قد غمرت وجه هيدجي وهو يرى زجاجة نبيذ مبردة أمامه. شرب كظمآن. حمرة وردية شاعت في وجهه الأبيض، عيناه الزرقاوان وقد

رقد شيء ما داخلهما. لسانه انطلق في كلام متواصل. عبّر عن سعادته بهذه الكلمات «لشدّ ما أنا مغتبط أنك وجدت المجرّ كما وصفتها لك».

قال كرم بالفرنسية ممازحاً:

- عندنا مثلاً chez nous par exemple!

يا صديقي! يا صديقي! ردّد هيدجي.. لم أقل هذه الكلمة لسواك بعد سفرك.. ولن تراني أقولها؟ لذلك الروماني الجاهل، تصوّر! سألني: كم عدد سكان بودابست؟ قلت: مليونين.. تعرف ما قال؟ «عجيب كنت أحسبها كبوخارست» تأمل.. يقارن بين عاصمة عريقة، وبين قرية سخيفة ضائعة في أوروبا.. إنه لا يُطاق.. هذا الروماني الأحمق لا يطاق.. لقد أدرت له ظهري بعد هذه الحادثة..

قال كرم:

- أنا لا أعرف بوخارست..

- ومن الخير أنك لا تعرفها.. من يعش في المجر ير رومانيا مقاطعة.. أنا أتحدث الآن عن واقع، عن واقع صرت تعرفه.. لنشرب إذن، إنني على مزاج طيّب.. وقال بالفرنسية: Je me sens bien! لذلك، وغمز بعينه، ثم أفرغ كأسه وملأها كرة أخرى..

كان اعتداده بالمجر قد امتلكه تماماً الآن.. كبرت المجر، كبرت، صارت ربع الدنيا، نصفها، كلّها.

ولما فرغت زجاجة النبيذ طلب زجاجة أخرى، وقال لكرم: «لن أجعلك محرجاً بوجودي.. إذا جاءتك ضيفة ما، فأنا مستعدّ للانسحاب.. أفهم اللعبة. كنت شاباً.. كنت شاباً جميلاً أيضاً.. أنت

ترى.. ولكن «عندنا مثلاً».. عفواً.. إلى الجحيم بهذه الكلمة.. في بودابست يمكنك أن تقضي وقتاً طيباً جداً.. طيّباً إلى أبعد حد.. تستطيع أن تستمتع.. أنت، مثلا، غريب.. لكنك استمتعت.. غير أنّ هذا المتحف (قالها وغمز بعينه) هذا المتحف مصيدة.. أنت، يا كرم، خدعتني.. أقولها صريحة.. لم تطلعني، في بكين، على كل مقتنياتك من التحف.. أنت كنت هناك قبلي.. كنت في الزمن الطيّب.. زمن مخازن التحف.. الآن تغيّر كل شيء.. الدولة وضعت يدها على كل شيء.. جمعت مخازن التحف في مخزن واحد.. لكنك قلّما تعثر فيه على تحفة حقيقية.. كل معروضاته من المصنوعات الحديثة، كلّها عن الكومونات.. إلى الشيطان بأية لوحة عن الكومونة الشعبية.. ألم يعد في الصين ما يرسم غيرها؟

قال كرم:

- وأنت أيضاً، يا صديقي، لديك تحف جميلة.. بودّي أن أزورك لأرى متحفك..

- ستزورني يوماً.. سنتفق على ذلك اليوم، أنيكو بشوق إليك.. لكن لا تتوقع أن ترى أشياء كثيرة.. هناك أشياء غير معروضة.. هذه ليست للعرض.. أنت تفهم.. سأبيع بعض التحف، ولكن لا أريد أن يغشّني أيّ ابن عاهرة..

قال كرم:

- أنا بعت قسماً من تحفي.. بعتها بأسعار عالية.. في فيينا.. وبالدولار.

- انظر! صاح هيدجي وهو يحمرّ من قهر.. أنت تستطيع أن تفعل ذلك.. أنت أجنبي.. يمكنك أن تسافر وأن تأخذ تحفك

وتبيعها حيث تريد، وبالسعر الذي تريد.. أما أنا؟ اللعنة.. لن أبيع تحفي بالفورنت.. لست أبله إلى هذا الحد..

- لكنني أمزح يا هيدجي..

- أنت لا تمزح.. حتى ولو كنت تمزح فأنت تملك إمكانية الفعل، هذه التي أنا محروم منها.. لا تهوّن عليّ.. أعرف أن مصير تحفي إلى النار.. أنا لا أستطيع أن أقيم معرضاً في بيتي، ولا أن أستقبل ضيوفاً، أنّيكو ستعارض ترفض دخول أية امرأة.. اللعنة على الزواج.. لقد كانت زوجتي عبئاً عليّ في بكين، وهي عبء عليّ في بودابست، مسكينة يا تحفي.. يا تحفي العزيزة، أنا غير قادر على التمتّع بك، أو على بيعك.. آه لشدّ ما سوف أتألم.. اسمح لي بكأس أخرى. أريد أن أسكر، أن أنسى..

- ولكنك كنت طيباً منذ قليل..

- نعم، نعم.. كنت طيباً.. أحاول أن أكون طيّباً.. ألاّ أفكّر بتحفي العزيزة ومصيرها.. لكنك أنت، لامست جرحاً في صدري..

- في هذه الحال أعتذر عما أثرت من شجونك.. ما كنت أظن.. ما خطر لي أنك بحاجة ماسة إلى ثمنها.. ثم لماذا لا تبيعها بالفورنت؟ ستعود عليك بمبالغ طائلة..

- قلت لك لن أكون أبله إلى هذا الحد.. ثم ليست مسألة بيعها هي التي تضنيني.. مجرد تفكيري أنني سأموت وأتركها.. أنا الذي كنت خبيراً في الصين، وأنا من تقشّف حتى اشتراها.. ثم فجأة، ذات يوم، أتركها وأمضي... ولمن؟ لزوجتي؟ لأولادي؟ أنا صاحبها.. أنا، أنا..

- ولكننا سنموت جميعاً، وسنترك كل شيء..

- وهنا التراجيديا.. لذلك، اسمح لي أن أشرب أيضاً.. اللعنة على الموت.. ابن العاهرة هذا..

حين أتى على زجاجة النبيذ الثانية كان قد سكر تماماً. عيناه الزرقاوان نمّتا عن قلق بالغ. ضحكه انقلب إلى هيستريا. بشرته الحمراء وشت بعذاب دفين.. وحين وقف، حدّق في ما حواليه من تحف، وقال بصوت نصفه شكاة ونصف بكاء:

- أنت تمتّعت بأشيائك جيداً.. قالوا لي كل شيء.. أخبرني فهمي..

- لكنني لست سعيداً كما تظن.. هذا المتحف تسبّب ببعض الإزعاجات أيضاً..

- لا أصدّق.. يكفي أن تنظر إلى هذه التحف..

- ولكن في الدنيا تحفاً أخرى: الطبيعة، المرأة، الإنسان..

- أنا أحدثك عن الملكية.. أن تملك الأشياء بنفسك.. أن تصبح حرّ التصرف بها.. أتفهم يا كرم؟

- أفهم.. ولكن أنت، وبعد هذا الزمن.. ما الذي ينقصك؟

لم يجب هيدجي.. بدا الحنق واضحاً على قسماته. ربما قال شيئاً كان يودّ الاحتفاظ به لنفسه.. لكنه لم يرتكب خطأً فاحشاً.. التحف ملكية شخصية أيضاً.. مثل البيت، والسيارة، وقطعة الأرض. غير أن الإفصاح، على هذا النحو، ما كان ضرورياً.. إنه بفعل السكر.

على الباب توقّف وصافح كرم. ترنّح في وقفته.. اغتصب ابتسامة. ضحك فجأة.. عادت الالتماعة إلى عينيه الزرقاوين الزجاجيتين، سأل:

ألا تريد العودة إلى بكين؟

- لا.. أبداً..

- لماذا؟ لماذا لا تفعل مادام ليس لأحد سلطة عليك؟

- وأنت؟ تريد العودة؟ تريد مزيداً من التحف؟

- أنا؟.. انظر.. لقد استدعوني.. كان يجب أن أبقى أيضاً.. لكنني عدت.. اللعنة..

قالها ومضى في خط متعرّج، أقرب ما يكون إلى الجدار، وقبل أن يهبط في المصعد أبدى هذا الرجاء:

- أستطيع أن أزورك دائماً؟ أنت أيضاً ستأتي لزيارتنا.. سنحدّد موعداً.. سنفعل ذلك يوماً..

فيسونت لاتاشرا.. (إلى اللقاء).

وقال كرم وهو يلوّح له بيده:

- فيسونت لا تاشرا هيدجي!

وحين عاد إلى غرفته، استشعر فرحة أقل مما كان يتوقّع عند لقاء هيدجي. فترت همّته حتى عن التقاط الزجاجات والكؤوس الفارغة. ترك المائدة الصغيرة كما هي. وضع يديه في جيبي بنطاله وراح يذرع البيت، مخترقاً غرفتيه والمشى، مثله حين تبوخ الأشياء في ناظريه، حين تنفي نفسها، متحوّلة إلى سلب مطلق، باهظة روحه الشفافة كزجاج دمشقي، زجاج قابل للكسر من لمسة، لكنه لا ينكسر رغم مئات اللمسات التي جرت عليه. في حال كهذه تتفه حتى مسرّاته. تصبح الطبيعة ملاذاً وحيداً. يتمنى أن يذهب فيها، أن يدخلها، أن يملأ بها عينيه وأذنيه وفمه، أن يتوحّد بها توحّداً نهائياً.

هذه الابتهالية الطقسية، لنفس عاشقة، وغير مدركة أنها عاشقة بعد، وغير عارفة أين هو المعشوق، وأية رياح ستحملها إليه، أو

تحمله إليها، والتي تتعب، تسغب، تثور، تنقلب ثورتها مقتاً لكل ما هو أقل من مثل أعلى رومانتيكي، ما تلبث أن ترتطم بالواقع، وبناس الواقع، وطموحاتهم الصغيرة، وسعيهم وراء منافع ذاتية، أو تملّقهم بما هو دون الهدف الإنساني النبيل، في العمل لحياة أفضل، فتتأذّى المشاعر المرهفة، وتتغرّب، وتلوب على ما يبعث الطمأنينة فيها، من خلال تحقّق ما، على أية صورة من صور النضال.

«عندنا مثلا» جاء بعد طول انتظار. جاء عاقلاً كمئات وآلاف من أمثاله، حتى الصورة الطريفة التي أخذها عنه في الصين، وهو ضائع بين حانات النبيذ في بودابست، تشقّقت الآن. تمزّقت بضربة سكين حادّة. بلده، المجر، لا يعزّ عليه بالمقدار الذي تصوّر. مستعدّ للتغرّب ثانية في سبيل مزيد من التحف.. وهو يشقى بهذه التحف شقاء كثيراً، يعجز معه عن التمتع بها. ملكيّته لها تأكله. تتضخّم على حساب إنسانيته. تغتال حبّه للجمال، للثقافة، لمعجزة الفنّ في الأشياء، ولا يبقى إلا التعلّق بالجانب المادّي، الجانب الذي يستبدّ بالنفس، يصيّرها كهفاً يرتع فيه عفنٌ ودود.

ودّ، في هذه الساعة، أن تكون ايرجكا إلى جانبه. ما كان أحد قادراً أن ينوب منابها. لا بيروشكا، ولا ضياء ولا حسن. لكن ايرجكا مسافرة. ربما لا تعود أبداً. إنها في سفارة فنّ لبلادها. هي وحدها فهمت أزمته النفسيّة، فهمتها دون أن تسأل عنها. أدركت بحساسية الأنثى أنه يتعذّب، وأن عذابه ناشئ عن عجز في أن يطمئن، وهذا العجز لقلق مبرح سيطول، ما دام غير قادر على أن يحبّ، وأن يحبّ بجنون كامل، يشفيه من جنون قلقه شفاء كاملاً أيضاً. في هذه الحال صديقه حبيب أفضل منه. إنه رئيس القسم

العربي في إذاعة بودابست، ويبدو قرير العين بعمله، وحبيبته الصغيرة، وبيته الصغير، والجلسة الصغيرة، على كأس، أمام وجبة شهيّة من طبخه، ثم يذهب إلى الفراش، كالملايين من الرجال مع الملايين من النساء، فيلعب لعبته الصغيرة، ويبتسم، وينام مبتسماً، ويفيق مبتسماً، ويذهب إلى عمله مبتسماً كرة أخرى.

ولقد خاصم كرم صديقه حبيب بغير ذنب. لم يستطع أن يكتشف الجانب النفسيّ الرضيّ فيه، ولا طمأنينته التي تجعله سعيداً. خيّل إليه أن حبيب لا يفكّر بالوطن، ولا بالمُثل، ولا بالقضية، وحاكمه على ذلك، وأصدر حكمه بالابتعاد عنه، ورغم ذلك ظلّت ابتسامة حبيب التي تكشف عن جذور أسنانه النسقيّة، معلقة على شفتيه، يقابله بها كلما التقاه. وهذه الليلة دعاه إلى العشاء، على طبق سمك من صنع يديه، وسيقابله بالابتسامة ذاتها، ويتحدث عن الطبق الذي أعدّه بشكل يجعله يشتهي أن يأكل، إضافة إلى أن السمكة من كرم، ولم يزد حبيب على أن تطوّع بتحضيرها. ذلك أن كرم مر بالبازار ورأى السمك حيّاً يسبح في الجام، فابتاع سمكة، ولفّها بكيس ورقي وحملها إلى البيت، لكن السمكة ظلت تتنفّس، ولما كان كرم مشغولا، فقد وضعها حيّة في البراد ونزل إلى الطريق، وهنا فكر في أنّه ارتكب حماقة، وتصوّر نفسه حيّاً في براد، فعاد أدراجه وأخرج السمكة، متوسّلا إليها أن تموت، ورفضت السمكة توسّلاته، فملأ البانيو بالماء، ووضعها فيه، وبعد قليل استردّت أنفاسها، وأخذت تسبح، ولما عاد مساء وجدها تسبح بنشاط كامل، وعندئذ احتار في ما يفعل، فهو غير قادر على قتلها، وهي لا تموت كرمى له، ولا يمكن إبقاؤها في البانيو.. وقصّ حكايته على حبيب، فابتسم هذا، وفي المساء صعد معه إلى غرفته،

وهناك تناول السمكة من الماء، وضرب رأسها على حافة البانيو، فتحطّم الرأس ونزف الدم، لكن ابتسامة حبيب ظلّت معلقة على شفتيه.

هذا المنظر الدامي، لرأس السمكة المحطّم، أفسد الرؤية الشاعرية التي ينظر بها كرم إلى كائنات الوجود. اعتبر حطم رأس السمكة على حافة البانيو قسوة غير مبرّرة. كان يفضل أن يدع السمكة، على أرضية المطبخ، حتى تموت، مثلما يفعل الصياد على شاطئ البحر. ابتسم حبيب لهذه الرقّة المفرطة، وأفهمه أن أية فتاة في البازار، تعمل في السمكة، تفعل كما يفعل. بل إنها تضرب رأس السمكة بساطورها قبل أن تشقّ بطنها، لكن كرم أضمر ألاّ يأكل من لحم «ضحيته»، وساعد الاعتكار الذي خلّفه هيدجي في نفسه على زيادة نفوره من تلبية دعوة حبيب. وهكذا، في اللحظة الأخيرة، هتف إليه معتذراً. آثر البقاء في بيته، غير مكترث حتى بالمتحف الذي كفّ، في الشهور الأخيرة، عن استقبال الضيوف، بإصرار منه. كان يمارس رغبة في معاندة ذاته، فما دام عاجزاً عن الحبّ، والكتابة، والعيش في الغربة، فإنه سيجعل نفسه، عن طريق الزجر، تدفع ثمن السوء الذي تأمر به. وقد شجّعه على هذا السلوك، ضياء التركي، قال له، بطيبته الأبديّة: «احذر يا كرم أن تنزلق إلى هاوية المتعة الرخيصة.. هنا النساء كثيرات، وهذا المتحف يغري بالزيارة، ولديك أسباب أخرى تجعل من اللهو طريقاً إلى الجحيم.. أنت لا تريد أن تصبح مثل أدامو الايطالي، أو كيرياتو اليوناني.. أنت لديك قضية.. احترس يا بنيّ، تذكّر أن ناظم حكمت كان يسكن البيت الذي تسكنه، وأنه كان يكتب. وعندما نقول: يكتب، يعني يخدم قضيته، يَهَبُها نفسه، وليس معنى

هذا أنه كان ناسكاً، لكن العلاقات الاجتماعية شيء، وقضاء الوقت في استقبال الزائرين، والانغماس في الجنس شيء آخر.. لقد اعتقل حميش.. نال جزاءه. فما معنى هذا؟ معناه أنه ضاع، لكن الضياع له أكثر من طريق.. هذا ما أقوله لنفسي أيضاً، وكذلك أقوله لزوجتي وبنتي وابني، الغربة مصيدة.. وقليلون جداً الذين نجوا منها، تذكّر كلامي.. إنني أحدّثك كأب».

ولم يكن كرم بحاجة إلى مزيد من النصائح. هو نفسه تحوّل إلى منتج للنصائح. كان واعياً داخله. يعرف ماذا عليه وماذا يجب، وكيف يجب، لكنه ما كان قادراً على تعليق كلماته على الورق. كان أهون عليه أن يمسك بالريح ويعلّقها من جدائلها على جدران المتحف. من أن يستدعي الحروف ويلاعبها. صارت ريشته خشنة. سكّة حراثة في أرض صخرية. وقال في نفسه: «لماذا؟ لماذا؟.. كيف لا تطاوعني الأفكار كيف تتأبّى عليّ إن شربت أو صحوت. إن القهر الداخلي، لإنسان مأزوم، يمكن التغلب عليه باصطناع مسرّة ما، بالشرب، بالرقص، بالجنس، وهذا ما فعلته، لكن الشعور بعدم القدرة على الكتابة، هي الأزمة اللعينة المستعصية، لأنها مرتبطة بالقلب، وباليد، وبالتركيز. لا يكفي الانفعال وحده، الانفعال زهر لوز يتفتّح ولا يعقد، تينة عاقر، تجهل أوراقها، لكن الخصب بعيد عنها. إن أصعب ما في الحياة أن ينفعل الكاتب، ويظلّ انفعاله عقيماً، فهو، في حال كهذه، كانفعال الرجل، ثم ارتداده عاجزاً عن المرأة.. الارتواء بعيد.. وظمأ في الذات يحرق كالنار».

مضت شهور الآن على ذهابه وبيروشكا إلى قرية «كود» وركوب السفينة النهرية، واستقبال ذلك المغيب المهيب، ويده فوق

يدها على حافة السفينة. وفي نوبة ضعف، أو جنون، قرّر أن يترك بيروشكا. صار الميل إلى تعذيب نفسه حكّة، يمعن في تعذيبها، فتمعن في طلب التعذيب من جديد. الحكة تتآكل، في نوع من لذّة تدمي، تزيد موضع الحكّ، تعمّقه، توسّعه، وتظلّ، في حلقتها المفرغة، مرضاً جلدياً ينشد متعته من سرطانيته ذاتها. وإذا كانت بيروشكا، قد انتهت إلى حبّ يقرب من الهوس، فقد انتهت، أيضاً، إلى يقين يشبه الاعتقاد الكامل، أن كرم إنسان شاذّ، وفيه غرابة أطوار لا تُفهم، وأن عليها أن تتقبّله كما هو، أو تَدَعَ نفسها له، إلى أن يقرّر ما يريد.

كرم قرّر بأسرع مما تصوّرت. قرّر أن ينفصل عنها. رومانتيكته أضافت بعداً جديداً لأزمة عجزه. كان، في ذاته، يمارس شعوراً بالنبل، ونبله كان أنانياً، ككل صفة من هذا النوع. الكرم، الاعتداد، الفروسية، كل هذه القيم، تنشد في ذاتها، من خلال العطاء، ممارسة لذّة مشبوهة: الإرضاء الشخصي. وإذا كان قد توقّف كثيراً أمام «كأنك تعطيه الذي أنت سائله» وأعجب بالبيت، فإنه لم يفطن أبداً إلى أن الإجابة على السؤال، بنفحة كرم غير محدودة، تنطوي على لذّة ممارسة التشوّف، أو الانتصار من خلال جعل الآخرين مدينين للمعروف. وقد كان، حيال الناس معطاء. كان يحسّ بنقص ما، نتيجة أزمته، ويبحث عن تعويض، بتطويق أعناق الآخرين بإحسانه. ومثلما تَهَب الريح الطلع الذي يخصب، كانت هباته طلعاً معروفياً لو انقطع عنه لما بقي له شيء. وليس عتق الآخر، عبداً كان أم محبوباً، إلا هبة تقايض لذة، وفي نشدانها، أعتق بيروشكا، وهبها لذاتها. اعتزل حبّها، دون عناء، واحتسب فعلته في ذمة النبالة. استعاض، بهذا الفعل لممارسة القوة،

عن ضعف داخلي يشدّه إلى فقر مدقع في العواطف تجاه حب المرأة، ولم تفهم بيروشكا دوافع تصرفه، ولا استطاع أن يشرح نفسه لها، وحين ارتدّت توسلاتها خائبة، قرّرت، هي الأخرى، أن تهجره، وأن تحب آخر، أن تكذب على نفسها، فراحت تقيم علاقات جنسية، بغية النسيان، إلى أن كانت حفلة في بيت أحد الأصدقاء، وكان معها عشيقها، وفوجئت بوجود كرم. لم تسلّم. تجاهلته. أظهرت بروداً تهديداً حياله، واحتفاءً حارّاً بالعشيق الذي معها. لم يأبه كرم، الغيرة وليدة الحبّ. هو لا يحبّ. ظلّ لامبالياً، انصرف إلى الاستمتاع بوقته عن طريق الشراب، ولم يرقص إلا مرة واحدة، مع سيدة البيت. كان، من ناحية الحب، معافى، لم يكن يحب، وبيروشكا تعرف ذلك، وكانت هي تحبّ، ويعرف كرم ذلك، لكنه حين رآها مع صديق جديد، آثر الابتعاد عنها، ومرة لم يسمح لعينيه أن تلتقيا بعينيها. وراح صراع صامت يدور، وبشكل غير متكافئ، بين معافى ومريضة، ودام كذلك إلى ما بعد منتصف الليل، حين جاءته صاحبة البيت طالبة منه أن يذهب معها، نهض دون اكتراث. لم يفهم سبب الدعوة.. ما كانت له بصاحبة البيت علاقة، لكنه، كياسة، لم يرفض دعوتها. سار معها في المجاز، إلى أن دخلت المطبخ، وهناك رأى بيروشكا تبكي.. توقّف في العتبة مبهوتاً. لم يقو على عدم التأثر. كان يحب بيروشكا على طريقته: المعزّة. هنا كان صادقاً. كان معزّاً، قادراً أن يبذل، أن يمسح الدمع بمنديل أبيض مجزوء من روحه، وكانت بيروشكا، بفعل حبّ وسكر، جديرة بأن تتصرّف بشكل يخترق المألوف، ولو أراد أن تقبّل يديه، رجليه، لفعلت، لكنّ ذلك لن يزيد في معزّته لها، ولن يجلب، من ناحية أخرى، حبّه لها.. وحين اندفعت إليه، بعد أن

خرجت صاحبة البيت وأغلقت الباب وراءها، طوّقته بذراعيها العاريين، وانهمرت دموعها على صدره، وهي تنشج: «كرم! كرم!» وأجابها «بيروشكا! ما بك يا صغيرتي.. ماذا يبكيك؟» «أنت، ماذا فعلت؟» «لا شيء.. وهذا أفظع ما يكون الفعل.. لقد صيّرتني عاهرة.. صرت عاهرة، منحت نفسي لكثير من الرجال، انتقاماً، تسياناً، لكن ما فعلته زادني جنوناً.. أنا لم أنتقم.. لم أنس، لا أريد الانفصال عنك.. لماذا لا تريدني؟ أليس لك قلب؟ أريد أن أراك، أن أتحدّث إليك، ثم نفترق.. يجب أن تسمعني قبل أن نفترق».

بعد أسبوع رتّب هادي موعداً لهما في أحد المقاهي القريبة من «بانتزورا وتسا». كان هذا شرط كرم للقاء. ربما خشي، إذا جاءت إليه، أن يضعف، وأن يعود إلى ممارسة الجنس معها، وعندئذ تعود العلاقة، كان يعرف ألا شيء يُذلّ الرجل مثل شهوته، ولا يريد أن يمتحن نفسه بتجربة لا يثق بأنه سيخرج منها سليماً. وعندما دخل المقهى كانت بيروشكا بانتظاره، أمام طاولة في الزاوية، وكانت هادئة، رائعة، وشعرها المسبل ينفلش على كتفيها، وطيّته عند صفحة الوجه، تعطيها شبهاً بممثّلات هوليود. وقال في نفسه، بغير وعي: «يا للفاتنة» وسرعان ما ازدهى: هو كرم الجاهدي، اعتزل معاشرة هذه الفاتنة. وهبها لنفسها، كي تختار من تشاء من الرجال، وأن تجد الحب الصحيح، المتبادل، بينها وبين الآخر.

تكلمت بيروشكا. اصغى إليها بانتباه ومودّة. شرب معها قليلاً، لم يجهد نفسه ليتحصّن ضد لهفتها. عدم القدرة على الحب كان حصنه الذي لا يخترق. ولم تزد كلمات بيروشكا، عن الحب، المعاشرة،

الزواج، سوى في الارتطام بحصنه المنيع. وبمنطق واضح، هادئ، أكّد لها أنه يعزّها، لكنه لا يستطيع أن يحبّها.. وقال لها إن ابرجكا قد سافرت، وكانت هي تعلم ذلك، وقال لها إنه لم يعد يستقبل زوّاراً في متحفه، ولا سهرات لديه، وأجابت إنها تعرف ذلك من هادي، لكنها توسّلت إليه أن يبقى صديقها فقط، فأجابها إن هذا ليس في مصلحتها، وأنه لا يريد أن يلهو بها، ما دام لا يحبّها ولا يفكر بأدنى تفكير بالزواج منها.. وقالت حزينة، عاتبة:

- هكذا إذن يا كرم؟
- هكذا يا عزيزتي بيروشكا..
- أنت لم تتخلّ عني لخطأ ارتكبته؟
- أبداً..
- ولست حاقداً عليّ..
- بل أنا أعزّك..
- ولن أراك بعد؟
- أرجو ألاّ يحصل ذلك..
- لنشرب إذن كأس الوداع..

شربا.. كانت الدنيا غائبة، كان الفضاء نسيجاً رمادياً.. الشمس مكفّنة بالرماد، ورأس السيكارتين أيضاً، والريح تلعب مع المظلات في الخارج، ومطرٌ رذاذ، وفي المقهى رواد ساهمون، والجوّ عجاج دخان، يهبط، يهبط، يتكاثف..

وانتهت الجلسة..

خرجا.. هبطا درج المقهى.. صارا تحت المطر.. كان يلبس واقياً، أمسكت به من ياقة الواقي، قبّلته، قبّلها، لكنها ظلّت

ممسكة بالياقة.. وظلت عيناها معلّقتين في وجهه، ودموع تنسكب وتشقّ مجرى على الوجنتين.. وظل الرذاذ يتساقط.. وظلت واقفة، تشدّ به من ياقته، والرذاذ يتساقط..

لغة بغير كلام..
ودموع بغير انقطاع..
ومطر، مطر، مطر..

- ٢٠ -

عادت ايرجكا من رحلتها الفنّية الى الخارج. نظر الناس، حينما ذهبت، الى المجر في عينيها، رأوا بلادها الجميلة في جمالها، في صوتها، وفي البؤبؤين الملوّنين، كبؤبؤي نمر من لاهور، تتموّج لمعتهما ممزوجة من عسل وليل. وقد هتفت الى كرم منذ وصولها، قالت له إنها تمنّت، في أيام السفر، لو كان معها. غير أنه أجابها: «من الأفضل ألاّ نذهب معاً، الى أي بلد.. إنني لا أميل. ولا أطيق، ان تتكرّر قصة أزيد واردانكان ويسينين». سألته: لماذا؟ أجاب: لأن رحلتهما انتهت بمأساة.. حين شنق الشاعر نفسه، بعد أن انفصل عن تلك الراقصة الجهنمية. قالت ايرجكا: «هل أفهم من هذا انك تغار؟» وقال ضاحكاً: «كنت أغار لو املك هذا الحق.. كل ما في الامر انني لا أرغب بالجلوس في خلفية المسرح».

المصادفة الغريبة في لقائهما، كان مقدراً لها أن تذهب الى أعلى، أو تهبط الى أسفل. أن تكون علاقة جنس بحتة، أو علاقة صداقة فيها جنس تتغذّى به.. وكان نادراً، حتى في المجر نفسها، أن تملك نفسٌ كلّ هذا النبل الذي انطوت عليه نفس ايرجكا. وكان يتساءل، هو الذي عرف غير قليل من النساء، عن سرّ هذه الصداقة المتجوهرة، التي لا تنتمي الى الطهر ولا الى العهر، ولا تنتسب الى

رهبة أو رغبة، بل تمنح نفسها كالهبة، كالزهرة التي تنشر الشذى.

ولقد أثّر فيه اتّصالها الفوري، غبَّ رجوعها، تأثيراً كريماً، فهذه الفنّانة، المشهورة في بلدها، وخارجه أيضاً، هي التي تملك إضافة في السمعة، بالنسبة اليه هو، الكاتب المجهول في الغربة، حتى مع الافتراض انه تمكن من الفوز بهذا اللقب. وكان مفهوماً، لو أنها تعرف العربية، وقرأت رواية واحدة مما كتب. كان تقديرها، من وجهة الإعجاب، يكون مبرراً، لكنها وقد منحته ودّاً نادراً، منذ تعارفا، ودون ان يكون للمتحف اي اثر، او لكرمه، على فرض وجوده، اي دخل، فإن هذه النفحة من السماحة، عزّت عليه، جعلته مديناً، تعوزه القدرة على المكافأة.. واذا كان قد عزا تعلّقها به، في لحظة ما، الى نضجها الأنثوي، فإنه سرعان ما اطّرح خاطراً كهذا، يحصر صداقة عزيزة، في زاوية متعة يستطيع أيما شابَ أن يوفرّها لها بأكثر مما يفعل هو. إن ما بينهما كان أكبر. لعله الصدق الفني، في النزعة الإنسانية الكامنة في أعماق كل منهما، «مهما يكن، قال في نفسه، ايرجكا أكبر من امرأة، أعزّ من فنّانة.. إنها بلد بذاته، إنها المجر كلّها، هذه البلاد التي منحتني اكثر مما أستحقَ من كرم وحفاوة.».

في الليلة ذاتها أرسل لها سلة زهور. كان يريد أن يعبّر عن سعادته بعودتها. يفعل ذلك من بعيد، دون أن يقتحم حياتها. فقد انقضى الشتاء وهو يعاند نفسه، يصلبها كما يقول، متلمّساً المسامير. ويرى الدم على أصابعه غير مبالٍ، شاعراً على هذا النحو أنه السيد، وأنه لن يكون، ولا في أيما يوم، ادامو أو كبريانو أو نلسون، هؤلاء هؤلاء الذين يتابعون لعبة اللامبالاة تجاه الحياة، بعد أن أقصوا عن ذواتهم كل ما هو عام، ولم يبق لهم سوى الخاص، الخاص جداً، المحدّد

بدخلهم وراحتهم. أما حيش الذي حكم بالسجن ثلاث سنوات، فقد كان واحداً من عشرات ما زالوا يواصلون سلوكهم السيء، وكان جورج يروي قصصاً عن هذا السلوك، لكنه يثق أن تشدّداً ما حيالهم سيبدأ، وأن نشاطهم المريب سيلقى جزاءه من كل بد. ولكم تحدّث الى كرم عن ذلك، وكم قال له: «معك، يا كرم، افتح قلبي. انت جدّيّ بما يكفي. في البدء خشيت عليك. المتحف، والبار، والسهرات، والنساء، وكنت أتساءل: إلام سيفضي هذا كلّه؟ وهل فرديةُ الكاتبِ- وأنا أعترف له بها- مطلقة؟ إن تميّزه، صوته الخاص، بحثه عن التجارب والتجريب، امور تضعه خارج دائرة الحدود التنظيمية. لهذا يضيق الأدباء، غالباً، بالانتماءات الضيّقة. ولكن حين يربط الأديب، تلقائياً، نفسه بقضية ما فهو يعطي نفسه لها». وكان كرم يزداد إعجاباً بجورج، يقدر ثقافته وحبه للمطالعة، يفهم، من كلامه، أنه ليس مثل أدامو الايطالي، وأن له اكثر من هم تبديل مكان المظلة. فوق طفلته التي حجبت عنه واجبه. كتقدّمي، حيال أطفال الآخرين، الأطفال الذين يموتون جوعاً. وتقضي عليهم الأوبئة، والحروب، في بقاع كثيرة من الدنيا..

وقد قال له جورج يوماً هذه الكلمات التي أفعمته سروراً: «أنت يا كرم، بادرت الى موقف إيجابي، موقف مستمد من القناعة، من الضمير، فأوقفت مهزلة المتحف، وتخلّصت من إغراءات الجنس التي زادت عن حدّها. فرضت على نفسك نوعاً من حياة قاسية.. كي تكتب.. ومع أنك لا تكتب، كما تقول، لسبب نفسي لا أفهمه أنا، فإنما الأعمال بالنيّات.. ما دمت في الطريق السويّ فكل شيء سيصير. ستكتب.. تختزن الآن تجارب تكتبها في المستقبل.. هذا شأنك، انت تميّز بين ما يجب وما لا يجب.. هذا

يرضيني. يرضي ضياء التركي أيضاً. نحن نتحدّث عنك... يقول ضياء إن روح ناظم حكمت التي ما تزال تحوّم في فضاء بيتك ستشجعك وتلهمك»..

وقال له، في يوم آخر: «إنني، يا كرم، لا أميل الى مبالغاتك.. كانت عندي بيروشكا امس. بكت.. شكت طويلاً.. فاتّصلت بك محاولاً أن أصلح بينكما فرفضت.. إنها تحبك.. بماذا أذنبت حتى تقاطعها على هذا النحو؟ ألا تحبها؟» وقال كرم: «المسألة، يا جورج، ليست مسألة حب»، «مسألة ماذا اذن؟»، «لا أستطيع ان اشرح نفسي»، «يجوز.. مزاج أدباء.. غير أنني أقول لك عن قناعة: بيروشكا تحبّك، وهي جميلة، وستكون زوجة طيّبة.. فكر في ذلك»، «فكّرت.. فكّرت طويلاً.. أنا لن أتزوجها، ولن ألهو بها..»، «أنت لديك ايرجكا»، «ولا هذه أيضاً.. العيش لا يتنافى مع الاستقامة.. أن تعيش فهذا ضروري.. إنني أعيش.. لست جدّياً على نحو صارم.. في قلبي حب يسعُ الكون، لكنه لا يسع أيما ابن عاهرة ينسى قضيته، أو يعيش دون قضية.. افهم شكواك إذن، وأشاركك فيها، لكنني أسألك شيئاً واحداً: أن تقنع بيروشكا أنني أعزّها ولا أحبها.. هذا كلّ ما في الأمر»، «وما الفرق، إذن، بين المعزّة والحب؟»، «هناك فرق.. أعفني من الشروح.. أنا مرتاح هكذا.. سأحبّ يوماً، سأحب بجنون، ولكن متى؟ لست أدري.. ربما لم أعثر على تلك المرأة بعد».

اتصال ايرجكا المفاجىء أيقظ العواطف والمواقف والكلمات. راح يستعيدها متلمّظاً، كما لو أنه يتذوق لقمة طيبة. إنه راض عن نفسه على نحو ما. لقد اوقف الانزلاق في الوقت المناسب. ربما لم يكن انزلاقاً بالمعنى التام، لكنه كان يراه كذلك، ليرى انتصاره في وقفه

انتصاراً ماجداً. وحين أرسل، الليلة، سلّة الزهور الى ايرجكا، قال في نفسه: «لو أن هناك من يوصل لي سلّة الزهور إلى القمر!» كان فرحاً، مزهواً، وبرغبة في الدعاب، هتف الى صديقه البارمان فيرانتس قائلاً: «أيها الساقي العظيم، يا أروع السقاة في بودابست كلّها، هل تعرف من يوصل لي سلّة زهور الى القمر؟» قال فيرانتس: «أنت تعرف أنني أرسل خموراً لا زهوراً»، «في هذه الحال، أبعث بزجاجة ريزلنغ يا صديقي». وما هو عنوان عاهرتك أيها الهنجري؟»، «أكتب لديك: القمر، شارع الحوت، جنّية القمر»، «ومتى ستصعد إليها أنت أيضاً؟»، «أنا لن أصعَد إلى أيّما مكان.. ليس لي جناحان. كل ما أستطيعه أن اتي اليك، ليلة السبت، احجز لي مائدة». اتصل في الغداة بايرجكا.. كانت ما تزال في إجازة راحة بعد السفر. وكان كرم قد اتقن الجريّة.. حيّاها بأدب كبير. كانت معزّتها قد زادت عن المعزّة نفسها. روحها الغنية الفنّية. أسرته، وكان يشعر بالتقصير، إنه لم يذهب اليها مسلّماً، وقال لها معتذراً: «أنا، يا ايرجكا، كما تعلمين، ما زلت أعيش أزمتي» وقالت ايرجكا «وتلك الصغيرة بيروشكا؟» «انتهى ما بيننا»، «ومن هي صديقتك الآن؟» «أنت»، «انت لا تريدينني أن أصدق.. أليس كذلك؟»، «صدقي ولكنني عدت بكامل عقلي من الرحلة»، «أنا لا أمزح.. سأمرّ عليك مساء السبت.. حجزت مائدة في مرقص جيد.. أرجو ان يسمح وقتك بقبول دعوتي»، «ألا يمكن تأجيل ذلك؟»، «لا يمكن يا صديقتي، أرجوك» وأجابته: «اتفقنا».

نام بعد ظهر السبت الى المغيب، ورأى حلماً غريباً. ألفى نفسه في مركب شراعي، وسط بحر هائج. كان معه خلق كثير، وكان

بعضهم يبكي، والزورق يتخبّط بين الأمواج. وبدأت المياه تغمر السطح، وعبثاً راح الرجال يحاولون إصلاح القلوع، فكل شيء يتمزّق، وكل شيء ينهار، ومن حول المركب ظهرت أسماك غريبة، لها أجنحة وأرجل، وأيد، وسحنات قردية، كانت تمدّ أكفها ذات المخالب، وتنتزع الركاب واحداً بعد آخر، وتغيّبهم في الماء، حتى لم يبق سواه.. وطفق يصارع، وسط الريح والمطر تلك القرود السمكية، ممسكاً بصاري المركب، صارخاً في طلب النجدة.. وفجأة رأى موجة كبيرة مقبلة. تتدحرج قادمة من الأعماق، فأغمض عينيه رعباً، لكنه، حين فتحهما، رأى امرأة تجلس على قمة الموجة.. امرأة ليس أجمل منها بين النساء.. مدّت يدها اليه، وسحبته من القارب، واستطاع، وهو يعجب لنفسه، أن يمشي على الماء، وأن يصعد الى المرأة.. التي ابتسمت له، ابتسمت كما جنّية القمر تماماً. فصاح فرحاً: «أنت؟» وأفاق دون ان يتلقّى جواباً..

ظل مستلقياً يتابع الحلم بعينين سارحتين وراء تهاويل. كان سعيداً الى درجة لا تصدّق، وكان يتمنّى لو طال الحلم، لو تحقّق، وحين نهض كان ما يزال تحت تأثيره، فأعدّ لنفسه فنجاناً من القهوة، ثم اغتسل، وشرب كأساً من الويسكي المثلوج، استساغ طعمه كأنه لم يذق مشروباً بهذه العذوبة، وفي الساعة الثامنة غادر البيت، وسار متمهّلاً الى بيت ايرجكا..

طرق الباب متلهفاً، وصاح حين فتحته:

- أقبّلك! قالها على الطريقة المجرية وهو يمدّ يده..

فقالت بنبرة حارّة:

- سرفوس كرم (وأعطته خدها فقبّله) كيف أنت؟ ماذا فعلت بغيابي؟ هل انفصلت جدّياً عن تلك الصغيرة؟

- جدّياً يا عزيزتي.. تمضي شهورٌ ولا أراها..

قالت ضاحكة:

- لولا أنني أعرف.. لقلت إنك رجل كسائر الرجال.. قسوت

على بب متلهفاً، وصاح حين فتحته:

- أقبّلك! قالها على الطريقة المجرية وهو يمدّ يده..

فقالت بنبرة حارّة:

* سرفوهي كرم (وأعطته خدها فقبّله) كيف أنت؟ ماذا فعلت بغيابي؟ هل انفصلت جدّياً عن تلك الصغيرة؟

- جدّياً يا عزيزتي.. تمضي شهورٌ ولا أراها..

قالت ضاحكة:

- لولا أنني أعرف.. لقلت إنك رجل كسائر الرجال.. قسوت

على بيروشكا بالانفصال عنها.. ماذا أذنبت المسكينة؟

- لا شيء، وهذا ما يؤلمني.. في نوبة طويلة ومستمرة من محاسبة النفس، قرّرت أن أتوقّف عن اللهو بها.. وجدت ذلك منطقياً، ما دمت أرغب أن أكون صادقاً مع ذاتي..

- وصدقت مع هذه الذات؟ ألم تعاشر غيرها؟ أليس لك فتاة؟ امرأة..؟ قل، ما هي أخبار متحفك؟ ولكن، قبل ذلك، ماذا تشرب؟

- كأساً من الويسكي مع الثلج، اذا كان متوفّراً.. كيف كانت رحلتك؟

- موفقة جداً.. خاصة في باريس.. هناك يتذوّقون الفن.. يا للمدينة الفاتنة! اشتركت في مهرجانين للأغنية، وكان تقدير الأغنية المجرية جيّداً.. لدينا، في هذا البلد، ما نباهي به..

– لديكم أشياء كثيرة تباهون بها.. لكم أحب بودابست يا ايرجكا.. أشعر فيها وكأنني في وطني..

– ومع ذلك تشكو.. ترفض الإقامة الدائمة..

– هذا ما ينبغي.. إنني لا أشكو، ولكن أن أبقى!!

أفهمك تماماً.. حين يكون المرء خارج وطنه برغمه، يمارس إحساساً بالنفي.. حدّثني عن هذا الشعور بعض المجريين الذين لقيتهم في أوروبا وأميركا خلال رحلتي.. لا تكن عكر المزاج.. لا تمضغ المرارة،، ولا تقصر نفسك على الكتابة.. إنني، حين اكون تعيسة، لا أغنيّ، وإذا فعلت لا أكون ذاتي.. يكون ذلك مفتعلاً، كعمل تؤدّيه لكنك لا تحبّه.. أين سنسهر الليلة؟.. لاحظ أنني لم أسهر خارج البيت منذ عودتي.. وكنت سأرفض، لولا أنني أريد أن أصنع بهجة لصديقي الكاتب الذي لا يكتب، ولا يحب، ويحاسب نفسه ويجلدها، لكنه، الليلة، سيكون طيّباً معي.. أليس كذلك؟

في مرقص «أم كي» رحب بها البارمان فيرانتس ترحيباً غامراً. قبّل يد ايرجكا. استأذن أن يعلن في مكبّر الصوت انها موجودة في الصالة، غير أنها رفضت ذلك. كانت تعرف أن المرقص غير المقهى، وأنه مكان لا بأس به، لكنه دون مستواها، ولا تدري لماذا فضّله كرم. وحين شرح لها أن ذلك يعود الى صداقته مع البارمان فيرانتس، ربتت على يده الموضوعة على الطاولة، في لفتة تسامحية، ما دام الوفاء للصداقة هو الذي حمله على أن يفعل ذلك. اقترح كرم ان يواصلا شرب الويسكي ما داما قد بدآ بها، فلم تمانع، لكنها، حين جاءت زجاجة «دنهل» كاملة، رجت كرم ألا يكثر. قال:

– أشعر بنشاط للشرب الليلة..

– مهما يكن، لدينا في البيت ما سوف نشربه بعد العودة.. أم تريدني ان أرجع وحيدة؟

– لقد أوصاني صديقي فيرانتس ألاّ أكون غجرياً.. وأحسب أن عودتي صاحياً ستكون مضمونة.. إنني فرح يا ايرجكا.. فرح بك الليلة..

– ولكنك مهتاج قليلا، ككل أصحاب الحساسية المفرطة.. هل تراني غير مدركة فرحك بي؟ إنك، معي، على ما يرام.. أتعرف لماذا؟ لأنك لا تحتاج الى الكذب، ولا أنا أطلبه.. أأعرف حجم علاقتنا، ونوعها، كلانا ترك مسألة الحب جانباً، وهذا أفضل.. معي تستطيع أن تكون صديقاً بغير حرج.. انت غير ملزم حيالي بشيء.. استوعب مشاعرك.. حين تتألم، تتعب، تشكّ في الآخرين، تعالَ إليّ.. المرأة أقوى على الصداقة من الرجل..

– لكنني، في هذه الحال، سأكون مديناً لك.. إنني، أحياناً، أكاد لا أفهم.. لماذا تغدقين عليّ كل هذا اللطف؟

– لأنني أريدك.. هل أنا غامضة؟ ألا يعرف الرجل أن يأخذ الأشياء ببساطة..؟ تعجبني، هذا كل ما في الأمر.. أنت، تلك الليلة، أردت أن تدفع.. تصرّفت بعقلية رجل تجاه امرأة. لا ألومك، حتى عندنا، لم تنتف العقلية الذكورية.. أنا لن أدفع لك.. هذا يسيء الى العقلية إياها.. أنا أكثر مدنية.. اكثر حضارة، وموقفك منّي معيار.. موقف الرجل من المرأة معيار حضارته.. وأنت، حتى الآن، اجتزت نصف الامتحان. حين لم تطوّبني على اسمك، لم تعتبرني، حتى بمعيار الوفاء، وكما يفهمه الرجل، ملكاً لك، قطعة من متحفك.. وهذا يرضيني.. لقد عرفت كثيرين قبلك، وكل رجل، ما ان ينام في فراشي، حتى يعتبر نومي معه، التزاماً

تجاهه.. فهو يفرض نفسه عليّ. أو يحاول ذلك على الأقل.. وبين هؤلاء فنّانون، أو يزعمون بحكم المهنة، انهم كذلك.. أنت، وربما بسبب أزمتك، لم ترتّب لنفسك أيّا حقّ عليّ.. دعني، إذن اشكر أزمتك.. فلعلّها أن تكون دليلاً على اختلافك عن الآخرين.. إن فناناً عاقلاً، مهندساً، جديّاً. حيسوبياً، لا يلائم مزاجي. في الفن شيء ما زائد عن العقل، أو على الأصح، شيء ما ناقص عن العقل، وهذا ما يجعله حارّاً أكثر، مجنوناً على نحو ما، وأنا أنفر من البرودة ورجاحة العقل.. الرجل العاقل مملّ يا صديقي..

بعث فيرانتس بباقة زهر. جاء في آخر السهرة وسأل عما يطلبان. مازح ايرجكا بقوله:

– صديقي كرم غجري، أو من زمرة الغجر، او من الذين لديهم استعدادات غجرية: أحذّرك منه..

– ليكن ما يكون.. الغجر أيضاً طيّبون، وبعضهم ظرفاء، ولكن ماذا فعل؟

– لا أستطيع أن اقول.. هذه دعابة..

وقال كرم حين انصرف فيرانتس:

– يتّهمني بأنني أرفع رجلي المرأة اكثر مما يجب..

ضحكت ايرجكا:

– لم ألاحظ ذلك، او لعلّي نسيت.. هل رَفْعُ رجلي المرأة بأكثر مما يجب علامة غجرية؟

– هو يزعم ذلك.. يقصد العنف.. الشراسة..

– وأنت؟

– لا أذكر أنني كنت شرساً..

– وماذا في ذلك؟ كن يا صديقي غجرياً الليلة.. أريد، إذا

كنت تعرف ذلك،. أن تمارس الحب معي على الطريقة الغجرية.. انظر هذه كأسي الثالثة... وأنت؟ أريدك صاحياً كما وعدت..

– لكي أصبح غجرياً حقاً يجب أن أسكر..

– ولكن ليس الآن.. كفى ما جلسنا في هذا الوكر.. لا أرغب في الرقص.. هيا..

في بيتها عرّاها بيديه، وعدها ألاّ يكون غجرياً قبل ان يفترعها؟.. استلقت كحواء.. كانت أفعى لاهورية كاملة، وكانت للأفعى رؤوس تطل من مسامها. كانت سرّتها شهّاء. وكانت حلمتاها ورديتين، منفرجتين. وقال لها: «تأنّي.. أريد أن أشرب قليلاً أيضاً.. لا أدري لماذا أحس بأنني مفارقك... حلمت اليوم، بعد الظهر حلماً عجيباً.. رأيت جنية القمر..» قالت وقد تمطّت. ورفعت ذراعيها الى أعلى فبان الإبطان، وبان الشبق وهي تعضّ على شفتها في حركة تقطر شهوة: «تحقّق حلمك يا صغيري.. ها هي جنّية القمر أمامك.. لك كل جسمي، فقط احذر وجهي، احذر عنقي، لا أريد علامة عليها.. لا أحب فضائح الجنس..».

في الضحى، حين أفاقا، دلّلته أكثر من المعتاد، شاقها ان تكون سيّدة بيت، وأن تعدّ الإفطار. سقته عصيراً أولاً. وسألته كيف يفضّل البيض، وعندما عرض عليها المساعدة رفضت. كانت تضع مريلة مزهرة، فوق معطفها الحريري، وقالت له إنها سعيدة لبقائه إلى جانبها، لعدم هربه كالمرة الماضية، وعلى طاولة الإفطار أخبرته انها مطلّقة، وللمرة الثانية، وذلك لأنها لا تريد لأيّما رجل ان يستبدّ بها.. ومما سهّل عملية الطلاق انها لم تنجب.. وتلك، كما فهم، مأساتها.. لقد كانت، هي الأخرى، تعيش مأساة خاصة.

وقبل خروجه، سألته بلهجة جدّ طبيعية:

- سمعت الأخبار أمس؟

- أبداً.. ماذا هناك؟

تردّدت قليلا، أدركت أن كرم لا يتابع الأخبار الجرية، ولا يقرأ الصحف أيضاً، كان مزعجاً ان تخبره لكنّها كانت تحدس ان الوضع خطير. وانه يجب ان يعرف. قالت هاتفة:

- ولكنها الحرب!

قال دهشاً:

- كيف؟ بين من ومن؟ ولماذا لم تخبرين مساء؟

- حسبتك تعرف.. ثم لم أشأ أن أفسد سهرتك.. (أضافت) الأخبار مثيرة.. الحرب متوقعة بين العرب وإسرائيل.. ليتنا سمعنا نشرة الأخبار هذا الصباح.. تعال، سنحاول التقاط أيّا إذاعة.. لا تقلق..

لكن كرم كان قد استبدّ به قلق غريب، قلق يمازجه ندم قاتل، منذ ايام لم يَرَ جورج. لم يسمع الأخبار. وبينا الحرب موشكة على الوقوع، كان هو في أحضان امرأة. اللعنة على الغربة! إغراءاتها كانت أقوى منه، برغم كل ما بذله ليتفادى الانزلاق. صاح وهو يودّعها:

- عليّ أن أذهب.. يا لي من جاهل كبير..

انطلق من الباب الى الدرج. لم ينتظر المصعد. قفز الدرجات عائداً الى بنتزور اوتسا، وهناك، في بيت جورج، كان بضعة طلاب، وراديو ترانزستور من الحجم الكبير، ووجوم يخيّم على الوجوه. أحسّ أنه جاء متأخراً. كان عليه، هو كرم الجاهدي، أن

يكون متتبعاً للأخبار اكثر من سواه. وإذا كان كمثقف، يهتمّ بالقراءات الأدبية. فإنّ تحولاً خطيراً على هذا النحو في الوضع العربي، كان جديراً بأن يلفته، وان يجعله يسهر الليل في التواصل مع ما يجري، وما يطرأ من تطوّر، تزداد فيه حدّة التوتّر الى درجة الحرب، لكنه، بدلا من ذلك، سهر في المرقص،.. لهذا بدا وكأنّ شعوراً بالذنب يتلبّسه، وكان بطبيعته الميّالة الى التلذّذ بمثل هذا الشعور، مثقلاً بتبكيت الضمير، لكن جورج، الذي فتح له الباب، وسأله عن الجديد في الأخبار، أعلن امام الجميع ان التطورات كانت سريعة، ولم يكن بالإمكان، لتعذّر التقاط الإذاعات العربية، سوى الاعتماد على الاذاعات الأجنبية واكثرها غير موثوق، وهم الآن ينتظرون ما تقوله القاهرة ودمشق.

قال طالب يعرف الانكليزية:

- عبدالناصر طلب سحب القوات الدولية من شرم الشيخ وأغلق المضيق.

وقال آخر كان لتوّه في السفارة:

- عقدت هيئة الأركان المصرية السورية اجتماعاً مشتركاً، ووضعت القوات في البلدين في حالة الاستنفار القصوى.

وقال جورج:

- اجتمع رؤساء روابط الطلاب العرب ليلة امس، وقرّروا عقد اجتماع دُعي إليه جميع الطلاب العرب الذي يدرسون في بودابست.. وقد تحدّد موعده في المركز الثقافي المصري الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم.

قرّر كرم أن يشارك في الاجتماع برغم أنه ليس طالباً. سأل جورج عما إذا كان ذلك ممكناً فأجابه أن حضور الاجتماع مباح

للجميع. دارت، بعد ذلك، مناقشة حول التطورات، وحول ما إذا كان العرب على استعداد للمعركة، فكان رأي الأكثرية أن مجرد طلب سحب القوات الدولية من شرم الشيخ يعني أن مصر وسورية مستعدّتان للمعركة جيداً. وأعلنت القاهرة، بعد قليل، أن القوات الأردنية وضعت في حالة الاستنفار أيضاً، وأن مشاورات عسكرية، بموجب ميثاق الدفاع العربي المشترك، تدور في العواصم العربية. وقال كرم: على كل عربيّ في المجر، أن يذهب إلى سفارته ويضع نفسه تحت تصرُّفها، ما دامت السفارات العربية في بودابست هي المراجع المختصة للبتّ في أمر سفرهم واشتراكهم في المعارك عند نشوبها. لكن جورج أبلغه أن هذا قد حدث، وأن السفارات العربية أبلغت وأعطيت أرقام الهواتف، ونحن الآن تحت الطلب.

لم يصعد كرم، طوال ذلك اليوم، الى بيته، تغدّى عند جورج. وبعد الظهر رافقه الى الاجتماع، وهنا وجد حشداً من الطلاب، وبينهم الملحقون الثقافيون، وكان طالب مصري يدرس الرسم قد وضع خريطة للوطن العربي، أشير فيها الى فلسطين المحتلة- اسرائيل- باللون الاسود ورسمت أسهم بالأحمر، على نحو ما في الخرائط العسكرية، تتّجه رؤوسها من سيناء والجولان والضفة الغربية إلى إسرائيل، ثم تكلم شخص لا يعرف كرم من هو فقال: «ان سحب القوات الدولية من شرم الشيخ يعني إزالة الحاجز الفاصل بين القوات المصرية والإسرائيلية من الجنوب. هذا معناه أن المبادرة بأيدي العرب» وأشار الى الأسهم كمنطلق للجيوش العربية التي تحيط بإسرائيل إحاطة السوار بالمعصم، وقال: «إن العرب يعدّون ١٥٠ مليوناً، وأن القضاء على اسرائيل مؤكّد هذه المرة» بعده تكلم آخرون بالمعنى نفسه، والثقة نفسها، ولاحظ كرم

أن فرحاً عاماً بقرب الخلاص قد شاع في الوجوه، وبعد الاجتماع عاد الى بيته يحاول عبثاً التقاط أيّما إذاعة عربية في الراديو الضخم والقديم الموجود في غرفته.

في الصباح اجتمع عدد كبير من الطلاب العرب السوريين في بيت جورج. وفي الضحى خرجوا الى الحديقة ومعهم الترانزستور. كانت الحرب قد بدأت، وكانت صوت العرب تذيع البلاغات، وهي مشجّعة، لكن الإذاعات الاجنبية كانت تبثّ أخباراً مغايرة، ومع تقدّم*النهار تَبلبل الموقف، لكن جورج، وكرم وضياء التركي، وحسن الإيراني، وكل الذين تجمّعوا في حديقة البناء الواسعة كانوا يكذبون أنباء الإذاعات الأجنبية، وخاصة إذاعتي لندن وصوت اميركا، ويعتبرونها حرباً نفسية لصالح اسرائيل، ولكسر المعنويات العربية.

بقيت الحال كذلك الى المساء. نساء العائلات العربية في بنتزور اوشا أعددن طعاماً للمجتمعين الذين تكاثر عددهم، وكانوا يخرجون ويدخلون، وفي كل ساعة خبر جديد. لكن البلاغات العربية كانت تبعث على الأطمئنان. وهكذا انقضى اليوم الاول والثاني. وفي اليوم الثالث، قبل الظهر، عقد اجتماع كبير اشترك فيه الطلاب العرب الموجودون في بودابست، والذين قدموا من جامعاتهم في المدن الأخرى، وجرت اتصالات مع السلطات المجرية، فوافقت على خروج مظاهرة سلمية تأييدية للعرب، شارك فيها عدد كبير من الطلاب المجريين والأجانب، وخاصة من القارات الثلاث، وسارت حاملة اللافتات الكبيرة، والأعلام العربية والمجرية، وعلى رأسها ممثلو الطلبة وكرم، وضياء، وحسن، وفهمي، ورفض ادامو الإيطالي أن يدع مظلته وابنته، وكذلك تهرّب كبريانو، وكان لنلسون

الإنكليزي موقف معارض، لأنه لم يتأكد بعد من أن هذه الحرب عادلة، ولم يعرف من كان البادئ بها.

أمام السفارة الاميركية خطب ممثّل الطلاب المصريين، ولم يستطع جورج الكلام بسبب نوبة ربو مفاجئة، فاقترح الطلاب السوريون ان يخطب كرم ففعل، ثم تلاه آخرون، ولم يتح لضياء وحسن أن يتكلما باسم بلديهما، وكانت الكلمات كلها تندّد بإسرائيل واميركا، وتؤيّد الموقف العربي ضد الصهيونية، وتعلن الدعم الكامل والاستعداد للمشاركة في القتال، وخطب رئيس اتحاد الطلبة المجريين معلناً موقف بلاده المؤيد لنضال العرب وعدالة القضية العربية، وفي وسط هذا الحشد الهائل من المتظاهرين، أحس كرم بيد تقبض على ذراعه وصوت نسوي يقول بالفرنسية:

– برافو كرم، كنت رائعاً يا عزيزي!

– وصاح كرم دهشاً وهو يلتفت الى مصدر الصوت:

– بيروشكا! ماذا جاء بك الى هنا؟

– الذي جاء بكل هؤلاء الطلاب.. حرّضت كل الطالبات واشتركن في المظاهرة.. وأمس رسمت بعض الملصقات وعلّقتها على جدران الكلية.. إنني معكم يا كرم..

وقال كرم:

– شكراً يا بيروشكا! يا عزيزتي بيروشكا.. هذا جميل منك.. يسرّني ان تكوني معنا..

قال بيروشكا وهي تشير الى جدار مقابل السفارة:

– انظر أليوش.. انه مع التلفزيون المجري ينقل وقائع المظاهرة..

كان اليوش فعلاً هناك.. كان طويلاً، بارزاً، يتكلّم في سمّاعة المسجل، وكان نصر جيل على الرصيف، وكانت الحماسة، من خلال الهتافات، تشعل جوانب الباحة، وطالب على الأكتاف يتلو «ردّية» والريح تخفق باللافتات والأعلام، وبعد ذلك توجهت المظاهرة الى السفارة المصرية، وهناك انفضّت.

ومن جديد، في المساء، احتشد الطلاب في بيت جورج، جاء بعض الطالبات والطلاب المجريين ايضاً، استمعوا الى نشرة أخبار التلفزيون، رأوا الى مشاهد من المظاهرة، لكن الأخبار، من الإذاعات الأخرى، ازدادت سوءاً، وقيل إن إسرائيل تتقدّم في سيناء، وان الجنود المصريين يتراجعون أمام قواتها المدرّعة، ونظر الطلاب العرب بعضهم الى بعض، وخرج كرم الى الحديقة، لا يريد أن يسمع ولا أن يصدّق، وجاءت اليه بيروشكا، ولم تتكلم أمام الحزن البادي على وجهه.

بعد ذلك رهجت الاحداث. كانت تتراكض، تتداخل، تتطوّر، شبيهة بالتفافات أفاع سوداء على بعضها في قفص زجاجي. ولج النهار في الليل، والليل في النهار، ولم يذق كرم طعم النوم، مشى غراب على روحه، داس وحيد القرن على صدره، أطلّت من الجدران رؤوس شياطين كما في الوجوه المرعبة لأوبرا بكين. كل شيء بدا غريباً، خرافياً، مقيتاً، يكشر عن أنياب جنكيزية. يقهقه كما العفريت الذي أفلت من قمقم، ومئات الكلمات، مئات الأسئلة، مئات الأجوبة، راحت تردّد في بيت جورج الذي أصبح بيتاً للجميع، لكل الذين جمعت بينهم النكبة، وحلّت عليهم، وبهظتهم، من رجال ونساء وطلاب وأولاد.

وفي ختام اليوم السادس بلغت المأساة ذروتها. القوات الإسرائيلية صارت على القناة. طلب وقف إطلاق النار. ثم إيقاف النار.. استقال عبدالناصر، وبكت النساء، بكى بعض الرجال، وخرج كرم من البيت ليبكي دون ان يراه أحد. تسلّل الى الحديقة، ومنها انطلق الى الشوارع، وسار على غير هدى. تعرّت الجدران. الورق الملوّن الذي كان يستر بشاعتها مزّقته يد وحش مرعب. الكذبة الكبيرة تكشّفت عن سلسلة لا تنتهي من الاكاذيب. الخريطة، والأسهم، والجيوش، والمئة والخمسون مليوناً من العرب.. كل شيء انهار. كان كرتونياً وانهار البناء كان مشيداً على رمال. أين الصخر؟ أين الإنسان الذي هو الصخر والبناء والقوة والسلطة والمبتدأ والمنتهى؟ إنه، مثل كرم، ضائع، تائه، ملاحق، متّهم، مدان، والبالون الكبير، الضخم، المزوّق، المعبود، المرسل في سماء فارغة، لعملقة لم تكن الا كتلة رصاصية تضغط على الصدور. وخزته إبرة، مسلّة، شقّته مدية، فانفجر، وتطاير شظايا، وظهر أن ما في داخله كان ريحاً، مجرد ريح، وسلاسل لا عد لها من قيود وقيود وقيود..

لا يدري كرم كم من الوقت مضى، لم يعد يشعر بوقت ولا مكان. سواد. كل شيء غدا غيمة سوداء تنثال كدخان وتملأ فمه وصدره وعينيه، وتغمر كيانه كله. وفي نوبة من النقمة الشاملة على كل شيء، وعلى نفسه أيضاً، عاد الى بيته. دخل وفي عينيه احمرار، ودمع، وحرقة، وكانت سترته مفتوحة، ورباط عنقه محلول، وشعره قد شعثته الريح. كان الشقاء الداخلي، لنفس تألمت لأنها اضطهدت، وتألمت لأن مضطهدها تألم بدوره، لوطن نفاه، ولوطن صار منفياً في هزيمته، قد فجّر في صدره ثورة على الخطأ، ولأنه لا يستطيع تجاه

هذا الخطأ شيئاً، ولأن الخطأ قد انسحب على الجميع، وتطلّب ثمنه من الجميع، ومنه قبل الآخرين،، فقد اندفع، حتى دون ان يغلق الباب وراءه. راح يمزق اللوحات، يحطم الخزف يبعثر الأشياء في المتحف، وجمع قبضته، حين واجه صورته في المرآة، وضربها بعنف، بعنف بالغ، قاتل، فتحطّمت، وتناثرت، محدثة دوياً شديداً، وسال الدم من يده، وسمع وقع أقدام، بعد لحظات، وأحاطت به أذرع، وكان جورج، في مقدمة الذين ضمّوه الى صدورهم وبكوا.. ولم تهدأ انتفاضة الدمع، والغضب، والحزن، إلا حين أعلنت القاهرة ان عبدالناصر رجع عن استقالته، وان الشعب المصري، الذي يهظته الكتلة الرصاصية، الشعب الطيّب، الرائع، بعمّاله، وفلاحيه، ومثقّفيه، وكسبته، ونسائه ورجاله وشيوخه، قد خرج يطوف الشوارع صارخاً في وجه الهزيمة: لا!

- ٢١ -

سواء كانت هزيمة حرب أم هزيمة معركة، فإن مرارتها فاقت كل ما عرفه العرب في الغربة سابقاً. في البدء سمّوها نكسة. لكن جرح هذه النكسة كان عميقاً، وكان وقعها، في النفوس، أشبه بوقع الصاعقة. الذهول، من بعدها، تطاول. استفاق الجميع على واقع مرعب. ما حسبوه شحماً كان ورماً. ما ظنّوه قوة كان ضعفاً. ما اعتقدوه صدقاً كان كذباً. كانوا كالسائرين في النوم، وحين، على شفا الجرف، فتحوا أعينهم، وجدوا الهاوية سحيقة لقد خُدعوا جميعاً. من الذي خدعهم؟ من الذي صنع الهزيمة؟ على من الذنب، بعد كل شيء؟ وقال كرم، في ذات نفسه: «علينا جميعاً» على الذين صادروا حرية الإنسان العربي، وعلى الإنسان العربي الذي سمح لحكامه بمصادرة حريته. على «البلفة» الكبرى، والانتفاخ الضفدعي، والخطب والبيانات والإذاعات، وعلى وهم الرقم القاتل للمئة والخمسين مليوناً، والذين، في عزّ المعركة ضد الاستعمار والرجعيــة، حوّلوا الحربــة الى صــدور حواريّيهم، رجالهم، طليعتهم.» وحين خطب عبدالناصر، معلناً «انتهاء دولة المخابرات» ارتسمت على الشفاه بسمة شاحبة: «بعد ماذا؟».

الشماتة التي صارت في الغرب، حين أجهزة الإعلام، التلفزيون

في المقدمة، راحت تنشر صور الجنود الهاربين في سيناء، لم يصر مثلها في المجر. كان في عيون المجريين عتب فقط. كانت أسئلة: كيف؟ ولماذا؟ وأين..؟ ولفترة اضطر كرم الى ملازمة بيته. وقال جورج إنه يفعل مثله، وقال الطلاب إنهم، لأول مرة يخجلون من النظر في عيون صديقاتهم. هتفت ايرجكا عدة مرات. أجاب كرم على بعضها، معتذراً، بكثير من اللطف، عن أيّ لقاء. جاءت بيروشكا. لكنها جاءت لتشارك كرم صمته لا أكثر. وقال حسن، جدّياً هذه المرة: «ماذا حدث لأمة العرب يا أخي؟» وضياء التركي، من باب التعزية، تحدّث عن حرب الاستقلال، عن الأماني الوطنية الضائعة، عن الشعوب التي لا تدمّرها الهزائم، وقال أليوش: «شيء لا يُصدّق يا كرم! تصوّر، الكارثة اكبر مما توقّعنا: سيناء، الضفة الغربية، قطاع غزة، الجولان.. ما هذا؟ كيف حدث؟ الصحف والإذاعات الغربية تبثّ أخباراً مرعبة» ومن الشبّاك، نظر كرم الى الحديقة: كان ادامو في مكانه، ونلسون يتفيأ، ويقرأ كتبه الماركسية، وواصل كبريانو لعب التنس، وظل المتحف خرباً، محطّماً، مبعثراً، وفي رسالة مختصرة، كتب كرم استقالته وقدّمها الى الجامعة، وأعلن، بصوت لا لون له، صوت حزين، مقهور: «أنا عائد الى الوطن». وقال هادي: «الصحف المجرية تنشر أنباء مئات الألوف من النازحين، تتحدّث عن سقوط الجولان والقنيطرة، وتهيب بالشعب إلى التبرّع، إلى تقديم المساعدات الممكنة، للأصدقاء الذين يتلفتون إلينا في ساعة المحنة، وأن جارته العجوز، دقت عليه الباب، حاملة حقيبة ملأى بالملابس والأدوية، وقالت: «اعذرني، لا أعرف لمن أوجّه هذه الحقيبة». وقال جورج إنهم استدعوه، بصفته رئيس الرابطة، لبحث موضوع

المساعدات... وأن المجر أرسلت كذا طناً من الأدوية، والأغذية، والبطانيات، وأن اتحاد الشباب، واتحاد الطلاب، والاتحاد النسائي، والمنظمات، شرعت بجمع المساعدات والتبرعات، وأنه اختير عضواً في لجنة استلامها لتنظيم إرسالها إلى سورية.

اتفقوا بعد ذلك على أنه ينبغي عليهم القيام بواجبهم. دعا جورج إلى اجتماع عقد في بيته، حضره الطلاب والموجودون في المجر من السوريين، وشارك فيه كرم، مقتعداً كرسياً في أقصى القاعة، متألماً، مثل جورج لأن بعضهم لم يلبِّ الدعوة، مع أنه كان يقدر ألاّ أحد سيتخلف، ولا أحد يطاوعه وجدانه أن يتخلّف. وبعد أن شرح جورج الموقف، والنكسة الخطيرة، ومئات ألوف النازحين من الجولان، ومبادرة المجريين لتقديم المساعدة، قال إن الحياة لا يأس فيها، ولا يجب أن يكون، الخسائر يمكن تعويضها، الأراضي التي احتلّت تحتاج إلى نضال لتحريرها، لكن ما هو أهم، ألا نكون أقل من المجريين مبادرة إلى المساعدة، ينبغي جمع مبلغ من المال، نرسل به أدوية إلى الوطن، أو موادّ غذائية للنازحين، هذا ينقلنا من السلب إلى الإيجاب، من الدموع التي ذرفناها، إلى الفعل الذي يرفع من قدرنا في عيون المجريين، ويتيح لنا أن نشارك واقعياً في تخفيف آثار النكسة، والاستعداد للمستقبل.

كان يتكلم بوهن، وبين الجمل ينفخ من مضخته المطاطية الهواء في فمه لتسكين الربو، وتناول ورقة وقلماً، لتدوين الملاحظات والاقتراحات. تكلم بعض الطلاب. تكلم جورج ثانية معقباً، كان من رأيه أن الطلاب العرب اعتادوا ان يعملوا قليلاً ليربحوا بعض النقود. ففي الشتاء يشاركون في رفع الثلج المتراكم من الطرقات، وفي الصيف في قطاف الفاكهة وجمع الخضروات، ولكن هذا عمل

خفيف. الآن، في حزيران، ليس من ثلج، وقطف الثمار تسلية، ولأجل الوطن، وإشعار المجريين بجديتهم في تقديم مساعدة جيدة للنازحين من مواطنيهم في الجولان والقنيطرة، عليهم أن يعملوا في البناء. هنا يحتاج المجريون إلى أيدٍ عاملة، والأجر مرتفع، والحصيلة ستكون محرزة، تبيّض الوجه، وقد بحث مع المجريين في ذلك، فكان جوابهم أنهم يقدرون عاطفة الطلاب العرب نحو وطنهم، وهم بحاجة إلى أيدٍ عاملة، وهناك أعمال ترميم في القصر الأمبراطوري، الذي سيحوّل إلى متحف، ويمكن لمن يريد أن يعمل فيه.

استحسن الحاضرون هذا الرأي. أبدوا حماسة ايضاً. شرع جورج بتدوين الأسماء، فلما فرغوا تكلم كرم لأول مرة:

– سجلّوا اسمي معكم..

التفت الجميع إليه. الاستاذ يطلب العمل في البناء، وفي مثل عمره. يداه اللتان تعوّدتا على القلم فقط، تستطيعان تحمّل عمل صعب في البناء. قالوا:

– نقدر عاطفتك يا استاذ.. لكن في مثل سنك، وأنت كاتبنا، فإننا نناشدك أن تسحب اقتراحك.. مشاركتك تكون في الكتابة لا في البناء.

قال كرم:

– لا كتابة قبل العودة إلى الوطن.. أنا عائد إلى الوطن بعد شهر على الأكثر.. لقد استقلت من الجامعة، وأوقفت برنامجي الأدبي في الإذاعة.

وقال طالب:

– ولكنك، كما تعرف.. (ولم يكمل)

قال كرم:

– فهمت.. ومع هذا سأعود. هناك، كما قلت، يمكن أن أكتب. قد تكون كتابتي مساهمة في خدمة الوطن والمجتمع، وقد لا تكون، لكنه الواجب على كل حال.. هنا لم أستطع أن أكتب.. سأحمل غرستي الذابلة، العقيمة، الى تربة البلد، هنا سيعاودها الاخضرار، فتورق، وتثمر، وفي سبيل ذلك يهون كل شيء.. أعرف المصاعب، أعرف أن الألم ينتظرني، إنني أبحث عن الألم، سأتعلم أن أتألم، وسيكون لألمي فائدته.. انتهى كل شيء الآن. اتخذت قراري. سأعود.. لكنني سأشارك في العمل معكم، سجّلوا اسمي، هذه مسألة مفروغ منها أيضاً.. جورج لا يمكن أن يعمل في الغبار. في حالته الراهنة، كمريض بالربو.. العمل في البناء يقضي عليه. المسألة هكذا: جورج يقوم بمهمة الاتصال بالذين لم يحضروا الاجتماع. يضعهم في صورة هذا الاجتماع، يدعوهم الى المشاركة في العمل، ويأتي للاطلاع، للإشراف من بعيد، أما أنا، وإذا وافقتم، فسأكون في المقدمة، اسمحوا، بحكم العمر والتجربة، أن أقودكم لأداء هذه المهمة.

حين انتهى الاجتماع، وبقي جورج وكرم وحيدين، قال جورج:

– ما كان يجب، يا كرم، أن تشارك في عمل صعب كهذا، وأن تكون على رأس العاملين. أنا أعرفك. هادىء وبهيج واكثر الطلاب يعرفونك، يقدرونك، وقد رجوك أن تكتب، لكنك أصررت على العمل معهم.. لماذا؟

لأنك لن تكون موجوداً بينهم في الورشة بسبب مرضك، ولأن العمل شاق، واذا لم يكن هناك من يتولّى ضبط الأمور، من يكون قدوة، من يعمل بجدّ، فإن الآخرين لن يعملوا، والذين يعملون في

اليوم الاول. سيتغيبون في اليوم الثاني، أو الأيام التالية، متذرّعين بالمرض، بالسفر، بالدراسة، بأيّ عذر.. وجودي بينهم، انا الذي اكبرهم كثيراً، سيشد عزائمهم، سيحرّضهم على العمل، ويجعلهم يخجلون من التهرب..

– إذا كان ذلك كذلك فأنت على حق.. لكنني أرجوك. اكتفِ بالإشراف..

– في الورشة أقرّر ما أراه مناسباً.. غداً صباحاً نجتمع عند ساحة الأبطال. ومن هناك ننطلق كما اتفقنا، وأغلب الطلاب، كما أعتقد، يعرفون القصر الامبراطوري، من يتأخر يلحقنا الى هناك.. أعطني لائحة الاسماء.. من هو المسؤول هناك؟.. اكتب اسمه في اللائحة.. سأقابله فور وصولنا الورشة. وأدَعُه يحدّد لنا قطاع العمل في القصر..

بعد الظهر انتقى بعض التحف، وأرسلها الى ايرجكا، مع بطاقة منه. جاءت بيروشكا التي أبلغها جورج أن كرم قرّر العودة الى الوطن، وأنه سيذهب غداً صباحاً للعمل في البناء مع الطلاب. وأنه رفض إعادة المتحف الى وضعه السابق، لأن إقامته في المجر انتهت.. قال لها، من باب المودة، إن كرم يتألم، إنه يعيش أزمة، وإنهم اصروا عليه ألا يذهب الى عمل البناء الشاقّ فرفض، وقال لها: «اذهبي اليه، كوني لطيفة معه. اجعليه يتسلّى قليلا. لا تجرّبي أن تحولي بينه وبين ما قرّر.. عودته إلى الوطن أصبحت ضرورية.. أنا أعرف أنه سيلاقي بعض المتاعب، وأنه سيتألم، لكنه قال إنه يبحث عن الألم.. تصوّري ماذا يدور في رأس هذا الصديق؟».

وجدته بيروشكا يشرب. يصغي إلى السمفونية التاسعة لبيتهوفن. يجلس بين خرابة من محتويات متحفه. لا يسمح لأحد

بالدخول، ولا بتنظيف الشقّة، ولا يذهب إلى أيّا مطعم. يأكل تواشف، معلبات. لكنه يشرب.. يشرب صامتاً كئيباً. هي، بحسّها الأنثوي، بخجلها الزائد، بحبها العميق، استشعرت الآن مأساة حبيبها. قبّلها من خدها عندما دخلت. رحّب بها كأنما يريد، قبل فراقها القريب، أن يكون لطيفاً معها الى آخر حدّ. أن ينسيها أنه قاطعها. أن يجسّد لها معزّته. وحين عرضت عليه أن ترتّب أشياء البيت قليلا، رفض. كانت الزجاجات الفارغة على الطاولة الصغيرة وحولها، لقد شرب كثيراً في الأيام الاخيرة، وكان لديه، في بيت المؤونة، كمية من زجاجات النبيذ، ومن الكونياك، وزجاجة ويسكي، وأخرى فودكا، وقال لها إنه سيشربها كلها.. سيشرب الى ان يأتي يوم الرحيل، وأنها تستطيع منذ اليوم أن تأتي اليه ساعة تشاء، كصديقة، صديقة فقط، فالماضي لن يعاد. «إنني أعاقب نفسي».

فكرت بيروشكا أن تهتف إلى ايرجكا. إنْ يكون وجودها مسلّياً له فلتأتِ. لن تعترض. لن تغار. لن تغضب ولن تهرب. لكنه نهاها عن ذلك، قال إنه لا يستقبل أي امرأة. زوّاره محدودون: ضياء، حسن، فهمي، حبيب، ومن الغد سيكون مشغولاً، وسيأتي من العمل تعباً، لذلك يعتذر عن استقبال أحد في الليل. أضاف:

- بيروشكا خذي أي قطعة من هذا المتحف كتذكار..
- لماذا؟ أنت لن تعود إذن؟ أهو الفراق نهائياً؟
- أحسب هذا..
- ألن تكتب إليّ؟
- لا أدري..
- ألا تفكر بدعوتي إليك؟

- لا أدري..
- ماذا لو ذهبنا معا يا حبيبي؟
- لا يمكن.. أنا غير ذاهب إلى البيت كما تتصوّرين..
- أين ستذهب إذن؟
- لا أدري بالضبط.. غير أنني، لا أستطيع أن آخذك معي. إتمام دراستك أهمّ.. ثم ماذا؟ نتزوّج؟ أنت تعرفين رأيي..
- ولن تسمح لي بالذهاب معك غداً إلى العمل؟
- غداً ستكونين في الكلية.. لا نساء بيننا.. ماذا تستطيعين أنت هناك؟ تعملين في رفع الأنقاض؟
- أفعل كل ما يجعلك تأخذ صورة طيّبة عني..
- أنا آخذ صورة طيّبة عنك..
- كرم! أنت غير مفهوم، وستظل غير مفهوم.. هل هذا لتعذّبني أكثر؟ لتجعلني أحبك أكثر؟
- أنا غير مبهم على كل حال.. ماذا عندي من الغموض؟
- من تحبّ؟
- لا أحد..
- لا أصدق.. قلت مرة إن ثمة نداء مجهولاً بالنسبة إليك..
- كنت أمزح.. أحس ذلك أحياناً.. اسمعي يا بيروشكا حلمت منذ مدة بجنّية القمر.. رأيتها كما في اليقظة..
- تريد إقناعي بأنك مجنون؟ ثمة امرأة تنتظرك.. قل من هي؟
- ليس من امرأة بعد.. ايرجكا فهمت مشكلتي أفضل منك.. إنني عاجز عن الحب، عن حب امرأة حتى الجنون، هذه هي المشكلة.
- تعتقد أنها ستنحلّ في بلدك؟.. تعثر على المرأة التي

تناديك؟.. أنا لا أصدق حكاية جنيّة القمر هذه..

– وأنا لا أصدقها.. عقلي يرفض خرافة كهذه.. لكن قلبي، عاطفتي، وجودي، كل ما فيّ ضد عقلي.. أخشى أن تكون هناك جنية قمر حقيقية وأن أجنّ فعلاً..

في المساء طلبت منه أن يخرج بها إلى أيّ مكان. «لتكن جلسة وداع» قالت.. «وبعدها لن تراني، لن أفرض نفسي عليك.. وقال لها: «قرّرت ألاّ أغادر البيت.. ولكن إذا كنت مُصرّة على جلسة وداع فسنقوم بذلك الليلة.. هيّا بنا».

في نحو الساعة التاسعة كانا في بار «سيف» (القلب). كان مكاناً ليلياً صغيراً، وفيه موسيقى بسيطة: عازف بيانو وعازف كمان، وكانت، تلك الأيام، تروج أغنية: «يسعد مساؤك عزيزتي بيروشكا» فطلب عزفها، وراحا، معاً، يصغيان إليها، والصمت سوار حول القلبين، ودخان سيكارته يتعالى رمادياً، حلزونياً، ممزوجاً بذلك الهمّ الوطني الذي أناخ عليه، كأنما يتقاضاه، هو دون سواه، ثمن ذلك العبث، والتفريط، والعنجهية، وذلك القمع، والمصادرة، وتقزيم الإنسان، ونفيه من ذاكرة الحكام، وعدم وجود الشعب في أيّ قرار يتّخذونه.

وإذ رأت بيروشكا إلى حزنه أخذت تبكي، فسألها: «ما بك؟ ألست سعيدة معي؟» قالت: «أحاول أن أكون سعيدة، لكنك حزين، صامت وأعرف أني سأفارقك، وهذا ما يبكيني» قال كرم، «لا بأس يا بيروشكا، أنا لست إلاّ عابراً في حياتك، لست إلاّ صديقاً سيحتفظ بذكراك طويلاً، لكنك، أنت، وفي هذا المجتمع الجديد، سيكون لك كل ما تطمحين إليه: الدراسة، والعمل، والزوج، والمستقبل.. ثمة رجال كثيرون، وستجدين مع أحدهم

السعادة التي لم أستطع أن أمنحك إياها» وأجابت ودموعها تتواصل: «أجل هناك رجال كثيرون، لكن أين يمكن العثور على صديق مثلك؟».

أوقفته في الشارع، مثلها يوم المقهى والمطر، كانت السماء صافية الآن، نسيم عذب رقيق. أضواء، الحركة هادئة، الشارع طويل، على امتداده، يتراءى، وليس من سابلة، عادت إلى البكاء. قبّلته وعادت إلى البكاء، قالت: «ألن نلتقي بعد؟» قال: «ربما. سأهتف إليك يوم السفر، لكنني، قبل ذلك، أفضّل أن أبقى وحيداً، أنا وقراري. وسأكون مشغولاً نهاراً، وفي الليل، حين أجد فضلة من قوة، سأوضّب أغراضي. أوصيت على صناديق خشبية. سأبعث بأشيائي بحراً، إلى ميناء اللاذقية، وأركب الطائرة، إلى دمشق.

كان الليل قد انتصف، وكان المبنى ساكناً، لكنه ما كاد يدخل بيته حتى قرع الجرس. من؟ كان ضياء وحسن وفهمي بانتظاره، أبلغهم جورج بما جرى في الاجتماع، فقرّروا المشاركة في العمل، قال ضياء: «ليست المسألة بحجم ما نستطيع أن نؤدّيه، ولكنها مسألة تضامن، الروح الأممية يا كرم» كان يقف وسط الغرفة، طويلاً، هزيلاً، يكحّ، وشارباه يتهدّلان على فمه، وسيكارة تحترق بين أنامله، «نحن، أضاف، معكم.. سأعمل ولو ليوم واحد. هذا الربو اللعين لن يعيقني. أنت ستكون مشرفاً، جيّد. أعطني عملاً خفيفاً.. بعيداً عن الغبار.» قال حسن وفهمي: «نحن في صحة جيدة. أعطنا عملاً صعباً. هذا لا شيء، مستعدّون للتبرّع أيضاً، لا بأس ستخرجون من المحنة» وعندئذ أنشد ضياء قصيدة لناظم، بلغة تركية جميلة وفيها هذا البيت: «من الأيام السود إلى الأيام البيض».

توجهوا صباحاً إلى ساحة الأبطال، كانت كوكبة من التماثيل تحيط نصف إحاطة بالساحة. كانوا بكامل قاماتهم، وبوجوههم البرونزية، وفي المقدمة البطل الكبير، أرباد. ومن هناك، في المترو أولاً، ثم الباص، توجه الطلاب إلى القصر الامبراطوري. كانوا حوالي ثلاثين طالباً، وكان المهندس المسؤول بانتظارهم، وقال يشرح عملهم: «في الطابق الرابع أنقاض أعمدة، أحجار، أتربة، أسياخ حديدية،.. مهمتكم أن تزيلوها. الأتربة تجمع في السلال الكبيرة، وتوضع في المصعد، وتفرغ في الباحة، حيث تنقلها الشاحنات، أما الأعمدة والأخشاب والقضبان الحديدية فتحمل على الأكتاف، وتنزلون بها على الدرج، وتلقونها في الباحة أيضاً».

تولّى ضياء عملية المصعد. كل دوره أن يعطي الإشارة من الأسفل، وهناك من ينقل سلال الأتربة والأنقاض. كرم وحسن وفهمي صعدوا إلى الطابق الرابع، مع الطلاب، وشرعوا بحمل الأعمدة الخشبية. كان الغبار كثيفاً. تجميع الأنقاض والأتربة أثار موجات كثيفة منها، عمل الجميع بجدّ. بهمّة. لكن الغبار خنقهم، كان كرم يلبس ثياباً عتيقة، وعلى رأسه قبعة تشبه اللبادة، لم يلبث، منذ الساعات الأولى، أن نزعها ووضعها على كتفه، مع ذلك تسلّخ الكتف. أحسّ بنار كاوية تخرج منه. صرّ على أسنانه كيلا يشكو. صار يحمل على الكتف الآخر، لكن هذا تسلّخ أيضاً. ولم يلبث الصعود والهبوط أن أنهكا قواه. تجلّد ما استطاع، وعندما، في الساعة الثانية عشرة، دوت مطرقة الغداء، كان التعب قد هدّه، قصدوا مطعم العمال. طاولات مستطيلة من الخشب. مقاعد خشبية أيضاً. لكل عامل رغيف من نوع «الصمّون» وطبق من اللحم والخضار. كانوا جياعاً. أحسّوا أنهم أشد جوعاً من أيّ يوم في

حياتهم. وبانتظار طبق الطعام التهموا بعضاً من أرغفتهم. كانت شهيّتهم منفتحة. وكان الطعام لذيذاً، أو هكذا وجدوه، وأكلوا بنشاط، أتوا على ارغفتهم وأطباقهم، وبعد ذلك أشعلوا سيكاراتهم، فالتمعت رؤوسها وهم يعبّون منها بنهم شديد..

ضياء، مع الأسف، لم يستطع إكمال يوم عمله، الغبار لطّخ وجهه وملأ فمه وأنفه، وعندئذ هاج سعاله، فبقي جالساً في المطعم، مركوناً عند قدم الجدار، يداري تعبه الذي هدم جسده المنخور. وحين دوت مطرقة العمل، لاحظ كرم أن بعض الطلاّب قد تسلّلوا وهربوا. استشاط غضباً. قال للآخرين: «نصف يوم ويهربون، لأيّ وجدان هذا؟ أيّة جدية، وأي شعور بالمسؤولية؟ «لكنه فوجئ، في اليوم التالي، بغياب عدد آخر. صحيح أن طلاباً جدداً انضمّوا إلى العمل، لكن العدد أخذ يتناقص، وراح بعض الطلاب يختبئون في زوايا الطوابق، ولم يجد بداً من الحلول محلّ ضياء، على المصعد، كي يرى من يحاول الهرب. لقد كان إصراره على العمل في موضعه، لولاه لازداد الهرب، لكن وجوده، تجلّده، تفانيه، أخجل الآخرين، وهكذا بقي القسم الأكبر منهم، وكانوا، عند عودتهم في المساء، يجرجرون أجسادهم التعبة، وكان كرم يستحمّ، ويشرب، ويبذل جهداً إضافياً في توضيب ما تبقّى من متحفه في الصناديق.

الزيارة الأحلى، التي كان يترقّبها، ويتلقّاها بفرح طفلي، كانت زيارة ضياء في بعض الليالي. يشربان معاً، يتحدثان، يحكي ضياء عن نضال شعبه التركي، عن الفقر والجوع والقمع، عن البؤس في استانبول، عن البؤس الأشد في برّ الأناضول، وعند الانتشاء، ينشد بعض قصائد ناظم حكمت. كان كرم يطرب. كان يحزن، وكاد، لولا الحياء، يبكي، لكن القصائد كانت تبعث فيه عزيمة

جديدة، وروحاً حنوناً، على مواصلة العمل، وعلى التصميم القاطع، التصميم الذي لا رجعة عنه في العودة إلى الوطن. كانت المجر عزيزة عليه، صار يحبّها حقاً، لكن الوطن كان عزيزاً أيضاً، وكان حبيباً. وكانت تنبعث من قصائد ناظم روح إنسانية نضالية خارقة، وخاصة قصائده من السجن، وقصائده من المنفى، وكان يستنشد ضياء، بكثير من الإلحاح، قصيدة ناظم عن أرض المجر.. «سلاما يا أرض المجر، يا أنت، كرغيف، ملأى بالأسرار، ومثله مباركة أيضاً. سلاماً للنهارات، والليالي، والدوالي، والعشاق، والأغاني في ربوعك.. لا يشبع المرء من إنسانك، وخيالك، ونعمتك، وحريتك، وشاعريتك وخمرك». وحين يبلغ ضياء، من قصيدته، ترنيمة الوداع، كان صوته يغدو رخياً، فيه حزن وشجو: «وداعاً، يا من أكرمتني أكثر مما أستحق.. وداعاً! وربما عدت، وربما خان العمر من يعلم، لكنني أعلم، أن يوماً سيأتي، إني أعلم، تسافرين فيه إلينا، ونسافر إليك، ويعبر بعضنا إلى بعض، كما نعبر حديقة إلى أخرى». وحين تنتهي القصيدة يخيم الصمت، يظل كرم إلى النافذة، يقوم ضياء، بغير كلام، فيغلق الباب وينصرف. كان هو، لا ناظم، يودّع صديقه، يودّع المجر فيه، والأيام الجميلة، وتلك السهرات الرائعة.

وفي إحدى الأمسيات، حين دخل كرم باب البناية، بثياب العمل، والغبار والسخام على وجهه وعنقه ويديه، استوقفته البوّابة، قالت له: «تعالَ، ثمة من ينتظرك عندي». استمهلها أن يغتسل ويعود، لكنها أصرّت على أن يرى من ينتظره من فوره. وعندما أطلّ من الباب، اضطرب للمفاجأة، كانت هذه ايرجكا! ارتبك، مسح يديه على جنبي بنطاله قبل أن يصافحها، لكن ايرجكا صاحت:

- لا تخجل.. لا تمسح يديك.. أنت الآن كرم الحقيقي، كرم الذي ترك القلم، ترك المتحف، وذهب ليعمل في البناء، لأجل شيء عزيز، عزيز كأكثر ما في الوجود.

اعتذر عن دعوتها إلى بيته، «كل شيء فوضى» قال لها. وعدها أن يزورها، لكنه لم يفِ بالوعد. كان يتفادى المواقف الدراماتيكية، ولا يسمح لأيا عاطفة أن تثنيه عما اعتزم. كذلك لم يهتف إلى بيروشكا. لم يخبرها بموعد سفره. آثر أن يكون الوداع بغير دموع، وفي نهاية الأيام العشرة، المحددة للعمل، تفرّغ لتوضيب ما تبقّى من أشيائه، وشحنها، بمساعدة البوش، بحراً، وقطع تذكرة سفر بالطائرة، ولم يأخذ معه سوى حقيبة واحدة، ولم يقبل، بعناد، أن تقام له حفلة وداع. قال:

- شكراً لكل شيء. لكل العواطف. شكراً يا جورج، ويا جميل، وضياء، وحسن، وفهمي، شكراً لكم جميعاً..

أضاف مازحاً:

- انتهت دراستي، صحيح أنني لا أعود بشهادة علمية، لكنني أعود بتجربة.. هناك، ربما، سأجد بعض المتاعب، بعض المصاعب، لكن الغربة أقسى من كل شيء.. إنني كنت سعيداً هنا. كنت سعيداً معكم، ولكنني، وبرغم كل الظروف، سأكون سعيداً في الوطن أكثر.. هناك أرضي، وبيتي. هناك أهلي، وهناك سأكتب..

في المطار تقبل باقة زهور من مودّعيه. عانق الجميع، وضع رأسه على صدر ضياء. كان العجوز يبكي ويبكي هو أيضاً. وحين صعد الطائرة، هتف في نفسه: «وداعاً يا أرض المجر»، واستسلم، طوال الرحلة، لذكرياته وأفكاره الخاصة. وفي السابع عشر من أيلول، عام

١٩٦٧ كان في مطار دمشق. ومن هناك هتف لشقيقته، وحين جاء دوره أمام شباك الجوازات، نظر مسؤول الأمن في الصورة، ونظر إليه، وقال له «لحظة!..» ذهب إلى «الفيش» وحين عاد طلب منه أن يقف جانباً، وجاء من أدخله إلى إحدى الغرف وأغلق الباب، وعندئذ أدرك أنه موقوف.

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل أركب سيارة جيب. وضعوا القيد في يديه وأركبوه سيارة جيب، ولم يقل له أحد شيئاً، ولم يسأل هو، عن شيء.. وفيما السيارة تمضي، نظر من فتحتها الخلفية إلى السماء..

كان القمر مشعّاً. كان يغمر الكون بضياء أبيض. حدّق فيه. ظل يحدّق فيه، خيّل إليه أن في القمر نقطة يعرفها. اتّسعت النقطة. ارتسمت.. ظهر ما يشبه الوجه، ظهرت على الوجه ابتسامة.. وابتسم بدوره قائلاً: «جنّية القمر سافرت معي..»

وأغمض عينيه على سعادة لم يعرفها من قبل.

(انتهت الرواية يوم ١ تموز ١٩٨٣)